المتمردة

وحوريات أخرى من بنات أفكار
أشهر الكُتاب العالميين

جورج برنارد شو

ELCTRONIC LIBRARY

للنشر والتوزيع

المتمردة

جورج برنارد شو

Telegram: electronic_library

جورج برنارد شو

المثمرة

وحوريات أخرى من بنات أفكار
أشهر الكُتاب العالميين

إعداد
خليل حنا تادرس

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

عزيزى القارئ.

تحياتى إليك....

هذه مجموعة رائعة من الأدب العالمى لأشهر الكُتّاب العالميين اخترتها لك من بين مئات القصص العالمية.

من الأدب اليونانى الرائع قدمت لك قصة حوريات البحر للكاتب هيرالد انا سويس. وقصة حب ملتهب للكاتب الصينى لين يوتانج. وهذه قصة عذراء الغابة لكاتب الهند العظيم ربندرات تاغور.

وبرنارد شو الذى يقدم لنا قصة المتمردة. وقصتان من الأدب الأمريكى، هما الهاوية، واعترافات خاطئة، والرهان للروائى العالمى أنطون تشيكوف. ومجموعة أخرى من القصص الممتعة. أرجو أن أكون قد وفقت فى اختيارها.

وختاما تقبل أسمى آيات حبى؛

خليل حنا تادرس

●●

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

حوريات البحر

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

1

ذهبنا إلى شاطئ البحر فى أصيل أحد أيام الربيع البديعة لنستقبل المعلمة الجديدة لمدرسة القرية. وكانت السفينة تلقى مرساها فى عرض البحر، إذ كانت المياه ضحلة فى ذلك الخليج المهجور الذى كان يمتد عند نهاية قريتنا فلما لمحنا السفينة تمر برأس الخليج ثم تنحرف عنه، قفز «ديكاس» إلى زورقه «يانا» - الزورق الذى أطلق عليه اسم زوجته - وراح يجدف مسرعا فى اتجاه السفينة.

ولما كان الشاب لم يرحل يوما بعيدا عن القرية، فقد توقع أن تكون المعلمة من ذوات الكعب العالى والعوينات «النظارات» . ولكنها بدت نحيلة رقيقة. ترتدى ثوبا خفيفا من أثواب الربيع، وحذاءين من أحذية «التنس» وتضع على رأسها قبعة واسعة من القش المزخرف بالكرز الصناعى.

وهبطت المعلمة إلى قارب «ديكاس» ثم اضطجعت ملقية بكل ثقلها على يديها، بطريقة جعلت ثدييها الصغيرين ينفران إلى الأمام وكأنهما يوشكان أن يخرقا ثوبها المزركش برسوم الزهور. ومالت برأسها إلى اليمين قليلا، وسددت نظراتها إلى شاربى «ديكاس» ثم قالت: «أنك جميل!..» . قالتها فى بساطة ساذجة لا أثر للقحة ولا لليونة أو الرقة فيها.. وكان وجهها الشبيه بوجه طفل صغير، يرزح تحت اكتئاب يبعث على العجب، كما كان يتجلى فى أغوار عينيها الرماديتين أسى لا حد له.

Telegram: electronic_library

أجل.. كانت معلمتنا مخلوقة غريبة.

أما «ديكاس» فما خطر له قط أن امرأة تجسر على أن تقول هذا الذى قالته لرجل، فقد كنا فى قريتنا نعتقد أن الكلمات الشبيهة بـ «جميل» لا تستعمل إلا عند الحديث عن النساء، أو الزوارق، أو إناث الخيل. لذلك ظل برهة يراجح مجدافه فى الهواء، ثم قال لها فى غضب:

- اسمعى أيتها السيدة... إننى رجل متزوج

فابتسمت، وهزت كتفيها فى غير اكتراث وقالت: «ما سألتك فى هذا» . أما هو فتهدجت أنفاسه، واشتدت سرعته فى التجديف وغمغم لنفسه وهو يشيح بوجهه:

- الحق أنهم أرسلوا إلينا امرأة تقمصها شيطان مريد.

ومالت على حافة القارب لتغمس يدها فى الماء. ثم قالت فى صوت ناعم دون أن تنظر إليه: «إن زوجتك تدعى يانا. أليس كذلك؟»

فكف «ديكاس» عن التجديف مرة أخرى، وتطلع إليها، ثم همس وفى لهجته نبرة الخوف: «وكيف علمتى ذلك؟»

فتراقصت على جفنيها ابتسامة خفيفة، ثم سددت بصرها إلى اسم القارب المنقوش عليه. وقالت فى فتور: «أنك لبالغ الغباء يا صديقى»

وجال بخاطره لحظة أن يرفعها بين ذراعيه ويغمسها فى البحر. ولكنه ما لبث أن تذكر أولئك الذين ينتظرون عند الشاطئ فولاها ظهره وانطلق يجدف وهو واقف.

وقالت الفتاة: «لابد أن يانا عند الشاطئ مع الآخرين» . وحين لم يجبها، أردفت تقول: «لقد عرفت ذلك لأنك أوليتنى ظهرك. إن ذراعيك تبدوان فى

Telegram: electronic_library

قوة ساقى الفحل الخلفيتين ولكنك أوتيت قلبا كقلب الأرنب، يعمره الجبن. أتراها تضريك؟»

واستدار «ديكاس» فحدجها بنظرة ثم ألقى رأسه إلى الخلف فجأة وانطلق بصوت عال. وتناهت إلينا ضحكته عند الشاطئ، فاجتمعنا على أن معلمتنا ولابد غنية بذخيرة من الفكاهات المستملحة. بيد أن شماس الكنيسة راح يعبث بالرمال بطرف عصاه مفكرا، ثم تمتم: «ألا يشم أحدكم ريحا منذرة بالشر؟»

فتساءل العمدة: «أى شئ؟»

- أصارحكم أننى لا أدرى لما أقول معنى. ولكن ثمة هاجس يتسلل فى نفسى كما تتسلل الأفعى خلال الأعشاب.

وفكر العمدة برهة، ثم هز كتفيه وقال فى غير اكتراث «وأى شيطان يعرف ما يهجس فى نفسك؟»

لله در عمدتنا العجوز. كان واسع الحكمة. ولم يكن مستطيعا أن يقرأ الكتب. لا ولا كان يحب الشماس كثيرا، لأن عبير البخور كان يفوح دائما فى أردانه - وكان البخور يثير أمعاءه - وإنما كان يحب البحر، والسماء، والغابات، ويلم بكل أسرارها. وكان بوسعه أن يروى القصص الطوال عن الشهب الزرقاء التى تخلفها النجوم الهاوية وراءها. وعن جنايات البحر التى تعمر أعماق الماء. وعن أشجار الغاب. كما كان قادرا على أن يقرأ نفوس الناس خلال عيونهم. وكان كل أهل القرية تقريبا يدعونه «السيد» وما كان ليخطر ببال أحد منا أن يكون عمدتنا سواه، طالما ظل العجوز الأشيب على قيد الحياة.

وكان يحرص عادة على أن يكون آخر من يتكلم، ولكنه فى هذه المرة كان أول من تقدم إلى معلمة مدرستنا، فصافحها قائلا: «أهلا بك فى قريتنا»

Telegram: electronic_library

. بينما حملق الشماس إذ رآها، وقال فى صوت خفيض: «ما أرى إلا أن معلمتنا قد أوفدت إلينا ابنتها بدلا عنها»

وتطلعت إلينا المدرسة بنظرة تشبه نظرة الطفل حين يتكلف الجد وقالت فى سذاجة: «أنكم جميعا قوم ذوو جمال» ثم أشارت إلى «ديكاس» واستطردت قائلة: «ولكن هذا جبان كبير» . فصاح «ديكاس» محنقا: «إننى يا سيد....» يبسط الشيخ يده مسكتا، ثم قال: «هيا بنا وإلا هبط علينا الظلام قبل أن نبلغ القرية»

وإذ هممنا بالسير، تحول «ديكاس» فجلس على صخرة وهو يقول: «انطلقوا أنتم، أما أنا فسأصل إلى القرية قبل الظلام بوقت طويل، لأننى سأسلك ممر الموت. فهل منكم من يرغب فى أن يأتى معى؟»

ارتجف الشماس لدى سماع هذه الفكرة وقال له: «أنك فى منتهى الجنون أيها الأخ ديكاس» . بينما اكتفى العمدة الشيخ بالقول فى هدوء: « لا تنس أننا فى الربيع»

- وما فى ذلك؟.

- إن شيش البحر لم يجف بعد على الصخر يا بنى.

وتساءلت المدرسة: «هل الطريق إلى القرية خلال ممر الموت أقصر؟»

فأجابها العمدة: «أجل.. إن المسافة عبر ممر الموت لا تستغرق ثلاث دقائق، فى حين أنها تستغرق ساعة ونصف الساعة خلال الطريق العامة»

- إذن.. سأذهب أنا الأخرى عبر ممر الموت

فقهقه الشماس حتى بانت السن المثلومة فى فكه الأسفل، بينما سألها الشيخ فى جد: «أو تدرين ما هو ممر الموت؟» فلما أجابته بالنفى قال: «إنه فى نهاية الأرض المشرفة على البحر يا صديقتى»

Telegram: electronic_library

وأشار بيده إلى حيث بدت هوة رهيبة يطل عليها - على الارتفاع ألف قدم فوق سطح البحر - ممر ضيق يتخلل الصخور الملساء التى تقوم فى وضع عمودى فوق الماء، حتى لكأنها قد اقتطعت بفأس وألقى ما اقتطع منها فى الظلمات المدلهة تحتها حيث يمتد البحر إلى ما لا نهاية. مؤلفا دنيا أخرى لا تعمرها سوى الأسماك وجنيات البحر. وهذه الجنيات - كما تقول الأساطير - حسان مشغوفات بالآدميين. فإذا صفا ضوء القمر طفون على سطح الماء، ورحن يمشطن شعورهن على ضوئه. أما إذا بدا القمر أحمر، فإنهن يمكثن فى قاع البحر معولات باكيات، ويوفدن إحداهن لتستبين أحزان البشر، لأن القمر لا ينزف دما إلا إذا كان الآدميون يعانون حزنا بالغا.

والتفت الشماس إلى زوجة «ديكاس» وقال: «أترين رجلك ثملا يا يانا، حتى يفكر فى اجتياز هذا الممر؟»

والتفتت المدرسة تتفرس فى وجه يانا، ولكنها لم تر الكثير منه، إذ كانت تلف رأسها بوشاح أصفر، فلم يكن يبين من وجهها سوى أنفها وعيناها. عينان واسعتان، سوداوان راحت مقلتاهما تطوفان فى محجريهما فى خوف وحيرة، وقد انتصبت قامتها كجذع شجرة. وسألت زوجها فى صوت خافت: «أو عقدت العزم يا عزيزى؟»

فلما رد بالإيجاب، حدقت فى أغوار عينيه، ثم أحكمت وشاحها حول رأسها وقالت فى إعياء وأسى: «لننطلق، فهو مصمم»

وكانت يانا امرأة صموتة ولكنها كانت خبيرة باستشفاف نفس زوجها من خلال عينيه، فى جلاء عجيب. وكانت مسرفة فى ثقتها فيه، حتى أنه حين سألها قبل عامين أن تفر معه، قالت له فى نفس الصوت الخافت: «أو عقدت

Telegram: electronic_library

العزم؟» وكان أخوتها يريدون إذ ذاك قتله، ولكنه كان قد حزم أمره، فسعى على جواده إلى نافذتها ذات ليلة وحملها إلى جوف الغاب، حيث قضيا الليل كله. ثم أتى بها فى الصباح التالى إلى قريتنا. وتوقعنا أن يدور على أثر ذلك عراك حامى الوطيس مع أهل قريتها، بيد أن إخوتها باعوا جيادهم وأرضهم ونزحوا إلى الخارج، فلم يدر أحد لهم مقرا بعد ذلك.

وقال الشيخ: «لننطلق، فأنا الآخر أعتقد أنه وطن عزمه»

وكانت المدرسة مستغرقة فى التفكير طيلة الوقت، فما لبثت أن بسطت ذراعيها وكأنها تحاول أن تستبقينا، وصاحت بنا وبالفتى ديكاس وقد أمسكت بذراعه وراحت تهزه فى عنف: «أفقدتم جميعا رشدكم؟.. لماذا تفعل ذلك؟»

فأجابها ديكاس فى بساطة: «لأننى أريده»

– أو تريد أن تموت؟

وهنا أنبرت لها زوجته «يانا» بصوت عميق: «دعى ذراعه» ثم اختلست النظر إلى صدر ثوب المدرسة وقد بدا مفتوحا يكشف عن رقبتها البضة وهمست فى تهدج: «استرى ثدييك» فحدجتها المدرسة بنظرة قاسية، وقد ازداد الأسى الجاثم فى عينيها الرماديتين تكاثفا وغامت على وجهها سحابة معتمة ثم قالت فى أسى وهى تتحول إلى ديكاس: «إننى أكره مثل هذا العناد الأحمق. فإذا كنت تقدم على هذا العمل لأننى رميتك بالجبن؟»

لكنه قاطعها والشرر يتطاير من عينيه: «دعينى وشأنى يا امرأة»

فتحولت عنه، وصاحت فينا بصوت جهورى كأننا تلاميذ: «سيروا»

وكانت الشمس قد انحدرت رويدا، ولن يمضى طويل حتى تمس أفق البحر فى رفق بالغ ثم تغوص إلى القاع لتستحم ويبقى ضوءها بعض الوقت

Telegram: electronic_library

منعكسا على قمم أشجار الغابة. ومن ثم أعنا المدرسة على امتطاء صهوة جواد، وانصرفنا متعجلين. وقبل أن ندور مع انحناء الطريق، رأينا - والخوف يملأ نفوسنا - ديكاس وقد تشبث بالصخور وعلق حذاءيه على كتفه وراح يسير فوق الهوة فى بطء متناهٍ

وما لبث الظلام أن هبط، وأن بقى فى الفضاء وهج أصفر واهن راح يرتجف محتضرا. بينما تأهب القمر للبزوغ

وفى القرية، كان البدال «انستيا» قد أعد ثلاث موائد تحت الشجرة العتيقة الضخمة وكساها بورق الصحف، ثم جلس ينتظرنا. فلما رآنا راح يقفز فى مرح صبيانى وهو يصفق ويصيح بزوجته: «لقد أحضروا العصفورة يا امرأة» وهزت زوجته رأسها، ثم دلفت فى صمت إلى داخل الحانوت لتعد لنا الحلوى والشراب. ولم يكن أحدنا قد عرف بعد ما جرى لديكاس، ولكنا قبل أن نجد الفرصة لنسأل «انسيتا» أن كان قد رآه سمعنا صيحة كصيحة الطير تنبعث من قمة الشجرة فتطلعنا لنرى ديكاس مستلقيا على الفرع الرئيسى فى الشجرة. وقال: «ما أراكم - حيث أنا - تزيدون على عشرين فأرا، وصرصارة صغيرة»

ثم راح يقهقه بصوت مرتفع. وفى اللحظة عينها، دبت الحياة فى الوهج الأصفر الواهن الذى كان يرتجف فى الهواء فإذا هو يسطع بضوء باهر انصب على أغصان الشجرة وارتمى على البحر. وفجأة، ساد الصمت، وتجمد ضحك ديكاس على أوراق الشجرة، ورفع الشيخ يده فى انفعال وأشار إلى الجبل قائلا: «القمر.. انظروا إلى القمر»

والفتا جميعا.. ونظرنا.. فإذا القمر أحمر

■■■

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

2

ما كان أسرع انصرام الربيع فى ذلك العام..

لم يعد الوهج المرتعش يضئ الفضاء، وإنما كان ضوء الغروب ـ الشفق ـ ينعقد فوق البحر والغاب ساكنا لا حراك به، وقد بدا فى جماله الجامد كالشباب الميت. وكانت أشجار الساحل فى سكونها وانتصابها كأشباح ترهف السمع، كأنما كانت ثمة قصة مفعمة بالحزن تروى عليها.. وكان الصيف قد حل ومع ذلك فإن معلمتنا لم ترحل عن القرية. وكانت إذا ما أوشكت الشمس أن تغيب فى نهاية كل نهار تأخذ العصاة التى تتوكأ عليها فى نزهاتها، وتنطلق إلى الغابة. ويقولون أنها كانت إذا صادفت شابا مليحا من قاطعى الشجر، سعت إليه ووقفت أمامه صامتة، وقد عقدت ذراعيها على صدرها وجعلت تحدق فى عينيه، كما تحدق القطة فى عينى عصفور يتأرجح على غصن، فلا يقوى على التحليق هاربا. وكان قاطع الشجر يحرك إذ ذاك فأسه فى خور ووهن، حتى تنساب الفأس مفارقة يده، فيدعها بين ركبتيه، ويروح يتأمل المرأة بنظرات ناعسة وكأنه ينصت إلى أغنية يتصاعد صداها من وراء الغاب. وعندئذ، كانت المدرسة تستلقى على طبقة كثيفة من ورق الشجر، وقد عقدت يديها خلف عنقها، وتقول فى صوت ناعم لين: «تعال فاجلس بالقرب منى»..

Telegram: electronic_library

ولقد سمع بدالنا «اسنيتا» عن هذه الأفعال فهمس للمدرسة وهى تمر بمتجره ذات يوم وزوجته غائبة عن المكان: «تعالى أقدم لك بعض الحلوى»

ولكنها لم تعره انتباها، فقد كانت لا تكاد تخاطب أحدا فى قريتا وإن اعتادت أن تسير من وقت إلى آخر مع العمدة الشيخ حتى النافورة. وعندما سألها الشيخ يوما عن السر فى أنها تبدو دواما حزينة، أجابته: «لست أدرى...» ودقت على قلبها فى وهن كأنما ودت أن تقول: «أشعر بشئ هنا» . فسألها الشيخ: «أترينها دودة.. مثلا؟» فأجفلت وتساءلت: «دودة؟» ثم ازداد أساها فجأة وهمست: «أجل.. لعلها دودة».

وفى ذلك اليوم حدثته لأول مرة عن أهلها. فقالت أنها ذهبت فى ظهيرة أحد الأيام تجلب من البئر ماء، فإذا بزلزال عظيم قد دك دارها على رؤوس أسرتها جميعا، فدفن أفراد الأسرة السبعة تحت أنقاضها. وكانت ميتة سريعة، مباغتة كأنما ابتعلتهم الأرض، دون أن تدع لأحد فرصة ولو ليئن متوجعا.. اللهم إلا أختها الصغرى التى هتفت مرتين: «أماه... أماه» ثم ساد الصمت. ولم يبق غير الغبار. غبار أصفر راح يطفو فى الجو صاعدا إلى السماء.

بيد أن الشيخ لم يصدقها. إنما كان يحلو له أن يقول أن معلمتنا من جنيات البحر. وصدقه الكل، حتى شماس الكنيسة لم يلبث أن صدقه على مر الأيام، واقترح على القس أن يذهبا فيصليا فى غرفتها أثناء غيابها فى الغاب ذات يوم.

ولكن ديكاس قال أن كل ذلك هراء. بل إنه ذهب إلى حد أن راهن انستيا على أنه لن يمضى طويل وقت حتى يضطرها إلى أن تجرى وراءه ككلب صغير. ومن أجل ذلك شرع يتعقبها فى أحد الأيام وهى تسعى إلى

Telegram: electronic_library

الغابة فلما بلغا النافورة فطنت إلى الأمر فكفت عن السير وعادت أدراجها إليه، ثم راحت تضربه بعصاها على عنقه، دون أن تتبس ببنت شفة.

وفى اليوم التالى تربص ديكاس بها عند الجسر خارج القرية. وكان قد أنبأنا بأنه سيشدها من شعرها ويجرها إلى النهر، ولكنها حين مرت به، رمقته بنظرة قاسية جعلت جميع قواه تتسرب من جسده. ومن ذاك اليوم اعتاد أن يجلس على الجسر فى كل مساء ينتظرها، وقد دلى ساقيه فى الماء، إلى أن يسمع دقات عصاها على الحجر وهى مقبلة. فإذا اجتازت الجسر، كان يحنى رأسه محييا ويقول فى صوت ناعم: «عمى مساء » . ولكنها لم ترد التحية أبدا، لا ولا التفتت إليه. فكان يظل فى مجلسه على الجسر إلى ساعة متأخرة من الليل، ثم ينهض عائدا إلى داره فيلقى بنفسه على السرير، ويولى وجهه شطر الحائط ويروح يئن بصوت عال وهو يعض وسادته. بينما تظل «يانا» ساهرة تصغى لأنينه، وقد ثبتت بصرها على لهب الشمعة.

أجل، كانت «يانا» تعرف أمره. ولكنها لم تجسر على مكاشفته به. غير أنها فى إحدى الليالى سمعته يبكى فى صمت فى جوف الظلام، فبسطت يدها ومسحت على شعره برفق، وإذ ذاك قفز قائما وراح يضربها فى غضب أهوج. ثم ولى وجهه شطر الجدار ثانية. ومرة أخرى مسحت «يانا» على شعره بيدها الحنون فلم يقو على احتمالها، ومن ثم أمسك بها وشد قبضته عليها. ثم استدار، وأسند رأسه إلى صدرها، وقال: «يانا... لابد لى من أن أصارحك...»

فوضعت أصابعها على فمه تسكته، وقالت: «نم الآن، فإذا أقبل الصباح فاذهب إلى الشاطئ وانظر قاربك واعن به، فقد توانيت عن العناية به فى المدة الأخيرة ولن تلبث الشمس أن تتلفه»

Telegram: electronic_library

وإذ ذاك استوى معتدلا فى جلسته، وأنعم النظر فيها، وقال: «أجل... أجل.. هذا ما ينبغى أن أفعل» . ثم همس موجسا: «أتراك تحاولين أن تقولى....؟»

لكنها لم تنبس ببنت شفة، بل ظلت نظراتها عالقة بلهب الشمعة وهو يتطاول ثم ينكمش فى تواتر متناسق لطيف. وما لبث ديكاس أن ارتمى على الفراش راقدا من جديد، ثم قال بصوت خفيض وهو يحدق فى السقف: «هل أقتلها يا ياناى؟»

- بل يجب أن ترتد رجلا كما كنت.

وفى الأمسية التالية، لم يعن ديكاس بتحية مدرستنا، وهى تعبر الجسر، بل ربت على الحجر الأملس، وقال فى زمجرة: «تعالى هنا يا هذه» . لكن المدرسة مضت فى طريقها وكأنها لم تسمع شيئا، وإذ ذاك هتف ديكاس مزمجرا من جديد: «تعالى هنا يا هذه»

وتوقفت فحدجته بنظرة غريبة. ثم اقتربت منه وجلست على الحجر. وانحنت لتشرع فى فك رباط حذائها وهى تقول متلاهية: «هاأنذا أنصت» .. فحزم أمره وقال لها: «قد تكونى من جنيات البحر. أو لعلك الشيطان نفسه.. فإن الحالين لدى سواء... أسمعت؟»

- أجل.. سمعت.. فهات ما عندك

- لم يبق عندى شئ آخر

فقالت بهدوء: «حسنا.. إذن، أسبح وراء هذه»

وطوحت بفردة من حذاءيها الأبيضين إلى النهر.. فقهقه ديكاس عاليا وقال:

- من؟.. أنا؟..

Telegram: electronic_library

- لا تفغر فاك وتحملق فىّ كالسمكة.. يجب أن تذهب وتحضرها

- بل أنت التى تذهبين وراءها. لسوف أطوح بك إلى البحر مع حذائك أيتها الشيطانة.

- أنظر... أنها تبتعد مع التيار. ولو أنك لحقت بها قبل أن تختفى فسأنتظرك فى صباح الغد عند ممر الموت.

ووقف ديكاس لا يحير حراكا، وقد راح يحدق بغباء فى نصل سكينه المرهف.. وقال أخيرا: «أنت.. تنتظرينني؟»

- قلت لك أسرع.. أنك لن تستطيع أن تلحق بها إذا هى انحدرت مع الماء من فوق سفح التل.

- اجل.. ولكن.. اسمعى.. إننى

- يا لك من أحمق.. ما جدوى الإطالة فى الكلام؟.

ونقل ديكاس بصره بين وجهها والحذاء الأبيض الذى كان يطفو على سطح النهر كالزهرة، محاولا أن يشق لنفسه طريقا عبر الحصى الذى كان يحف بالمجرى الضحل. فقد كان ثمة شعور مبهم يوحى إليه بأن زوجته يانا تراقبه ولابد بعينيها الواسعتين الحزينتين. وما لبث أن قفز من مكانه وراح يعدو نحو النهر متنقلا فوق الحجار بحركات سريعة، رشيقة.

وفى الصباح التالى ذكر لزوجته أنه ذاهب إلى الشاطئ ليتفقد قاربهما، ثم يمم لفوره نحو ممرات الموت مباشرة. وهناك استلقى تحت شجرة ضخمة من أشجار البلوط قامت على حافز الهوة، وقد وطن العزم على الانتظار، وأن داخله شعور قوى بأنها لن تأتى. وراح يتلهى بالبحث عن الأحجار الكبيرة يدفعها إلى الهوة وهو شارد الذهن، ثم ينصت ليسمع

Telegram: electronic_library

صوت ارتطامها بماء البحر فى قاع الهوة العميق، وهو موقن من أن الصوت لن يتناهى إلى سمعه.

وعندما اقترب النهار من منتصفه قرر أن ينصرف ولكنه رآها مقبلة إذ ذاك نحوه تتهادى فى بطء وقد ارتدت قبعتها ذات الحواف المزخرفة بثمار الكرز. وبلغت مكانه فجلست إلى جواره ثم قالت فى تهكم بالغ: «إننى أحب دائما أن أفى بوعودى»

فغمغم قائلا: «صحيح.. هذا حق» . وشرع يتلهى ثانية بإلقاء الأحجار. بينما أخذت هى ترمقه من ركن عينها وقد بدت شفتاه ـ تحت شاربيه الأسودين الكثيفين ـ منفرجتين عن أسنان ناصعة البياض، سقط عليها شعاع من ضياء الشمس. ومضى وقت غير قصير على هذه الحال، ثم قالت الفتاة فى صوت رقيق، دون أن تنظر إليه:

- ما دمت متزوجا، فما الذى تبغيه منى؟.

أطرق مفكرا، كمن يحاول عبثا أن يهتدى إلى جواب. وما لبث أن أرسل زفرة عميقة ثم قال هامسا: «لست أدرى..»

فقالت: «ولكننى مع ذلك أدرى»

- ربما يحتمل أن تدرى. فأنت شيطانة.

وإذ ذاك ضحكت وقربت خدها من وجهه. ومرت لحظة أمسك كل منهما خلالها أنفاسه تماما، ثم أهوت بشفتيها على أسنانه البيضاء اللامعة. وبقيا ساكنين. جامدين كالصخور، وكضوء الصيف فى الظهيرة.

ونأت عنه بعد برهة، ثم همست بصوت متهدج: «أعتقد أن هذا ما كنت تبغى منى»

Telegram: electronic_library

ومرة أخرى، لم يحر جوابا. ولكنه أمسك بها وضمها إليه فى قوة وشدة حتى اضطرها إلى أن تصرخ، وإذ ذاك خفف من شدته فدفعته عنها واستوت واقفة.

وفجأة، هتفت دون مقدمات وكأنما تذكرت لفورها: «هل تقوى على عبور الهوة الآن؟»

وكان بنفسها يقين من أنه لن يجرؤ - فمن العسير على المرء أن يسعى إلى الموت بينما تكون السعادة ماثلة بين يديه - وتوقعت أن يزداد تعلقا وتشبثا بها، كما تفعل الهرة حين تحاول أن تدفعها عن حافة النافذة. وتمنت لو يرفض فكانت تحتوى وجهه بين راحتيها وتنبئه بأن من الحماقة حقا أن يرمى المرء حياته كما لو كانت كرة يطوح بها غير حافل.

ولكنه لم يقل ما توقعت بل هز كتفيه فى بساطة وقال: «أستطيع أن أجتازها مائة مرة»

- بل مرتين لا مائة. يا أحمق. مرة ذاهبا، ومرة عائدا.

فقال وهو يمد ذراعه ليضمها إليه ثانية: «حسنا. ستجدينني مستعدا حينما تشائين» . لكنها دفعته عنها بعنف وقالت هامسة: «دع العناق إلى أن تعود»

- أتعنين بذلك أنك راغبة فى أن أذهب لفورى؟

- أجل

- ولكن.. فيم هذه الرغبة.. لماذا؟.

- دع عنك معرفة السبب. فهل أنت راغب فى الذهاب؟

فقال: «لسوف أذهب» . ولكنه ظل جامدا فى مكانه ينظر إليها فى حيرة شاردة. حتى صاحت فيه فى نوبة من الغضب لم يدر لها مبررا:

- إذن فاذهب أيها الغبى ولا تقف هكذا فى مكانك.

Telegram: electronic_library

وخلع حذاءيه عند الشجرة ثم سار إلى الهوة. وخطا فى هدوء عبر الفراغ الرهيب. بادى الطمأنينة كأنما هو طائر أوتى جناحان يحملانه فى الهواء إذا هوى. فلما عاد، سار إليها، ووقف أمامها وقد دس يديه فى جيبى سرواله، ثم قال: «ها أنتذى قد خسرت التحدى. كما ترين».

فأجابته: «أجل.. تعال الآن أقبلك» . ثم راحت تضرب عنقه بعصاها فى غيظ يفوق التصور.

ظلت المعلمة بقية النهار وطيلة الليل الذى أعقبه مستلقية على فراشها وقد عقدت يديها تحت رأسها وثبتت نظرها فى سقف الحجرة. حتى إذا آن لشمس اليوم التالى أن تتحدر للمغيب، حملت عصاها وسعت إلى الغابة ثانية.

وألفت العمدة الشيخ ينتظرها عند نهاية القرية، فبادرها متسائلا: «أذاهبة أنت إلى هناك مرة أخرى؟».

وإذ ردت بالإيجاب، سألها: «هل تودين أن آتى معك؟».

- كلا..

- بل يجب أن أصحبك، مع ذلك..

وحدق فيها بعينيه الصافيتين الشبيهتين بعينى الطفل، وقد انبعث منهما نظرة جميلة، ولكنها جادة، صلبة كالصخر. ومد يده وكأنه يهم بأن يربت شعرها، ولكنه لم يمسها، بل قال: «هيا بنا، فإننى أريد أن اريك شيئا ذا أهمية كبيرة»

وعضت على شفتها وهى تقف برهة مترددة، ثم أحنت رأسها ومشت إلى جانبه صامتة. كانت الغابة قد بدأت تنفض عنها الخمول الذى عراها تحت وطأة الشمس، وأخذت الحياة تدب فيها من جديد بعد أن وهن ضياء

Telegram: electronic_library

النهار، وسرت فى أوراق الشجر وفى النباتات الفطرية آلاف النسائم. وسار الشيخ والفتاة، حتى إذا بلغا شجر السنديان، استنشقت المعلمة الهواء ملء صدرها، وقالت: «لنقف هنا»

ولكنه أجابها: «لا.. بل سنسعى إلى شجر الخوخ، فإن ظلال السنديان ثقيلة تبعث فى نفس الإنسان قشعريرة. أفتدرين السبب؟»

فأجابته وهى غائبة الوعى، شاردة البال: «لا»

– آه.. هناك أسطورة حول هذا الموضوع، ترجع إلى الأزمان التى كانت فيها الأشجار مخلوقات آدمية. هل أرويها لك ونحن نصعد السفح؟

– لست أحب الأساطير. لا ولا أحب صعود السفح.

– لك ما شئت. ولكنى أؤكد لك أننا لم نجد الطائر إلا إذا صعدنا إلى شجر الخوخ

– أى طائر؟.

– تعالى.. ولسوف أنبئك.

وسارا طويلا، صامتين. وكانت الأشجار كثيفة فى أعلا السفح، تخلع على الضوء قتامة خضراء.

آه.. ولكن ظلال شجر الخوخ كانت تختلف عن غيرها حقا، كما قال الشيخ. فقد أحست بطراوتها تمسح على حلقها ملطفة، وتداعب أطراف أذنيها، وتتخلل شعرها، وتسكب رطوبة ناعمة على رأسها، كأنها لمسات الريش الناعم. واستنشقت الهواء فى نهم، فتغلغلت الرطوبة العليلة فى أعماق نفسها.

وقالت أخيرا: «لست أرى أى طائر غريب»

Telegram: electronic_library

فأجابها: «صبرا. إن هذا الصنف من الطيور نادر جدا، ولكن هنا ديدان كثيرة تجتذبها. هذا عين ما قلت للسائح»

- أى سائح؟

- سائح جاء هنا مرة، وحاول أن يشنق نفسه.

- ولماذا؟

- من يدرى؟.

- وهل شنق نفسه فعلا؟

- كلا، بل تزوج. وهناك من يقول أن المصيرين سواء. كل ما أدريه هو أننى لم أكد أريه الطائر.

وتوقف فجأة، وأشار إلى شجرة عتيقة قامت إلى يمينها وقال فى رفق: «انظرى إلى ما فوق هذه الشجرة»

- ماذا هناك؟

- صه.. لا ترفعى صوتك. إنه الطائر.

وأرسلت بصرها وراء إصبعه فرأت الطائر على فنن. كان أوتى منقارا هائلا لا يتناسب إطلاقا مع جسمه. وكان رافعا منقاره إلى السماء فى وضع بدا معه كأن عودا أنقذ فى جسده ليقيمه فى هذا الوضع فتساءلت المعلمة:

- أى نوع من الطيور هو؟

- إننا نسميه ناقر الخشب.

- وهل هو يقتات بالخشب؟

- كلا.. بل يأكل الديدان. ولكن.. هل تستطيعين أن تتصورى ما يدعوه إلى أن يجثم فى مكانه ذاك بادى الأسى؟ إنه ينصت إلى أنين الشجرة.

Telegram: electronic_library

ولعلك لا تصدقين أن الأشجار تئن، ولكن هذا الطائر يعلم أن ثمة دودة تسعى فى قلب الشجرة. أفتصدقين هذا؟

وإذ أجابت: «لا» هز الشيخ كتفيه هزة خفيفة وابتسم.

ومرت برهة، ثم شرع الطائر - وكأنه عقد عزمه فجأة - ينقر الشجرة فيما بين ساقيه فى هياج.

وما لبث أن وقف جامدا فى وضع لا تستطيع معه أن تدرى ما إذا كان منقاره قد غاص فى الشجرة المنخورة، أم غاص فى أمعائه. وأخيرا، سحب منقاره من موضعه، ونفض ريشه، ثم انطلق طائرا.

وتساءلت الفتاة: «ولكن، لم يفعل ذلك؟»..

- لأنه طائر معتوه.

ورمقته بنظرة زاخرة بالسخرية، وتساءلت: «أو هذا كل شئ؟» ثم شاع فى وجهها شئ كالقلق، فنهضت فى عجلة وسارت إلى الشجرة فتسلقت جذعها إلى الغصن الذى دب فيه التلف، وجثمت فوقه بعض الوقت تحدق فى الثقب الذى أحدثه الطائرة بمنقاره. ثم همست وهى تعود إلى الشيخ: «إذن، ففى الشجرة دودة حقا».

- كل الأشجار التالفة تدب فيها الديدان.. ولا يملك أحد شيئا لإنقاذها.

- أو تراك تحاول أن تقول أننى أيضا غصن تالف؟

- بل أحاول أن أقول أنك طائر معتوه، فأنت لا تكفين عن التفكير فى الديدان التى تدب فينا.

وإذ ذاك، فتحت عينيها عن آخرهما وتأملته فى إعجاب بالغ. ثم تناولت يديه فوضعتهما فى حجرها برفق، وشرعت تربتهما وتمسحهما.

Telegram: electronic_library

واشتد تكاثف الظلال، وارتجفت الأشجار وهى ترتقب الظلام الذى لم يبق على مقدمه وقت يذكر. بل كان مقدورا أن يقبل سريعا محلقا من الطرف الآخر للأرض.

وعادا يهبطان التل فى صمت وسكينة، وقد شع وجه الشيخ بابتسامة عذبة، فيها شجو ووجوم. وكانت المدرسة تركل الأحجار فى طريقها بحنق غريب. حتى إذا انتهيا إلى النافورة ندت عنها زفرة حرى، ثم سرحت بصرها فى الفضاء وقالت: «أننى راحلة فى الغد »

فتوقف الشيخ، ومس شعرها فى حنو. ثم قال: «أجل. لقد حان الوقت كى تتزوجى» .. وأمسك لحظة، ثم أردف بلطف: «ثم أن يانا أكثر منك حبا له» فهمست فى احتجاج واهن: «من؟.»

- أنا أدرك أنك لا تحبين قاطعى الشجر فعلا، بل أكاد أعتقد أنك تزدرينهم.

ولم تتساءل فى إنكار هذه المرة كما فعلت فى السابقة، بل هزت كتفيها وقالت: «لست أزدريهم..»

- إذا قابلته عند الجسر، فألقى إليه بتحية المساء، فليس فى هذا ما يضير. ما دمت راحلة فى غدك.

ولكن الذى ألفياه عند الجسر حين بلغاه لم يكن «ديكاس» . وإنما يانا. وكانت جالسة تحملق فى الماء وقد عقدت ذراعيها على صدرها. فقالت المعلمة فى لطف عذب: «سعدت مساء يا يانا»

ولم تجبها يانا، بل التفتت إلى الشيخ قائلة فى جفاء: «لقد خرج زوجى بالأمس أيها السيد ليتفقد قاربنا، ثم عاد وعلى عنقه علامات حمراء. وهو الآن فى سريرنا يبكى ك.....»

Telegram: electronic_library

وأمسكت عن الكلام وقد سددت بصرها إلى المدرسة. ثم قالت فى صوت فاتر، بارد، يشيع القشعريرة فى كيان سامعه: «عمى مساء أيتها المدرسة»

وواجهت كل من المرأتين غريمتها برهة فى تحفز وتوتر كما لو كانتا من إناث الوحوش الكاسرة، وهما تتنسمان رائحة الأشجار المحترقة فى الجو. ثم غضت المدرسة من بصرها كطائر ناعس، ولم يبق من عينيها سوى ثغرتين ضيقتين رأت خلالهما الدنيا بأسرها ترتكن فى طمأنينة وراحة على ذؤابة السكين التى كانت متوارية فى صدر ثوب «يانا» . كان الكون بأسره مجتمعا فى سن قطعة الفولاذ الصقيلة، على صغرها، وكأنما تناوله الله فى قبضته القديرة واعتصره حتى أحاله إلى قطرة دقيقة كقطرات الندى. وخالت أنها ترى النجوم وكأنما قد اختلطت بها أسنان «ديكاس» الناصعة، ثم رأت دارها ذات النوافذ الخضراء، والبئر التى فى ساحتها، والقمر المأفون يتراقص فوقها. وفى وسط هذه الرؤى جميعا، لاح لها شبح مدرس الدين الذى اعتاد أن يردد أن الحياة لا تفنى ولا تنتهى أبدا.. أبدا.. وساد هذه التخيلات جميعا ذلك الغبار. الغبار الأصفر الذى خالطه الضوء الأزرق، والذى علق فى الجو ساكنا على أطلال موطنها الأصلى. يوم فنيت أسرتها جميعا.

وخيل إليها أن كل هذه الأشياء لن تلبث أن تغوص فى صدرها مع نصل السكين، كما كان منقار الطائر الغريب يغوص فى الشجرة الفاسدة. وخيل لها أن هذه الأشياء ستحمل معها نوعا من الدفء وهى تخترق قلبها.. أو ما يشبه ذلك.

وفتحت عينيها فرأت «يانا» تقبل عليها فلم تتحرك وإنما ثنت إحدى ركبتيها وانتظرت وقد سرحت بصرها بعيدا. نحو الغابة فى نظرات زائغة لا يستطيعها إلا... الموتى.

Telegram: electronic_library

ولم يفطن الشيخ إلى هذا الموت الذى كان يهبط مع الظلام. بل مس كتف «يانا» رفيقا، وقال: «الآن ينبغى لك أن تقبليها فإنها راحلة فى الغد»

فتساءلت «يانا» فى صوت خافت. يكاد الخوف يبدو فى ثناياه: «أهذا صحيح؟.. أراحلة أنت غدا؟»

ولم تنبس المدرسة ببنت شفة، فهتفت «يانا» فى صوت يشبه النعيق: «أراحلة أنت غدا؟»

إذ ذاك مدت المدرسة يدها. فرفعت بأصابعها البيضاء خصلة من الشعر الكستنائى كانت قد انحدرت على عينى «يانا» ثم قالت:

- بل أنا مرتحلة الليلة.

ولم نر المعلمة بعد ذلك قط.. ويقول بعضهم أنها غرقت فى ذات الليلة التى غادرتنا فيها. ولكن الشيخ يأبى أن يصدق ذلك. ولا يزال يحدثنا فى الليالى الدافئة، البديعة، عن حوريات البحر التى تمشط شعورها الطويلة فى قاع البحر، تحت ضوء القمر.

هيرالد أناسويس

■■■

Telegram: electronic_library

حب ملتهب

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

ما جاء «يوان شن» مرة ببلدة «بوشنج» - أثناء رحلته الرسمية - وسمع أجراس الدير القريب، ألا خفق قلبه شجى. لاسيما إذا تناهى إليه رنين تلك الأجراس فى الفجر وهو فى فراشه، فإذ ذاك كان يرتد إلى عهد الشباب بأحاسيسه وأحلامه، برغم انه كان فى العقد الرابع من عمره: زواجا سعيدا - فى الحدود التقليدية التى اصطلح عليها المجتمع للسعادة الزوجية - وشاعرا ذائع الصيت، وموظفا حكوميا كبير الشأن، خبر الحياة حلوها ومرها. فكان خليقا به أن ينسى غراما تقادم عهده، أو أن يذكره فى هدوء رزين. بيد أنه كان فى عجب من نفسه، فلقد انقضى عشرون عاما وما زال رنين أجراس الدير تلك، فى صليلها الرتيب وهى تؤذن بمطلع الفجر، تثير فى نفسه أسى فياضا وتوقظ فى أعماقه شعورا خفيا، متغلغلا تغلغل الحياة. وتوحى إليه بنضارة وجمال للحياة، يعجز قلمه الشاعر عن تصويرهما. فكان يذكر - وهو مستلق فى سريره - منظر السماء المعتمة وقد راحت النجوم المتألقة تصارع ظلمتها. ويذكر الأحاسيس الجياشة التى كانت تواتيه. والعطر القوى الشذى الذى كان يملأ أنفاسه. ثم شبح ابتسامة واهنة تتراقص مترددة على وجه الفتاة التى كانت.. حبه الأول.

Telegram: electronic_library

كان «يوان» إذ ذاك فى الثانية والعشرين، يسعى إلى العاصمة للحصول على شهادات رفيعة فى الأدب. ولم يكن قد عرف الهوى، أو علق بالنساء، فإن شبابه وذكاءه وحسه المرهف صورت له أهدافا أسمى من الغرام. لذلك كان بعيدا عن المرح متباعدا عن المجتمعات. لا تكاد الحسناوات اللاتى كن يستهوين أقرانه يثرن فيه أتفه شعور، وأن اعترف بأن قلبه كان يخفق إذا التقى بفتاة ذات جمال فذ أو مواهب ممتازة.

وكان طلاب العلم فى عهد إمبراطورية «تانج» يسعون إلى العاصمة قبل موعد الامتحانات الرسمية بشهور قد تبلغ نصف العام، منتهزين الفرصة كى يجوسوا خلال البلاد فى سفرهم. ومن ثم فقد رحل «يوان» مبكرا، حتى إذا مر ببلدة «بوشنج» - عند منعطف النهر الأصفر - عرج ليزور صديقه «يانج» زميل الصبا والدراسة، فما زال به «يانج» حتى قبل أن يطيل البقاء فى البلدة.

وصارا كثيرا ما يتمشيان حتى دير معبد «بوشيو» - القائم على ثلاثة أميال شرقى المدينة - يمليان البصر بالتلال وقد وشيت سفوحها بالزهور فى فصل الشتاء. وكان الجو باردا، ولكنه امتاز بصحو شمسه، وجفافه، مما استهوى «يوان» فدبر الأمر مع أهل الدير لينزل فى إحدى الغرف المعدة لاستضافة الزوار. واختار غرفة فى الركن الشمالى الغربى من مبنى الدير الكبير، أعجبه فيها عزلتها عن بقية الغرف، وأنها كانت تشرف على جزء من الساحة تظلله الأشجار السامقة المورقة، وتتصل بردهة مسقوفة تتخلل جدرانها نوافذ سداسية الشكل تطل على النهر العظيم والجبال المترامية وراءه.

وسر «يوان» بالحجرة، وراق له أن يقضى فيها مدة برفقة كتب الشعر التى كان يصطحبها..

Telegram: electronic_library

وقال له «يانج»: «أنك خيالى النزعة، فإن هذا المكان لا يروق لغير ذوى الخيال والهوى»

- دع عنك هذا السخف، فلو أننى كنت أنشد متعة لبادرت إلى العاصمة. ولكننى أؤثر أن انقطع عن العالم بضعة أسابيع أخلو فيها إلى كتبى.

على انه لم يكد يقضى فى الدير يوما، حتى تبين أن ثمة قصرا صغيرا يقع لصق الجدار الغربى للمعبد، يتصل بمؤخرته بستان نمت فيه الزهور والفواكه، وامتد على مرأى من النافذة الخلفية لغرفته. وعرف «يوان» من الخادم أن الفيلا من أملاك الدير، وقد شغلتها أسرة كان ربها من رعايا هذا الدير، ومن الأصدقاء المقربين لدى كاهنه الأكبر، وقد اعتاد أن يفد فيقيم فى تلك الدار كلما شاء البعد عن المدينة.

فلما مات، جاءت أسرته فاتخذها مقاما إذ كانت أرملته «مسز تسوى» مهيضة الجناح هيابة، فأتت تنشد الطمأنينة فى حمى المعبد. وقد سمح لها الكاهن الأكبر بذلك رعاية لذكرى صديقه وعرفانا بفضله، إذ أنه كان صاحب المنحة التى أنفق منها على بناء الدار.

وفى الليلة الثالثة لإقامة الشاب فى الدير، سمع موسيقى تناهت أنغامها إلى أذنيه من بعد، عذبة، حزينة، خافتة. وأدرك أنها تصدر عن آلة وترية كالعود. على أن الذى أثار عجبه انبعاثها فى هدوء الليل الساكن، وفى نطاق الدير. فدفعه الفضول فى الصباح التالى إلى أن يطوف بالبقعة المجاورة. وإذا به يتبين أن القصر الصغير كان محوطا بسياج يذود الإبصار عن داخله ولمح مجرى مائيا صغيرا ينساب من حديقة القصر خلال ثغرة فى السياج ليصب فى جدول كبير يمتد بمحاذاته. وكان الجو عبقا بأريج

Telegram: electronic_library

الزهور، فألقى «يوان» نفسه يشغل بأمره الأسرة التى تحيا فى تلك العزلة البديعة. وراح يتصور عازفة اللحن الشجى الذى سمعه فى هدأة الليل ويعجب من حرصها على أن لا تصل إليها الأبصار.

وفيما كان عائدا، بعد انتهاء جولته، تبين أن مؤخرة القصر هى التى كانت تلاصق الدير عند الساحة المترامية تحت غرفته.

وكان من المحتمل أن لا يعبأ الشاب بعد ذلك بجيرانه المجهولين، لولا حادث وقع فى الأسبوع الثانى لإقامته. فقد شاع أن قائد حامية المدينة قد توفى، وأن الفوضى دبت فى صفوف جنوده فانطلقوا يعيثون فى المدينة فسادا، ينهبون متاجرها، ويقتحمون دورها فيختطفون النساء منها. وكان «يوان» قبيل ظهر ذلك اليوم يجلس فى مقعد مريح بغرفته، وقد انصرف إلى أحد كتبه، وإذا به يسمع أصوات نساء يتبعها وقع أقدام تهرع مهرولة فى الردهة الممتدة أمام غرفته، فأسرع يستجلى الخبر وهو فى دهشة من أمر هذه الضجة التى أوشكت أن تبلغ غرفته رغم كونها فى نهاية الردهة.

ثم زاد من دهشته أن بابا كان قد ألف أن يراه على الدوام مغلقا، ألفاه الآن مفتوحا. وأبصر امرأة فى أواسط العمر تهرع من الردهة وخلفها فتاتان نحو حجرات الدير الداخلية. واستطاع أن يتبين أن المرأة كانت ترتدى ثيابا غالية، وأن الفتاة التى خلفها مباشرة كانت ولابد ابنتها، وكانت فى حوالى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، ترتدى ثوبا بسيطا كحلى اللون، وقد أطلقت شعرها وجمعته فى مؤخرة رأسها بمشبك كبير. أما الفتاة الأخرى. فقد حدس أنها خادم. وأدرك من اضطرابهن أنهن كن فريسة لانزعاج مروع.

وأسرع «يوان» خلفهن وقد استخفه الانفعال واستهواه مرأى الفتاة الوسطى بصفة خاصة. وكان الهرج يسود الرهبان والخدم، بينما مضت

Telegram: electronic_library

امرأة تروى لهم - وهى تبكى - كيف قتل الجنود زوجها وهو يذود عن ابنتهما. ولمح «يوان» الفتاة - التى كانت تهرع فى الردهة مع أمها وخادمتها تتصت - إلى المرأة فى اهتمام، غير حافلة بما انصب عليها من نظرات. وكان شعرها الأسود الغزير جميلا. وقد أوتيت عنقا أبيض. وفما دقيقا، ووجها صغيرا، مستديرا. أما أمها فقد كانت بالغة القلق واللهفة، بادية الخوف من أن يجتاح الجنود دارها، سيما وأنها كانت معروفة بثرائها.

وما لبث المشرف على الدير أن تقدم إلى الأم وابنتها يطمئنهما إلى أنه سيهيئ لهما مخبأ آمنا، لكن الابنة قالت معلقة فى هدوء، وقد بدا صوتها كتغريد الطيور:

- بل يجب أن نبقى فى دارنا يا أماه، فإننا إن هجرناها شجعنا الطامعين على سرقتها. ولو حدث ضر فسنجد متسعا من الوقت كى ننفذ من الباب الخلفى ونختبئ فى الدير.

وأخذت المرأة بنصح ابنتها - وقد بدا أنها تعتمد على آرائها إلى حد كبير - بينما دفع الشباب والشهامة «يوان» إلى أن يتقدم إلى رئيس السدنة قائلا فى اهتمام واضح - دون أن ينظر نحو الفتاة - إن من الحكمة فى تلك الظروف اتخاذ الحيطة الكافية لحماية السيدتين، وإن له صديقا على معرفة طيبة بقائد الإقليم ولن يحجم عن الذهاب إليه وسؤاله حمايتها بتعيين عدد من الجنود ليرابطوا عند باب الدير.

ورمقته الفتاة بنظرة رجاء وهى تقول: «هذا معقول» .. وذهب «يوان» من فوره إلى «يانج» فلم يأت المساء حتى عاد يرافقه ستة من الجنود وإنذار رسمى من قائد الإقليم للغوغاء بتجنب دار أسرة «تسوى»..

Telegram: electronic_library

وسعد «يوان» بتوفيقه وطمع فى أن يحظى بابتسامة عرفان بالجميل من الفتاة الساحرة التى تطلعت إليه فى الصباح فى رجاء، فلم يكد يعود حتى سعى إلى الدار. واقتيد إلى قاعة أنيقة الرياش.

ولكن الأم وحدها هى التى خفت لاستقباله، فأزجت إليه من عبارات التقدير أحلاها مما أوحى إليه بأن ما وفق إليه من نفوذ رسمى قد رفعه فى عينيها. ولكنه لم يحظ بنظرة أخرى من الفتاة. فعاد إلى الدير مستاء خائب الأمل

واستطاعت قوات قائد الإقليم أن ترد على المدينة أمنها بعد أيام، وسحب الجنود من حراسة دار أسرة «تسوى» فدعت الأم «يوان» إلى العشاء. ومدت المائدة فى القاعة الكبرى، مما أضفى على المناسبة طابعا رسميا. ثم قالت له المرأة:

- إننى أود أن أشكر لك كل ما فعلت من اجلنا. وأحب أن أقدمك لأفراد أسرتى.

ودعت صبيا فى الثانية عشرة من عمره وأمرته بأن يحيى أخاه الأكبر بالانحناءة التقليدية، ثم قالت مبتسمة: «هذا ابنى الوحيد» . وعادت تنادى قائلة: «انجينج.. تعالى فاشكرى السيد الذى أنقذ حياتنا»

وانقضت فترة طويلة دون أن تظهر الفتاة، فخيل للضيف أنها خجلى من أن تقدم رسميا إلى شاب غريب، فهذه عادة بنات الأسرات الراقية. وبالفعل لم تلبث الأم أن صاحت ثانية بلهجة من نفد صبرها: «انجينج.. لقد دعوتك إلى المجئ.. إن السيد يوان قد أنقذ حياتك وحياة أمك، فهل هذا وقت تتشبثين فيه بالتقاليد؟»

وأقبلت الفتاة أخيرا، فانحنت فى استحياء يغالبه كبرياء. وكانت ترتدى ثوبا بسيطا التف فى إحكام حول جسمها وقد تأنقت فى زينتها فى غير

Telegram: electronic_library

إسراف ولا تبرج. وككل فتاة مثقفة من أسرة راقية، اتخذت مجلسها إلى جانب أمها، فى مظهر يوحى إلى يوان بأن حظوته برؤيتها شرف عزيز.

وسأل «يوان» الأم وفقا للتقاليد، عن عمر ابنتها فأجابته بأنها فى السابعة عشرة. ومع أن العشاء كان عائليا، وليس من ضيف عدا «يوان» ? فإن الفتاة ظلت متشبثة بالكلفة متحفظة فى مسلكها طيلة الوقت. وعبثا حاول يوان أن يثير فى مكانها كانت لتتصرف فى حضرة شاب مثله غير تصرفها، مهما كانت مبالغة فى التحشم والتحفظ. ولكن هذه الفاتنة بدت له لغزا محيرا، فكأنما هى فى صمتها «أبو الهول» . أو كأنها أميرة من الجن لا سبيل للعواطف البشرية إلى قلبها.

وتساءل يوان وهو غير مصدق: «أتراها حقا شديدة الصرامة والعفة. أم أن ما بدا منها لم يكن سوى مظهر بارد يخفى وراءه إحساسا عميقا متأججا؟. أو هو إسراف فى التحفظ اعتادته الفتيات اللاتى نشئن على تعاليم كونفوشيوس فى صرامة قاسية؟.

وعلم يوان أثناء العشاء أن الأرملة تنحدر من أسرة شنج. وإذ كانت هذه أسرة أمه، فقد تبينا أنها تمت إليه من بعيد بصلة القربى. وبدت الأم فرحة حقا لهذه المصادفة وإذ ذاك فقط لان وجه الفتاة ليرتسم عليه. طيف ابتسامة.

وبات «يوان» ليلته موزعا بين الدهشة والافتتان بمسلك الفتاة، فما التقى يوما بفتاة مثلها فى الصلف والتحفظ، وصعوبة التقرب إليها. وكان كلما كافح مشاعره لم يزدد إلا افتتانا بها، ورغبة بها.

ومنذ ذلك اليوم راح الشاب ينتحل المعاذير كى يتردد على الأسرة. وكان يبذل قصارى جهده كى يشعر كل فرد من أفرادها بوجوده. ولابد أن انجينج كانت

Telegram: electronic_library

تراه فى زياراته هذه، رغم عدم مقابلتها إياه، فقد اعتادت فتيات الأسرات الموسرة أن يلمحن ويسمعن الكثير من خلال السجف الموشاة بالثقوب. ولكنها كانت نفورة على الدوام، كالغزال إذا ما اقترب منه وحش كاسر.

وحدث أن رآها مرة تلاعب أخاها فى الحديقة الخلفية قبيل الغروب، ولكنها لم تكد تلمحه حتى مرقت كالسهم واختفت، فلم يتمالك أن هتف لنفسه: «عصفورة!. عصفورة! يا لها من عصفورة رواغة»

والتقى يوما بخادمتها على انفراد، فى الدرب المفضى من الدار إلى الباب الخارجى.

وكانت الخادم فتاة ساذجة، صريحة، أوتيت نصيبا من الملاحة والجاذبية والفطنة بشئون الدنيا، فانتهز الفرصة وسألها عن سيدتها الصغيرة. وتضرج وجه وردة ـ كما كان اسمها بالصينية يعنى ـ وابتسمت ابتسامة العارفة بما وراء السؤال.. فقال لها: «نبئينى.. أمخطوبة سيدتك؟»

- وفيم سؤالك؟.

- إن بيننا قرابة بعيدة ويهمنى أن أعرف المزيد عنها، ألا خبرينى: لماذا تتحاشانى؟.. أنها تبدو رائعة، رقيقة، حسنة المسلك. وإنى لمعجب بها كل الإعجاب!

- آه... ولم لا تسأل أمها أن تسمح لك بلقائها؟

- أنك لا تدركين. أنها لا تكاد تنطق بكلمة فى حضور أمها. فهل لا توجد فرصة كى أراها على انفراد؟.. إننى مذ رأيتها لا أفكر فى غير هذه الأمنية...

وأخفت الخادم فمها براحتها ضاحكة، ثم ولت هاربة.. فناداها قائلا:

- وردة!... وردة!.. أتوسل إليك أن تساعدينى.

Telegram: electronic_library

فتفرست فيه مليا، ثم قالت فى إشفاق:

- ما أرانى أجرؤ على أن أحمل إليها مثل هذه الرسالة، فهى صارمة، مستقيمة، وما تكلمت قط إلى شاب.. غير أنك مهذب، وقد أديت للأسرة خدمة جليلة، مما جعلنى أميل إليك. ومن ثم فسأسر إليك بأمر: أنها تقرأ الشعر وتقرضه، ففى وسعك أن تنظم لها قصيدة. هذه هى الوسيلة الوحيدة التى تفتح لك مغاليق قلبها.

وغمزت بعينها فى خبث..

أما يوان فلم يحن اليوم التالى، حتى نفذ نصيحة الخادم فأرسل معها إلى فتاته قصيدة، قال فيها:

«وإذ راقبت القمر الآفل عند الفجر، تاهت روحى فى ذكرى وجهك الحبيب، وهفت بالأمل الواهن.. فى أن تنال منك إشارة رحيمة، أو ابتسامة كريمة»

وكم كانت فرحته، حين حملت إليه وردة فى مساء اليوم ذاته قصيدة من «انجينج» أسمتها «ليلة مقمرة»..

قالت فيها:

«إن شخصا يرتقب فى الليلة المقمرة، فى الغرفة الغربية. وبابها مفتوح وأطياف الزهور تتحرك عبر السياج... آه، لعله حبيبى قد آتى»

واستخف الفرح «يوان» وقد رأى فى القصيدة دعوة صريحة وموعدا. وكان هذا فوق ما حلقت إليه آماله، فلم تنقض ليلتان حتى تسلق السياج الذى يفصله عن دار الفتاة، وهناك ألفى باب الغرفة الغربية مواربا حقا - كما وعدته فى قصيدتها - فلما تسلل إلى الداخل وجد وردة نائمة، فأيقظها.

Telegram: electronic_library

وهتفت الفتاة مأخوذة: «لِمَ جئتَ؟.. وماذا تبغى؟»

– لقد دعتنى إلى المجئ، فاذهبى واخطريها..

وسرعان ما عادت وردة تهمس له بأن الفتاة قادمة. ومرت عشر دقائق وهو ينتظر، فى قلق ممض. وحين أقبلت «انجينج» فى النهاية كان الانفعال والارتباك مستوليين على محياها، ولكن عينيها السوداوين العميقتين كانتا تستخفيان وراء قناع من الغموض.

ومضت لحظة غمرها فيها الحياء، ثم قالت الفتاة فى شئ من الجفاء:

– لقد سألتك أن تأتى، لأنك رغبت فى أن ترانى. وإنى لعارفة لك ما فعلت لحماية أمى وأسرتنا، ومن ثم أردت أن أشكرك شخصيا. على أننى أعجب لإقدامك على إرسال مثل ذلك الشعر الغرامى مع الخادم. وقد كان فى وسعى أن أريه لأمى، لكنى لن أفعل، إشفاقا عليك وإنما آثرت أن أراك شخصيا لأرجوك أن تقلع عنه.

بهت يوان. وهم أن يذكرها بلهجة رسالتها الشعرية لكنها قاطعته فى صوت متهدج:

– تخطئ إذا ظننتنى أقدمت على هذه المخاطرة لغرض غير مشروع

ثم تحولت وغادرت الحجرة مسرعة.

تجاذبت يوان مشاعر الاستياء والاستحياء، والغضب. وأبى ذهنه أن يصدق ما جرى، وإلا فلم كتبت له ذلك الشعر الذى أوحى إليه بالقدوم، بدلا من أن ترسل إليه مع الخادم ردا مقتضبا؟.. ولمَ دعته وجشمت نفسها عناء إلقاء تلك المحاضرة عليه. أو تراها غيرت رأيها فى اللحظة الأخيرة خوفا مما كانت مقدمة عليه؟. وأحس بأن حبه لها يكاد يتحول إلى كراهية، كيف لا وهى قد تعمدت أن تهزأ منه.

Telegram: electronic_library

وانقضت ليلة..

وفى الليلة التى تليها، فيما كان مستغرقا فى النوم، استيقظ على يد تهزه فى ظلام غرفته. فاستوى ناهضا، وأوقد المصباح وإذا وردة تهمس له:

- انهض.. أنها قادمة

وأسرعت خارجة، فجلس يفرك عينيه وهو غير مصدق. ثم بادر فارتدى ثيابه وجلس ينتظر. وما لبثت أن أقبلت وردة تقود الفتاة وقد تضرج وجهها خجلا، وبدا التردد والهون فى مشيتها، حتى لكأن ساقيها لا تكادان تحملانها. وبدا له أن كل كبريائها وتعاليها قد تلاشيا.. ولم تعتذر. لا ولم توضح ما كان من تصرفها. بل وقفت أمامه وقد تهدل شعرها على كتفيها، وراحت تحدق فيه بنظرات طويلة، عميقة، انبعثت من أغوار عينيها السوداوين الجميلتين.

وخفق قلب يوان.. وبدا له هذا التسليم المفاجئ، وقد أقدمت عليه بمحض اختيارها، ادعى للعجب من ذلك التراجع الذى فاجأته به فى المرة السابقة. على أن غضبه السابق ودهشته الحالية زالا حين رأى الفتاة التى أحب. وانسحبت الخادم مسرعة، فكان أول ما بادرت إليه الفتاة أن أطفأت المصباح، ولما تنبس بعد ببنت شفة. فسار إليها، واحتواها بين ذراعيه. وراحت شفتاها تبحثان عن شفتيه فى تعجل. وأحس بجسدها يرتجف فى احضانه. وبدون أن تنطق بكلمة واحدة، تهالكت على الفراش فى حركة طبيعية، وكأنما عجزت ساقاها عن أن تحتملاها.

ودقت أجراس الدير مؤذنة بالفجر. وأقبلت وردة تستحث مولاتها على الانصراف. فأصلحت الفتاة من شأنها وغادرت الغرفة وعلى محياها علامات التعب والكلال.

Telegram: electronic_library

وأغلق الباب فى سكون. ولم تكن قد نبست طوال الليلة بكلمة واحدة حتى مناجاته لم تنتزع منها سوى آهات حرى كانت شفتاها الدافئتان تلتصقان بعدها بشفتيه.

ولولا نفحات عطرها فى الغرفة وآثار شفتيها على المنشفة، لخال الأمر كله حلما. ولكنه كان حقيقة. إن الفتاة الصموت - كأبى الهول - النافرة فى جمود وجفوة قد استسلمت لجماح شهوة عارمة فوق إرادتها. ولكن ترى أكانت شهوة أم حبا؟. لقد جاءته فى غير استحياء. وتذكر كلماتها التى قالتها فى صوت متهدج غضبا: «تخطئ إذا ظننتنى أقدمت على المخاطرة لغرض غير مشروع» فماذا كانت تعنى إذن؟. على أنه لم يشأ أن يثقل على فكره، فالمهم أنها جاءته.

ولم يكن له عهد بمثل تلك السعادة التى نقلته إلى عالم آخر. جديد. لا حدود لجماله ونشوته. فراح يستبطئ الساعات فى انتظار الليل، لعلها تقبل فتتألق فى غرفته من جديد وتحيلها بسحر الحب إلى جنة.

ولكنها لم تأت وساءل نفسه: «أتراها جاءته فى الليلة السابقة بدافع من شهوة مشبوبة طارئة، لا تنوى أن تستسلم لها مرة أخرى؟. أم أنها بعد تلك الليلة شاءت أن تحظى بوقت تفكر فيه فى تلك المغامرة الغرامية التى أقدمت عليها فى تهور؟..

وراح ينتظرها ليلة بعد ليلة، والدم يتدافع فى عروقه. وكان يجلس فى غرفته وحيدا فى الليل، يرقب فى صمت واجم رماد البخور الذى أحرقه ليعطر الغرفة فى انتظارها. وحاول أن يصرف ذهنه عن أمر لاح له غير ذى جدوى. ولكن محاولاته ذهبت سدى.

وتسلل مرة كاللص ليختبر باب الردهة المتصل بدارها، ولكنه ألفاه محكم الرتاج.

Telegram: electronic_library

وتفادى فى الأيام التالية أن يذهب إلى دارها، ولكنه لم يقو بعد اليوم الثالث، فذهب يزور أمها. وتلقته الأم مرحبة كالعادة واستبقته للغداء. وانضمت إليهما «انجينج» حول المائدة. وأذهله أن يراها قد استردت مظهرها البارد، ونظرتها البريئة الجادة التى لا تكشف عن أقل بادرة توحى بما كان بينهما من ود.

كانت الفتاة أستاذة فى الخداع. وراح يتفرس فيها، فلم يختلج هدب واحد من أهدابها. وفى النهاية رجح أن الريب لابد قد انتابت أمها بحيث آثرت الفتاة أن تضاعف من حذرها.

وانقضى أسبوعان لم يبح يوان خلالهما لصديقه «يانج» بشئ عن غرامه وأن نظم قصيدة من ستين بيتا سجل فيها لقاء غريبا مع حورية من الجن، وضمنها وصف انفعالاته ونشوته وحنينه الطاغى.

وبعد منتصف إحدى الليالى، سمع صريرا فى باب الردهة وكأنما استجيبت صلواته. وهرع ليجد «وردة» فى ارتقابه تنبئه بأن مولاتها قد اصطنعت مفتاحا لقفل الباب كى يتسنى لهما أن يلتقيا فى الغرفة الغربية كلما أرادا. وفى غمرة فرحه، ألفى نفسه يعجب بدهاء محبوبته وجراة خططها.

واعتادت «انجيبنج» أن تلقاه بعد ذلك كل ليلة تقريبا فى الغرفة الغربية، فإذا لم تستطع، أرسلت إليه كلمة مع الخادم. وكانت توافيه فى كل لقاء بعد منتصف الليل، ولا تؤوب إلى حجرتها إلا قبيل الفجر.

وثمل يوان بخمر السعادة. وفتحت له الفتاة قلبها فأحبته متدلهة وبادلته العهد أن يكون كل للآخر مهما حدث. وكانا يتهامسان فى الظلام وقد استلقيا جنبا إلى جنب، فكان حديث الفتاة يوحى بأنها لم تندم على مسلكها. كانت - إذا سألها - تجيبه وهى تقبله فى وجد:

Telegram: electronic_library

- لست أملك أن أصد نفسى عن هواك.

- وإذا كشفت أمك سرنا؟

- وجب عليها أن تزوجك من ابنتها

وكان لا يعجب بقوة أعصابها وحدة ذهنها، وكانت هى فى الواقع من نضوج التفكير بحيث كانت تبدى اهتماما بكل أعماله وخطط مستقبله.

ثم آن لهما أن يفترقا إذ كان عليه أن يرحل إلى العاصمة. ولم تؤخذ «أنجينج» بالنبأ، بل قالت فى هدوء:

- اذهب إذا لم يكن من ذهابك بد.. ولكن، على أن تعود فى الصيف.

وعاد فى أواخر الصيف. ولكن زيارته لم تطل، إذ كان الامتحان فى الخريف. ولم يبد على أم «انجينج» أنها عرفت شيئا من أمرهما، بل أنها استقبلته بما اعتادت أن تستقبله من ترحاب واستضافته فى البيت.

وسر يوان إذ بات فى وسعه أن يرى «انجينج» فى ساعات النهار. وقضيا معا أسبوعا رائعا. كانت قد تخلت عما كانت تبديه أمامه من استحياء. ولعل سعادتهما أوحت إلى الأم بشئ من سرهما، فقد سألت ابنتها عن ضيفهما الشاب، قبيل سفره بيوم

فأجابتها الفتاة فى اعتداد وثقة: «لابد له من الرحيل من أجل الامتحان. ولكنه سيعود»

وأتيح للعاشقين أن يختليا معا فى تلك الليلة، فبدا يوان شقيا حزينا، لم ينفك يزفر فى أسى. ولكن «انجينج» كانت مليئة بالثقة فى حبه. وراحت تقول له فى هدوء:

- لا تبد مهموما، وكأن هذا وداعنا الأخير. سأظل أرتقب عودتك.

Telegram: electronic_library

وأعدت الأم فى تلك الليلة وليمة للأسرة، تحية له قبل رحيله. وعزفت «انجينج» على آلتها الموسيقية بينما جلس الشاب مفتونا بجمالها وشجى لحنها. وفجأة، جاشت عواطف الفتاة، فألقت بالآلة جانبا وانفلتت هاربة من الحجرة.

ولم يلتق الحبيبان بعد ذلك إلا مرة. وأخفق يوان فى الامتحان فخجل من أن يعود ويطلب يدها. لكنه حرص فى البداية على أن يكتب إليها خطابات متتابعة من العاصمة ثم أخذت الفترات بين الخطابات تتباعد. وكانت «انجيتنج» تلتمس له المعاذير دون أن تسمح للقنوط يوما بأن يتسرب إلى قلبها.

وفى تلك الأثناء، أخذ يانج يكثر من التردد على أم «انجينج» فكانت تحدثه عن يوان وتطلعه على رسائله، فقد كان يانج متزوجا، ويكبره فى السن. وأوجس «يانج» من تباعد خطابات صديقه، وخشى أن تكون مفاتن العاصمة قد خلبت لبه، لذلك لم يلبث أن كتب إليه.

ولكن الرد الذى استلمه لم يزده إلا قلقا. فى حين كانت الفتاة لا تفتأ تطمئن أمها إلى أن لن يلبث أن يعود بعد أن ينجح فى الامتحان فى الخريف التالى.

وانقضى الربيع.. وأقبل الصيف.

وذات يوم تلقت «انجينج» من يوان قصيدة صيغت فى لهجة مبهمة، تحدث فيها عن سعادتهما الماضية وحنينه إليها. ولكن السطور كانت تنطوى على معنى لم يغب عنها، فأيقنت أنها قصيدة وداع. إذ وصف فيها لوعته خلال الفراق الذى امتد عاما، ثم استطرد قائلا:

«إن مستقبل حياتى غير واضح ولا ثابت، بل هو كالسحب. فمن يضمن لى أنك ستظلى فى نقاء الجليد؟. وإذا ما تفتحت زهرة الخوخ فى الربيع،

Telegram: electronic_library

فما الذى يحول بين المعجبين واقتطافها؟. ما أسعدنى إذ كنت أول من امتص رحيقك، ولكن ترى من المحظوظ الذى سيجنى القطاف؟. آه، ما أول العام الذى ينقضى فى انتظار. ولكن، ترى هل تقوين على الصبر عاما آخر؟. ألا يحسن أن يكون فراقنا إلى الأبد، بدلا من أن تعانى هذا الانتظار الذى لا يبدو له أمد؟».

وحز فى نفسها أن الرسالة انطوت على طعن فى مسلكها، وتعريض بأخلاقها. وفى تلك الأثناء أقبل «يانج» فألفاها جالسة والرسالة فى يدها، وقد قرح البكاء عينيها. وأدرك أن يوان يحاول ولابد أن يتحلل من هواه، فلم يتردد فى إعلانها باعتزامه الرحيل إلى العاصمة ليلقاه ويتعرف خلالها.

وتطلعت إليه «انجينج» . وأذهله أن سمعها تقول فى هدوء:

- أحقا؟. إذن فلتقل له أننى بخير.

وبادر يعد العدة للرحيل، ليرى ما أصاب صديقه، فيرد إليه عقله: كان لابد له من أن يتزوج «انجينج» إن كان شريفا، ولو أن الفتاة كانت آخر من يطالبه بأن يفى بعهده.

وأن هى إلا ثلاثة أيام حتى رحل «يانج» إلى العاصمة، ومعه رسالة من «انجينج» إلى «يوان» . رسالة تنم عن الإخلاص والصدق، وقد ضمنتها دفاعا أبيا كريما عن نفسها:

«إن هداياك تزيدك منى قربا فتذكى شوقى إليك. وأنى لمسرورة إذ تمكنت من أن تتابع دراستك فى العاصمة، وإن كنت حزينة لأننى سجينة هذه البلدة لا أقوى على اللحاق بك. ولكن لا جدوى من وراء الأسى لما يأتى به القدر. بل لقد رضت نفسى على تقبل ما يضمره لى دون تذمر.

Telegram: electronic_library

«إننى افتقدك منذ رحيلك، ومع أننى أحاول التظاهر بالهناءة والمرح أمام الغير، إلا أننى إذا انفردت بنفسى عجزت عن كبح دموعى. وكم رأيتك فى المنام، فخلت أننا ننعم بسعادة الماضى، ولكننى كنت لا ألبث أن أستيقظ فأجد نفسى متشبثة بالوسادة فى لوعة.

«مر عام بطوله على رحيلك، وكم أنا حامدة للمدينة الطروب أنها لم تلهك عن حبيبتك القديمة تماما، إلا أننى سأبقى على الدوام وفية للعهد. لقد فقدت سيطرتى على نفسى واستسلمت لك، ولقد أقسمت فى ليلتنا الأولى أننى لن أحب سواك، وتعاهدنا أن نبقى على وفاء. فإذا حرصت على عهدك، كنت بك أسعد نساء العالم. أما إذا هجرت القديم من أجل جديد، فسأظل أهواك، ولكننى سأحمل إلى قبرى وبين جنبى أسى خالد. والأمر كله بعد ذلك إليك.

«ألا فلتعن بنفسك. إننى أرسل إليك خاتما من حجر اليشم يحمل أملى فى أن يظل حبك لى نقيا كذلك الحجر الذى يتخذ رمزا لتشابك عواطفى واندماجها فى حبى. وقطعة من أعواد الشاى، رويتها بدموعى. إن قلبى قريب منك، ولكن جسدى بعيد عنك. ولو تحققت الأمانى لكنت دائما بجوارك، فإننى لا أنفك أفكر فيك. إننى أبث خطابى حنينى المتقد، وأملى فى أن أراك ثانية»

وشحب وجه يوان حين أتى على نهاية الرسالة، وظل برهة ساهما.

وسأله «يانج» أخيرا:

- ما أراك قد أنصفتها. فماذا جرى؟.

- لست أملك أن أتزوج وأمامى دراستى أريد أن أتمها. صحيح أننى كنت على علاقة بها. ولكنها التى سعت إلىّ بنفسها. وما أظن أن طيش الشباب ينبغى أن يلهينى عن دراستى.

Telegram: electronic_library

- طيش الشباب؟.. ربما لاح الأمر كذلك بالنسبة إليك. ولكن، هلا فكرت فى الفتاة التى كتبت لك هذه الرسالة.

- كل شاب معرض لأن يخطئ، ولكنه مطالب بأن لا يضيع وقته مع النساء.

- إذا كنت قد تحولت، فلا تجشم نفسك عناء تبرير تحولك.

وأيقن يانج أن صديقه لم يكن أمينا. حتى مع نفسه. وأدرك أن لابد لذلك من سبب فمكث فى العاصمة أسبوعا يراقبه. حتى تبين أنه على علاقة بفتاة من أسرة مفرطة الثراء. فلم يسعه إلا أن يزدريه وأن يبادر عائدا من حيث أتى.

ووجد الصديق مشقة فى أن يفضى للفتاة بالأمر، فقد خشى أن يشتد بها الأسى. لذلك آثر أن يفاتح أمها أولا..

وإذ أقبلت الفتاة تحييه بادرته متسائلة:

- هل حملت إلى رسالة؟.

لكنه ظل صامتا وقد عز عليه القول. ولمح وجه الفتاة يربد. وعينيها السوداوين العميقتى الغور ترسلان وميضا نافذا. وبدت كامرأة لم تفهم الموقف فحسب، وإنما ألمت بكل شئ عن الحياة والخلود. وأنقذت عيناها فأرخى يانج جفنيه على الرغم منه.

وقال أخيرا: «لقد كانت قصيدته وداعا»..

وسمرت «انجينج» فى مكانها، وقد ألجم لسانها فترة. وخشى يانج أن تنهار تحت وطأة الصدمة، ولكنه أحس فى لهجتها حين تكلمت بكبرياء وقسوة. وقالت فى إيجاز: «فليكن ما شاء».

واستدارت فجأة وهمت بمغادرة الحجرة. لكنها ما أن بلغت الباب حتى أرسلت ضحكة هستيرية. فهرعت أمها خلفها. وظل «يانج» خمس دقائق يسمع الضحك يرن فى جو البيت. فاستبد به الانزعاج.

Telegram: electronic_library

ولكن الارتياح عاوده فى اليوم التالى حين طمأنته الأم إلى أن الفتاة استردت هدوءها وجلدها. وأنها قبلت أن تتزوج من قريب لها من أسرة أمها كان يخطب ودها من زمن طويل.

ولم يأت الربيع حتى زفت إليه.

وفى أحد الأيام، سعى يوان إلى دارها والتمس لقاءها كقريب لها. ولكنها أبت أن تستقبله. حتى إذا تهيأ للانصراف برزت من خلف الستار، لتقول له:

- لماذا جئت تزعجنى؟. لقد انتظرتك فلم تعد، لذلك لم يبق بيننا ما يقال، وقد نسيت كل شئ فخليق بك أنت الآخر أن تنسى. ولتتصرف.

ولم ينبس ببنت شفة، بل بادر منصرفا. لكنه لم يكد يبتعد حتى تهالكت «انجينج» على عتبة الباب فاقدة الوعى.

لين يوتانج عن يوان شين..

■■■

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

الشــك..

Telegram: electronic_library

هل هناك من سمع عن فتاة لا يعرف قلبها الحب بكل أنواعه. ولا أى شعور إنسانى نبيل؟. نعم أنا سمعت لأن تلك الفتاة هى أنا.

كنت إلى سنة مضت أحيا حياة ينقصها الشعور بالحب بشتى معانيه وتحتشد فيها كل النقائص التى من شأنها أن تشوه شخصية الإنسان وتسمم حياته من جهل فاضح وريبة حتى بالأصدقاء وتشاؤم من الحياة، هذه النقائص التى تنتج عادة من الحياة المنحطة كالتى عشتها فى قريتى، حياة الجهل والفقر والشقاء.

نشأت نشأة حقيرة فى قريتى الصغيرة النائية عن العمران التى هى أشبه بالمعسكر، كانت قد بنتها شركة مناجم الفحم لعمالها وعائلاتهم فكانت أصلح للحيوان منها للإنسان. وكنا نعيش فى هذا العالم الضيق حياة قاسية. ونحن فى أرض أمريكا وتشين وجه الإنسانية ونحن من بنى الإنسان.

كنا نحيا مع المرض والجوع جنبا إلى جنب تعضنا الآلام بأنيابها، ويسد علينا الجهل كل منفذ للخلاص. وكنا نغوص بالأقدار إلى أننا لم نكن نراها أقذارا بل من طبيعة الحياة.

Telegram: electronic_library

عشنا فى قريتنا النائية تلك، لا نعرف شيئا عن العالم الخارجى، ولا أذكر أننى ابتعدت أكثر من عشرة أميال عن المكان الذى ولدت فيه طوال الثمانى عشرة سنة التى عشتها فى قريتنا هذه. وكنا لا نعرف من الحياة إلا الآلام، آلام المرض، ونحن نحسه ينهش أجسامنا، ويصرع ضعافنا وآلام الجوع ونحن نلتمس الشبع فلا نجده، وآلام البرد القارص ونحن فى أكواخنا الكثيرة الشقوق، وآلام التعب ونحن نكد فى حياتنا الفطرية الشاقة، التى لم تدخلها أسباب المدنية المريحة. وكنا نجاهد أيضا فى أعماق مناجم الفحم، هناك حيث يستهل رجالنا حياتهم وهم بعد صبية فيفتحون عيونهم على تلك الحقيقة الحالكة ليدفنوا فيها قواهم وحيويتهم وشبابهم فى سبيل لقمة الخبز.

وإننى مهما استرسلت فى وصف حياتنا البائسة فى تلك القرية بل فى ذلك المعسكر الحقير، أرانى لا أستطيع أن أوفى الحقيقة حقها، وأصور ذلك العالم الميت الحى، كما هو فى الواقع. وكما عشت فيه طوال ثمانى عشرة سنة من حياتى الأولى. وأنك يا قارئى لن تستطيع أيضا أن تتصوره على حقيقته ما دمت لم تعش فى أوحال تلك الحياة كما عشت أنا، ولم تتجرع كل أنواع الشقاء كما تجرعت. وعليك يا قارئى حتى تفهم حياتنا فى ذلك المعسكر النائى فى ولاية «تينيسى» بجنوب وطنى أمريكا الشمالية عليك أن تدخل معى إلى صميم حياتنا المقوضة فتحس بالجوع الكافر، وتكفر بالحياة وتتمرغ بالأقذار، وتصبح هذه الأقذار قسما من جسمك وعليك أيضا يا قارئى أن تذوق كل آلام الحياة بكل أنواعها وبكل مرارتها.

وكانت الأمية سائدة فى قريتنا تلك منذ إنشائها. غير أن الأقدار رحمتنا مؤخرا بمدرسة أوجدتها الشركة لتعليم أطفالنا، وهى تتألف من غرفة واحدة ومعلم واحد، تقبل فقط من يستر جسمه بلباس غير بال

Telegram: electronic_library

وينتعل حذاء أو شبه حذاء، وهؤلاء قلائل ليقضى فيها مدة وجيزة يغادرها بعدها لمساعدة الأب فى المنجم إذا كان ولدا، والأم فى البيت إذا كانت بينا.

ومما كان يزيد فى شقائنا وانحطاطنا هو أخلاقنا الضعيفة،فكنا نحيا حياة تسيطر عليها الغرائز الوضيعة فتسيرنا إلى حتوفنا، حيث تنتهى حياة كثير منا برصاصة من زوج مخدوع أو زوجة أعمتها الغيرة. ولم تكن جهود الفرقة الدينية التى كانت تزور معسكرنا بين حين وآخر لتنجع فينا نحن الذين كان يغل عقولنا الجهل فننطلق مع العاطفة فى أبشع صورها. ورغم نشاط هذه الفرقة الدينية فى الوعظ والإرشاد وتوافدنا على مقرها للاجتماع فيه، إذ كان ذلك هو الحياة الاجتماعية الوحيدة عندنا. ورغم ركوعنا الساعات الطويلة هناك، نصلى بحرارة وخشوع ونسمع الواعظ يصيح ويزأر مهددا من لم يتب ويندم على خطاياه بنار جهنم وبئس المصير. أقول رغم كل هذا وتصويره لنا حياة السعادة والنعيم الأبدى فى السماء لمن يطيع الله فى وصاياه العشر، فقد كنا لا نقيم لهذه الوصايا وزنا ولا لكل تلك المواعظ التى كانت تتلاشى فى أذهاننا لدى مفارقتنا مقر الفرقة، وخاصة الرجال منا الذين كانوا يغادرون المقر توا إلى متابعة برنامج حياتهم الفاسدة من عشق أثيم، وقمار وسكر وعربدة إلى آخر ما هنالك من أنواع الموبقات.

ومن الطبيعى أن يكون أبى من هذه الزمرة الآثمة التى غالبا ما تنتهى حياة أفرادها بالموت قتلا. لذلك سرعان ما رأيناه يتوارى عنا ويختفى من حياتنا بعد أن أطلق عليه الرصاص زوج كان رآه مع زوجته فى حالة شائنة. ولم يدهش أحد لمقتل أبى بعد أن عرفت أسبابه المخجلة التى كان يرددها كل فم حتى صغار الأطفال.

Telegram: electronic_library

وتركنا أبى ثلاث عشرة أختا وأخا مع أم مريضة ليس لنا من معيل إلا كبيرنا الذى لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره وكان أخى هذا يشتغل فى المناجم، ككل رجالنا وغلماننا فراح يحاول إطعامنا براتبه الزهيد الذى لم يكن ليرد عنا غائلة الجوع. ومن أين له أن يكفينا ونحن لم نعرف الاكتفاء فى عهد أبى، وكانا يعولاننا معا؟. ففى ذلك العهد لا أذكر أننا جلسنا مرة إلى الطعام، وكان ذلك الطعام يكفينا كما أن أكثرنا لم يكن يلبس ما يستر كل جسمه، ولا ما يكسو قدميه حتى فى فصل الشتاء. وكذلك كان حال بقية العائلات فى قريتنا.

وسارت حياتنا فى منحدر الشقاء دون هوادة، بعد موت أبى فماتت أمى تحت وطأة الجوع ومرض البلاغرا، أحد الأمراض التى كانت منتشرة عندنا، ثم تبعها اثنان من صغار إخوتى بنفس المرض وحطمتنا مصيبة موت أمى. إذ بقينا وكلنا أطفال بدون راع، أو مرشد حنون، نعيش تحت رحمة الفوضى وقسوة الكبير على الصغير وخاصة أخوى الكبيرين اللذين كانا يشبعاننا نحن الصغار ضربا لدى أقل خطأ نرتكبه. فقد كانا لا يعرفان من التربية إلا الضرب المبرح.

وجاء أخى الكبير بعد أن وارينا أمى لحدها يفرض علينا سلطته قائلا: لقد صرت الآن رأس الأسرة ويجب أن أكون السيد المطاع هنا ومقابل هذا سأتابع عولكم بقدر ما أستطيع. وفعلا يحضر معاشه كل أسبوع إلى كبرى أخواتى، التى كانت تدير أمور البيت بقدر إمكانها ولكنه كان يسلمها إياه بعد أن يأخذ منه مصروفه الخاص لأجل النساء والخمر. وكذلك كان يفعل أخى الثانى، الذى كان قد بدأ يشتغل فى المنجم كأخيه.

وأخيرا آن لنا أن نصل إلى الحلقة المهمة من سلسلة الحياة فتزوجت كبرى أخواتى، ثم تبعتها أختى الثانية «ايلى» فى السنة التالية، حالما ودعتا

Telegram: electronic_library

طفولتيهما ونهدتا إلى فجر صباهما. شأن كل فتى وفتاة فى وسطنا هذا، الذى كان يعيش بغرائزه تقريبا فى عالمه النائى السحيق.

وبقيت بعد زواجهما وحدى أرعى الأطفال وأدير البيت وأحمل مسئولياته، وأنا لم أكن أتجاوز الثانية عشرة من عمرى. وكانت مهمتى هذه شاقة عسيرة. وكنت أبدأ نهارى عند الفجر. ولا آوى إلى فراشى إلا عند منتصف الليل، بعد أن أكون قد صنعت الطعام وأطعمت الأطفال ونقلت ماء الشرب من المضخة العمومية المعدة له فى آخر القرية، وأخذت ما يجب غسله إلى الجدول الجارى هناك، كل ذلك فى البرد القارص الذى لا يحمينى منه غير ثوب بال. نعم كانت مهمتى شاقة عسيرة وأنا أجاهد أمام الأطفال الصغار خاصة فى فصل الصيف لأحميهم من مرض الخناق الذى كان منتشرا بين الصغار حينذاك ونحن نسكن تلك البيوت الحقيرة، التى أجرتنا إياها شركة المناجم تهاجمنا فيها أسراب البرغش من المراحيض المتناثرة بينها وليس عندنا ما نتقيها به ولا نفكر فى اتقائها جاهلين ما تحمله إلينا هذه الحشرات من أمراض

لقد جاهدت مر الجهاد فى تلك الحياة البدائية الشاقة، التى لم نكن نعرف فيها واحدا من أسباب المدنية المريحة كاستحضار الماء بالأنابيب والإنارة بالكهرباء. واستعمال موقد الغاز للطبخ وغيره، هذه الأشياء التى لم نكن قد سمعنا بها على الإطلاق.

وأخيرا بلغت الرابعة عشرة، وجاء دورى فى الزواج عندما علق بحبى «جون هيل» ذلك العامل الجميل، من النظرة الأولى التى أحسستها حادة ثاقبة، نفذت عبر ثيابى المهلهلة إلى جسمى الهزيل الناحل الذى حناه الجوع والتعب وآلام البرد القارص. فهالتنى هذه النظرة وأسرعت هاربة من وجهه

Telegram: electronic_library

عندما رأيت أختى الكبرى تقهقه ضاحكة وهى آتية نحوى تجر طفلها الهزيل، وتحمل آخر بين يديها، ثم تلاحقنى بقولها متعمدة إغاظتى: لقد رأيته.. رأيته يحدق فيك لقد آن أوانك يا روبى.

نعم!... لقد آن أوانى فهكذا تبدأ مهزلة الزواج، بهذه النظرة الحادة ثم بالمطاردة. وأخيرا، ذلك الرباط الزوجى الذى يعنى بالنسبة للرجل السكر والقمار والفساد بكل ألوانه، ويعنى للمرأة طفلا كل سنة، ومنتهى الألم والعناء والعبودية ولكن ماذا يجدى الاعتراض والتشكى؟. فهذه هى سنة الحياة عندنا.

وتزوجت من جون هيل بعد سنة كرر فيها زياراته لى، وكنا ننتظر زواج أخى لتقوم عروسه بإدارة البيت مكانى لأن إخواتى كن ما زلن صغيرات لهذه المهمة. وكان جون فى ذلك الانتظار الطويل أشبه بالحيوان فى حبه الوحشى، فحاول اقتناصى عدة مرات كنت أقاومه فيها وأفر هاربة كالقطة البرية، وكدت أنفر من فكرة الزواج لولا جماله الذى سحرنى فى رجولته المكتملة رغم أعوامه الستة عشر.

ورغم هذا الشعور السطحى بالعاطفة فقد استقبلت الحياة الزوجية بفكر خال من أية صورة للعلاقة الزوجية كما رأيتها. وطالما سألت شقيقتى قبل أن أدخل كوخ زوجى، عما يعنى الزواج وكيف يأتى الأطفال؟. ولكن سرعان ما رأيت نفسى حاملا بعد شهور من زواجى وبدت لى حياة الزواج ثقيلة مرة، وأنا أتصور موكب الأطفال الذى سيتقاطر علىّ، طفلا فى كل سنة، فيرهق جسمى ويجعلنى هرمة قبل أن أبلغ الثلاثين. ورأيت أن المعنى الحقيقى لكلمة الزواج تتجسم فى هذه المصيبة. وأنها تعنى أيضا لونا جديدا من ألوان الشقاء عرفته منذ أيامى الأولى لزواجى منه، ولم أكن

Telegram: electronic_library

أعرفه من قبل هو الغيرة التى كانت تنهش نفسى، وأنا أرى زوجى متأبطا ذراع عشيقته «ميدجى» كل ليلة ليرجع إلى بيتنا فى منتصف الليل سكرانا معربدا يقذفنى بالشتائم والكلمات المقذعة.

وعندما ولدت ابنى «جيمى» فى تلك الليلة القارصة البرد كان زوجى غائبا على عادته عند عشيقته ميدجى. وكنت وحيدة لا أجد من يساعدنى وآلام المخاض تخنق أنفاسى وكدت أموت من لفحات البرد التى كانت تتسرب إلى من شقوق الكوخ الكثيرة فتقرس جسمى الواهى المسربل بالآلام ن وتمنيت أن يكون جون إلى جانبى، ولو ليشعل لى شيئا من الفحم فقط، وكانت هذه أشد حاجاتى إلى شريك حياتى فلم أجده بجانبى. وتردد فى نفسى: آه.. كل الرجال من طينة واحدة، فلا يخطر لأحد منهم أن يشذ عن بنى جنسه ولو قليلا..

ولم أكن فى حياتى هذه أسوأ حظا من بقية الزوجات فى المعسكر

وأخيرا شاء القدر أن تنتهى حياتى مع زوجى جون بالفاجعة المعتادة التى تتكرر دائما فى كل بيت عندنا، وهى الموت. لقد صرعه أحد أمراض البرد مرض ذات الرئة بعد شهر من ولادة ابنى جيمى رغم حرصى عليه من البرد. وعنايتى الدائمة بتدفئته. وأذهلنى أن يموت زوجى رغم عنايتى الشديدة بصحته. ولكن هذا لم يغير من الحقيقة شيئا فإن جونى هو الذى حفر له أهل القرية ذلك القبر، وهو هو الذى جمعوا له ثمن التابوت الحقير الذى وضعوه فيه ليواريه أقاربه فى لحده، إذ أنه لم يكن فى معسكرنا متعهد دفن، ولا واحد من رجال الدين يقوم بمهمته حيال من يموت.

وحملت ولدى عائدة من المقبرة إلى بيت أهلى، إلى ذلك الكوخ المزدحم باخوتى وأخواتى لأعيش فيه بعد غياب سنة كاملة، ورحت أبحث عن عمل

Telegram: electronic_library

فى خدمة البيوت لأرتزق منه مع ولدى ولكن من أين لى أن أجد ذلك العمل وكل من حولى فى مثل حالى؟.

وشاء الحظ أن يفاجئنى بعمل فى بيت وكيل شركة المناجم عندنا هو أن أساعد زوجته فى شغل البيت وغسل الثياب التى كنت آخذها إلى الجدول حيث أضع ولدى على لحافه البالى فى ظل شجرة لأقف على المغسل فى جو تتجاوز حرارته الأربعين أحيانا أجاهد من أجل لقمة العيش.

ورغم عملى الشاق هذا، وما كنت أعانيه من كره مخدومتى لى وتقتيرها على بالأجر، بسبب الحسد الذى يداخل بعض النساء اللواتى يفارقهن شبابهن وجمالهن، وتضغط نفوسهن كآبة الكهولة، حتى يكرهن كل من بدت فيه نضارة الصبا ورونق الشباب. أقول رغم كل هذا لم يكن ليخطر لى يوما أن أجرب هجر هذه القرية هذا المكان الذى ما عرفت غيره منذ ولدت، إلى بلد آخر علنى أجد فيه عملا أخف عناء من عملى هذا وأكثر إيرادا.

ومضت سنتان وأنا على هذه الحال، رأيت بعدها ولدى قد بدأ يدب على الأرض بهيكله الهزيل المتداعى. وساورتنى مرة سلسلة من الأفكار والصور وأنا أنظر إليه من خلال العرق الذى كان يتصبب من جبينى فيملأ مقلتى وأنا أدعك الغسيل فتخيلته وقد نما بعد سنوات ليبدأ جهاده المر فى سبيل تحصيل العيش فيشتغل بأخذ زاد العمال إلى المناجم مع غيره من صبيتنا الصغار الذين يبدأون جهادهم عادة وهم فى السادسة من عمرهم وينمون وفى أجسامهم أكثر من مرض واحد، وقد حنت أعوادهم الغضة مرارة الحياة فعاشوا ولا يدرى أحدهم أيفاجئه الموت على حين غرة، أم يتسرب إليه ببطء فى حياته المكفهرة الخانقة؟.

Telegram: electronic_library

وتصورت جيمى فلذة كبدى يحيا على هذا الشكل ويشقى هذا الشقاء فانعصر قلبى ألما وكدت أبكى. ألا يمكن لولدى أن يعيش حياة أفضل من هذه؟. وكيف السبيل إلى ذلك وأنا فى هذه الدرجة من الفقر؟. كيف أجنبه الآلام والشقاء وأنا فى هذه الحال؟. ليتنى أجد عملا أكثر إيرادا من عملى هذا، عند ذلك أستطيع الترفيه عن ولدى وإسعاده وحمايته من الأمراض. ولكن، أين أجد هذا العمل وكل أهل قريتى فى مثل حالى؟. آه.. ما أمر الحياة.. ولكن أيكون أهل البلدان الأخرى فى مثل حالنا من الفقر والحاجة؟ لا أظن أن جميع الناس فى حال واحدة، لماذا لا أذهب إلى أى بلد آخر علنى أجد موردا كافيا لإسعاد ولدى فلذة كبدى جيمى؟. آه، ما أجمل هذه الفكرة، ولكن...

وارتعت عندما تصورت نفسى أغادر هذه القرية التى ولدت فيها وعشت طوال سنى حياتى الثمانى عشرة ولم أر بلدا غيرها، ارتعت لهذه المغامرة التى لم يأتها أحد فى قريتنا من قبل، ولكن آه، نعم لقد أتتها خالة لى منذ سنتين طويلة قبل أن أولد كما كانت أمى تتحدث أحيانا أمامى وخاصة عندما أرسلت لنا خالتى تلك الرسالة الوحيدة التى أذكر أن أمى دارت فى القرية، مفتشة عمن يقرأها لها إذ أنها لم تكن هى ولا أبى يعرفان القراءة. نعم لقد هجرت خالتى سوسان قرية المناجم هذه وذهبت نحو الشمال إلى مدينة صغيرة فى ولاية انديانا حيث تزوجت بعامل فولاذ هناك. إذن أنها فكرة غير جديدة. وأظن أننى على حق فى هجر هذه البلدة، ولكن لماذا لا أكتب إلى خالتى هذه أسألها رأيها فى الموضوع بعد أن أخبرها بالدافع إلى هذه الفكرة؟.

ورحت أكتب إليها بما استطعت أن أحصله فى المدرسة من علم ضئيل وأرسلت الرسالة مع وكيل الشركة الذى اشتغل عنده ليرسلها من بلدة فيها

Telegram: electronic_library

مركز للبريد. وكنت أرتجف وأنا أعطيه الرسالة وأفكر مترددة فى تنفيذ هذه الفكرة ولكن خيال ولدى ومستقبله التاعس فى هذه القرية كان يبث فى روح الجرأة والمغامرة اللتين لم أعرفهما فى حياتى. وعندما أرسلت الرسالة تنهدت بارتياح رغم أننى كنت ضعيفة الأمل باهتمام خالتى بأمرى. ورحت أردد: لا لن يحيا جيمى حياتنا البائسة المرة، كلا، ويجب أن أهيئ له حياة أفضل.

وشد ما أدهشنى أن يأتى جواب خالتى بهيجا مفرحا، فيبدد ريبتى فى اهتمامها بى، هذه الريبة منى بكل إنسان حتى بالأصدقاء والتى هى من نتائج حياتى المنحطة فى ذلك الوسط الفاسد. لقد كانت خالتى تحبذ فكرة هجرتى إلى بلدها والسكن معها، وزادت على ذلك أنها أرسلت إلى تذكرة سفر توصلنى إلى شيكاغو ثم علمتنى كيف آخذ قطارا آخر من هناك ليوصلنى إلى ولاية انديانا حيث تسكن هى. وارتعت لهذه التعليمات التى رأيتها صعبة التنفيذ وكيف لا أراها كذلك، وأنا التى لم أبتعد خارج المعسكر مسافة عشرة أميال طوال حياتى؟.

وجمعت لوازم طفلى وحاجاتى، ثم ودعت من أعرفه وبدأت الرحلة. ولما خرجت من القرية أحسست بقلبى ينعصر ألما، وبارتباك لهذه المغامرة التى ثقلت على أعصابى. ورحت اتلفت ورائى حتى غابت القرية عن عينى فدمعت مقلتاى لفراقى لهذه البلدة التى ولدت فيها والتى شهدت قسما كبيرا من قصى حياتى. ولما ركبت القطار غمرتنى موجة من الفرح ورحت أردد فى نفسى: ما أجمل هذا أنى تاركة معسكر المناجم ورائى، إنى مفارقة حياة الفقر والأقذار والشقاء إلى الأبد.

وقضيت كل تلك الليلة جالسة فى مقعدى ضامة طفلى النائم إلى صدرى، بينما راحت تعرض فى مخيلتى مناظر حياتى فى ذلك المعسكر

Telegram: electronic_library

فتخيلت أبى بفظاظته وفساده، ثم بنهايته القاسية تلك، وتخيلت أمى المظلومة البريئة بشقائها وآلامها. وكذلك بدا لى أخواى اللذان لا يختلفان عن أبى وزوجى فى فسادهما. ثم رحت أتصور حياتى التاعسة فى بيت أخوتى ثم فى بيت زوجى عند ذلك بدت لى عشيقة ميدجى فارتعت وكأن صرخة دوت فى أعماقى لا.. لا، أنها ذكريات مؤلمة ويجب أن أتركها وراء ظهرى كلها يجب أن أنساها كأن لم يحدث شئ. ولكن من أين لى أن أنزع الماضى من خيالى: وقد استقر فى أعماق نفسى بكل بشاعته وكل مآسيه؟.

ولم تكن خالتى سوسان تعرف شكلى بطبيعة الحال، لذلك كانت قد عينت لى مكانا نلتقى فيه. وأسرعت إلى ذلك المكان ضامة طفلى وصرة حوائجى بشدة واضطراب ظاهر، خائفة أن لا أجدها فيه. ولكن سرعان ما رأيت امرأة فيها بقية من نضارة الشباب تسرع إلى من بين ذلك الحشد من الناس هاتفة: أنت ابنة أختى روبى؟. أأنت؟.

وراعنى ما تلبس خالتى من ثياب زاهية جميلة الزى. كما أدهشنى أن اراها بهذه الفتوة الواضحة مع أنها لا تصغر أمى إلا ببضع سنوات وتبدو فى سن أختى الكبرى. ولكن لماذا أقارن بين ابنة المدينة وابنة المعسكر. ابنة الراحة والرفاهية وابنة الشقاء والفقر والحرمان؟. وخجلت أمامها فى ثيابى العتيقة العديمة اللون، وأدركت أنها قد عرفتنى منها بين هذه الجموع الكثيرة من الناس، وخفت أن تكون خجلة بى أمامهم، وأنا بذلك الشكل المزرى، ولكنها كانت لطيفة معى ومهذبة فلم يبد عليها شئ من هذا القبيل.

وعندما دخلت بيتها الجميل شعرت بحقارتى وحقارة حياتى فى ذلك المعسكر أكثر من ذى قبل، ولم أستطع أن أنطق بكلمة خوفا من أن أدلل على هذه الحقارة، ثم عرفت بعد ذلك أن هذا البيت الصغير المرتب هو ككل بيوت عمال الفولاذ هناك. وكنت ذاهلة طوال الأيام الأولى من حياتى

Telegram: electronic_library

فى هذا البيت الذى بدا لى كالقصر بأثاثه الجميل وسجاده ومصابيحه الكهربائية التى شد ما أثارت دهشتى، كما أدهشنى كثير غيرها من مخترعات المدنية التى تريح الإنسان وتسمو به عن مثل حياتنا فى ذلك المعسكر، تلك الحياة التى كنا فيها أشبه بالحيوان منا بالإنسان.

وفكرت، لن أخبر أحدا عن حياتى الماضية فى المعسكر، إن ذلك عار سيلصق بى طيلة إقامتى هنا.

وأكبر الظن أننى بدوت فى ذلك الوقت خجلى فى صمتى الدائم أمام خالتى وزوجها العم «ديف» الذى رحب بى عندما رآنى ورفع ابنى جيمى إلى صدره يغمره بحبه ويؤرجحه فى الهواء يداعبه ويضاحكه هذا الشئ الذى لم أر أحدا يفعله من قبل، ومن أين لنا الوقت حتى نغمر الأولاد بحبنا ونداعبهم؟.

وشرعت خالتى بعد يومين من وصولى تبحث لى عن عمل بناء على طلبى، بعد أن أبت على أن أضع ولدى فى بيت لرعاية الأطفال ورغبت أن تتعهده بنفسها أثناء غيابى فى عملى. ونادتنى مرة إليها وقالت لى بإصرار: إذا أردت الحصول على عمل يجب أن تحسنى مظهرك وتتجملى.

ولكن من أين لى أن أعرف التجميل، وأنالا أعرف تنظيف جسمى؟. ورأيت خالتى تدخلنى الحمام وتغسلنى بنفسها، فسال الماء على جسمى أسود قذرا فخجلت وحرت كيف أعتذر إليها عن هذا. ولكنى عدت ففضلت الصمت لستر حياتى القذرة الماضية وإبقاء هذا العار سرا دفينا فى أعماق نفسى حيث لا يستطيع أحد الوصول إليه.

وبدوت متألقة بعد النظافة كما لم أبد مرة من قبل. وراح شعرى الأشقر يلمع بتموجات جميلة مما أشاع الغبطة فى نفسى. وجعلت خالتى تقوم بعملية تجميلى فوضعت المساحيق على وجهى بخفة ومهارة وألبستنى

Telegram: electronic_library

الثياب الأنيقة التى اشترتها لى جاهزة. ولم أصدق بعد ذلك إننى أنا التى أبدو فى المرآة بهذا الجمال، وبهذا الجسم النحيف المتناسق الأعضاء. وهتفت خالتى بجذل: ما أجملك الآن يا روبى. ولكن لا يزال يبدو عليك أنك قروية.

وحصلت على عمل كخادمة فى فندق، رأيت نفسى فيه أسعد من فى العالم فهو شغل سهل تعلمته بسرعة من رفيقاتى الخادمات هناك كتنظيف الأرض والأثاث ومسح الغبار عنه وما أشبه، ولم أصدق أننى أتقاضى خمسة عشر دولارا كل أسبوع عن هذا الشغل البسيط. هذا المبلغ الذى يفوق ما كنت أكسبه خلال شهر كامل أثناء وجودى فى قرية المناجم. وأحسست بالسعادة العظمى فى هذه الحياة الجديدة السهلة التى بدأتها حياة الراحة والرفاهية التى لم أكن أحلم بها، حياة الدفء والشبع التى لم أرها من قبل. وأخيرا، حياة النظافة والجمال والحرية والسرور، هذه الأشياء التى لم أعرفها فى قريتى، ذلك المعسكر المشئوم. وكانت تتمثل لى دائما حياتى الأولى بكل بشاعتها وحقارتها فأردد: كلا، كلا، لن أعود إليها ما دمت حية، لن أترك هذه الحياة السعيدة، هذا العالم الحى وأرجع إلى معسكر المناجم.

وعشت مشدوهة فى هذه الحياة الجديدة تفاجئنى فيها كل يوم أعجوبة جديدة ومسرة جديدة فخرجت مع رفيقاتى المستخدمات إلى المنتزهات ودخلت الملاهى والمجتمعات وأنا غير مصدقة ما أرى وأسمع، كما أننى كنت لا أشبع من النظر إلى الفندق بغرفه الأنيقة وردهاته الواسعة وأثاثه الفخم المريح، ونزلائه بلباسهم الفاخر الجميل. وجعلت أتعلم من بنات المدينة كيف أتخلص من طابعى القروى، وأكون سيدة راقية تفهم الحياة، ولكنى كنت أعانى جهودا فى هذا السبيل حيال بنات

Telegram: electronic_library

الشمال الخفيفات الحركة، السريعات اللهجة، وأنا بلهجتى الجنوبية البطيئة. وعملت على اكتساب صديقات منهن، وخاصة من رفيقاتى المستخدمات اللواتى كن يحرجننى دائما بأسئلتهن عن عائلتى، وعن الحياة فى الجنوب فكنت اعتصم بالصمت. دائما الصمت ليبقى عارى مطمورا فى أعماق سريرتى. أما هن فما كان أسهل هذا الموضوع عليهن. فقد كن يروين لى قصة حياتهن بلحظات معدودة بلهجتهن الخفيفة المرحة.

وبهذا الشكل، قصت على صديقتى السويدية مارى أندرسن حياتها وهى تطوقنى بمودة ومرح. وكانت فتاة سمينة شقراء لعوبا فى الثالثة والعشرين من عمرها. ولما عرفت أنها ما زالت عزباء دهشت واعتبرتها عانسا، إذ أننى معتادة على حياتنا فى معسكر المناجم حيث تتزوج الفتاة وهى فى الرابعة عشرة من عمرها.

وكان لهذه الفتاة السويدية أثر بليغ فى حياتى عندما دعتنى إلى بيتها وعرفتنى على أمها وأبيها وأخيها «سام» وهما عاملا فولاذ. وكان أخوها سام شابا فى السابعة والعشرين من عمره ولكنه لم يكن يبدو أكبر من زوجى جونى عندما فارق الحياة وهو لم يتم سنيه الثمانى عشرة. وكانت أمها السيدة أندرسن امرأة لطيفة، ونشيطة، فى الستين من عمرها، ولكنها لم تكن عاجزة هرمة فقدت كل أسنانها كالنساء اللواتى يندر أن يبلغن هذه السن فى معسكر المناجم عندنا.

وقالت صديقتى مارى تقدمنى لأخيها: هذه صديقتى روبى التى طالما حدثتك عنها، فخفضت رأسى خجلا.

فقال لى بكل لطف ورقة: لا تهتمى لها أنها ثرثارة ونحن السويديون من طبيعتنا الهدوء لذلك نحب الهادئين أمثالك. ثم ابتسم.

Telegram: electronic_library

وتجرأت أن أرفع رأسى لأنظر إلى ذلك السويدى الأشقر الأنيق ثم عدت فخفضته خجلة وقد شعرت بهزة افتتان لم أشعر بها منذ أيام زواجى بجونى. وراعنى ما أثار بى منظره من عاطفة فإن عينيه الزرقاوين الصافيتين وكتفيه العريضتين وساعديه المفتولين، كل ذلك جعلنى أسير فتنته الطاغية. ولما عرض على أن يوصلنى إلى البيت بعد انتهاء السهرة لم أستطع الرفض لأننى كنت أضعف من أن أقاوم سحره. وسرنى هذا العرض لأنه دل على وقوعى فى نفسه كما وقع هو فى نفسى.

وقبل أن نصل إلى بيت خالتى، رأيته يوقف السيارة فى زاوية مظلمة من الشارع فرددت فى نفسى: كل الرجال سواء فى غريزة الاقتناص ولا فرق بين عامل المنجم ابن القرية، وعامل الفولاذ ابن المدينة. ولشد ما أدهشنى أنه لم يحصل شئ بيننا فقد عاد سام فواصل السير، وكان مهذبا نبيلا مما أبطل اعتقادى هذا بالرجال. ومما زاد فى دهشتى أيضا أنه عندما فارقنى فى بيت خالتى بعد أن تعرف عليها وعلى زوجها لم يودعنى حتى بقبلة فظننت أننى كنت مخطئة عندما اعتقدت أننى وقعت فى نفسه، ورجحت أنه لا يحبنى. ولكن سرعان ما تبدد هذا الظن عندما رأيته يكرر دعواته لى يوميا إلى المسارح والمطاعم وحفلات الرقص، وكل المباهج التى تسر قلب الفتاة. وكان فى كل هذه المواعيد حتى فى خلواتنا معا فى المنتزهات أو فى السيارة مهذبا لا يحاول معى شيئا مما أزعجنى وجعلنى أتساءل بانفعال: ألا يوجد عنده شعور الرجال؟.

هكذا علمتنى حياتى الأولى فى المعسكر أن يكون الرجل عبارة عن رغبات حيوانية فقط.

ولكم كنت أتمنى أن يضمنى بمثل هذا الشوق الذى أشعر به نحوه ويقبلنى بمثل هذه الحرارة التى تحرق كيانى. وحسبت أن أمنيتى هذه

Telegram: electronic_library

تحققت عندما رأيته مرة ونحن فى السيارة يجذبنى إليه بشدة ويضمنى محدقا فى وجهى، فاستسلمت إليه نشوى أتوقع القبلة التى طالما تقت إليها، ولكن روعنى أن رأيته يتراجع وينسحب قائلا بصوت أبح: روبى يجب أن لا نعود إلى مثل هذا. أليس كذلك؟. فشعرت بالخجل الشديد إذ أدركت ماذا يعنى بعبارته هذه، لقد عنى أننى يجب أن أقيم لشرفى وزنا وأضبط عواطفى ولو قليلا. وبدا لى نبله وهو يحمينى من نفسه، كما تجلت لى دناءتى التى هى وليدة حياتى الشائنة فى قرية المناجم، حيث تسيطر الغرائز البوهيمية على الرجال والنساء فيعيشون ولا يعرفون معنى للتعفف أمام رغباتهم الحيوانية.

وجاءت اللحظة التى صارحنى فيها سام بحبه وطلبنى للزواج وكان ذلك فى بيت خالتى وهو يساعدنى على غير عادته فى تجفيف الصحون التى كنت أغسلها. وكنا وحدنا فى البيت فارتعت وأنا أراه يرمى المنشفة فجأة من يده ثم يطوقنى ويمطرنى وابلا من القبلات قائلا: روبى، روبى دعينا نتزوج.

فلم أتمالك من أن هتفت: نتزوج؟..

فأجاب بلهفة: نعم، لنتزوج يا روبى، إنى مللت حياة الكد والجهاد دون أن أرى قلبا يؤوينى وأويه، وصرت أرى نفسى ضائعا فى هذه الحياة. إنى أريد بيتا وزوجة وأطفالا يا حبيبتى.

وكنت صامتة لا أجيب، فعاد يهتف: ألا تصدقين أنى أحبك يا روبى؟. أنى أحبك بكل مشاعرى وإحساساتى.

وعاد إلى تطويقى بذراعيه، فدفنت رأسى فى صدره فلم ير الحيرة التى ارتسمت على وجهى. كنت أحس بأننى ضائعة، لا أعرف ماذا أريد وكيف

Telegram: electronic_library

أفكر، وكل ما كنت أعرفه أن كلمة الزواج هذه قد حطمتنى. نعم، رغم حبى الجارف لسام وتعطشى إلى عناقه. إلى شفتيه.. إلى روحه أذيب فيها روحى. نعم، لقد حطمتنى كلمة الزواج هذه، لأنها تعنى تلك الحياة التاعسة التى كنت أحياها مع زوجى جونى. تعنى أن أصبح عبدة للرجل، وتعنى أيضا وداعى لعملى الحبيب ومعاشى الخاص بى. نعم، لقد حطمتنى تلك الكلمة لأنها تعنى انتهاء كل هذه الأشياء، وانتهاء أناقتى وجمالى، وأخيرا انتهاء حب سام لى، هذا الحب الذى لن يدوم أكثر من بضع ليال بعد الزواج، ثم بعدها السكر ومطاردة النساء.

وكان سام ينتظر جوابى ويداه تطوقانى، ولكن من أين لى أن أنظم له كل هذه الأفكار فى جواب يفهمه؟. فلجأت إلى الصمت، ولم ير منى جوابا إلا شفتى المطبقتين وحرارة جسمى الملتصق بجسمه.

وتكلم هو فقال بعد أن أبعدنى بلطف: سأنتظر جوابك يا روبى، ولكن لا تنس أننى لن أستطع الانتظار طويلا.

وانفردت بعد ذهابه أفكر، فرأيت نفسى أمام عقبة لا تتزحزح هى كرهى للزواج الذى سيعيد إلى حياتى مع زوجى الأول جونى. نعم إننى أكره الزواج، إنى أشمئز منه. ولكن.. كيف السبيل إلى الاحتفاظ بسام؟.. إن سام يحبنى ويريد أن يربط بيننا الزواج ولا سبيل إليه بغير هذا الرباط. وأحسست بالغيرة تخنقنى، وأظلمت نفسى وأنا أتصور مستقبلى فى الحياة الزوجية. ولكن سام.. كيف السبيل إلى سام؟.

ورأيت هذه الفكرة تسيطر على، رأيتها تملكنى، رأيتها تذلل أمامى كل عقبة. وتسهل لى هذا الزواج المشئوم. نعم سأتزوج بسام، سأعيش معه فى بيت واحد، سأحتفظ به مدى الحياة. لقد قررت الزواج ثانيا، ولكن ليس

Telegram: electronic_library

عن رضى وأمل فى أن يختلف زواجى هذا عن الزواج الأول لأننى سكنت المدينة ولم أعد ابنة القرية، كلا، فإن اختلاف الأقاليم لا يغير الطباع، ولكن لأننى أنا نفسى قد تغيرت، غيرتنى الحياة وغيرنى زواجى الأول الذى كان درسا لى، وأصبحت حذرة متيقظة أعرف كل شئ.

وكان الزواج بعد خطبة دامت سنة، هيأنا خلالها بيتنا الجميل المتواضع. وبدت حفلة الزفاف جميلة رائعة، لم أكن أحلم بمثلها من قبل. وعندما رأيت سام يبسم لى وينادينى بغبطة ورقة «يا عروسى» أدركت الاختلاف الكبير بينه وبين زوجى الأول بفظاظته وأنانيته. وأوحت إلى هذه الساعات السعيدة بفكرة تملكتنى، هى أن أبذل جهدى للاحتفاظ بسام، أن أضحى بالغالى والنفيس لأبقيه لى وحدى، حتى الأطفال سأضحى بهم لئلا يشغلونى عن العناية بسام وعن تنمية حبه. فى نفسى نعم، لم ألد أطفالا يلهوننى عن سام.

وبدأ جهادى فى حياتى الزوجية للمحافظة على رضى سام وحبه. فكنت أطيعه أكثر من بنانه، وكنت أسهر على راحته وتنظيم أموره أكثر مما أسهر على ولدى «جيمى»

ووجدت حياتى الجديدة عسيرة شاقة. وأنا أحمل مسئولية بيت لا أعرف تنظيمه والعيش فيه، إلا على طريقة أهل قريتى البدائية الحقيرة. وسرعان ما تكشف لسام غلطاتى الفاحشة فى ممارسة هذه الحياة، وخاصة فى ترتيب أثاث البيت، وتربية طفلى التى كانت عبارة عن ضربه وشتمه لأقل خطأ يأتيه، كما ربانى أبواى، وكما عاملنى أخوتى من بعدهما. وكان سام يتلافى كل أغلاطى بنفسه ضاحكا من جهلى هذا، الذى لم أستطع أن أخبره عن سببه، عن حياة القذارة والجهل والعار التى عشتها طوال الثمانى عشرة سنة من حياتى الأولى فى قرية المناجم.

Telegram: electronic_library

وسرنا فى حياتنا على هذا المنوال، أتعلم من زوجى فن الحياة الراقية، وأشعر بمنتهى السعادة فى هذا البيت الجميل المرتب، وإلى جانب هذا الزوج المثقف الأنيق، الذى لا يمت إلى القرية والقرويين بصلة، وكان يزيد فى سعادتى عدم مجئ طفل يشغلنى عن رعايته وحبه، ويقلل من أناقتى أمامه وجمالى ومرحى. وكدت وأنا فى غمرة سعادتى هذه أن أندم على تشاؤمى من الحياة الزوجية وسوء ظنى بجميع الرجال، لولا أن وقعت الطامة الكبرى، ورأيت الفصل الأول من قصة الزواج الذى كنت توقعته، يبدو على مسرح حياتنا وذلك عندما رأيت سام مرة يرجع إلى البيت متأخرا عن موعده العادى، وهو يترنح من السكر. وكان ذلك يوم استلامه راتبه وكنت جالسة إلى النافذة انتظره قلقة عليه لتأخره. ولما رأيته يلج الباب أسرعت لأسلم عليه بالقبلة المعتادة، فصعقت لمنظره ثم ارتددت إلى الوراء عندما شممت رائحة الخمر تفوح من فمه، ووقفت أحدق فيه ذاهلة لا أصدق شيئا ولا أفكر بشئ. فقال بصوته المرتجف ولهجته المائعة من السكر: لا تهتمى يا عزيزتى فإننى لم أشرب سوى بضعة أقداح من البيرة مع بعض الرفاق.

وكأنما ردتنى هذه العبارة إلى وعيى، فلمست الحقيقة المرة لمسا وأدركت أننى بدأت أصل إلى الحياة التى خفت منها، وأن هذه هى الحياة الزوجية الحقيقية وليست تلك الأيام السعيدة الهادية التى مرت علىّ كالحلم. نعم جمدت أمامه صامتة أفكر. كم كنت مخطئة فى تفضيل سام على زوجى الأول جونى، وتمييزه على أبى وإخوتى السكيرين وبقية رجال قريتى. فإن طبيعة الرجال واحدة أينما كانوا سواء فى القرية أم المدينة. وإن الأزواج كلهم سواء فى الأنانية وحب الذات، فهم لا يتورعون عن صرف مرتباتهم على ملذاتهم الخاصة، تاركين عائلاتهم ضحايا العوز والفاقة. وأحسست

Telegram: electronic_library

بموجة من الغضب لم أستطع كتمها فصحت ثائرة: إنك لا تخجل حتى منى فتأتى إلى البيت سكران وتخبرنى بدون اهتمام أنك سكران كأننى غريبة عنك، فما أشجعك. إذن ارجع من حيث أتيت أسمعت؟.. ارجع إلى حانتك، هناك حيث يتوافر لك اللهو والملذات أكثر من هنا ولا ترجع إلى البيت إلا عندما تصحو.

ورأيت سام يسرع إلىّ وأنا فى صياحى وثورتى فيطوقنى متحببا فاستسلمت إليه. وماذا أستطيع أن أفعل غير هذا؟. فإننى لا أعرف طريقة أخرى لاجتذابه إلى حياة البيت.

وكانت هذه الحادثة هى المسمار الأول فى نعش سعادتنا الزوجية. فقد تابع سام تأخره عن البيت وكنت صامتة، إذا أدركت أن الصياح لا يجدى شيئا، ولكن الآلام كانت تنتشر فى داخلى كالسرطان.

وكأن كل تلك الآلام لم تكفنى حتى فاجأتنى آلام أخرى زادت فى شقائى، وهى عندما شرعت عائلة سام التى تحب الأطفال كثيرا تطالبنى بطفل، وخاصة أمه التى كانت لا تنفك تردد أمامى أنها عندما تزوج ابنا كانت تحس نفسها أنها ستصير جدة قبل انتهاء السنة الأولى لزواجه، فلم يتحقق حلمها رغم مضى أكثر من سنة على هذا الزواج. وكنت أحملق فى حماتى دهشة عندما أسمع كلامها هذا، مستنكرة تدخلها غير المباشر فى شئونى الخاصة ولكن سرعان ما رأيت زوجى يردد نفس اللهجة قائلا: «إننى أحب جيمى ابنك كأنه ولدى يا روبى، ولكن الرجل يحب دائما أن يملك أطفالا من صلبه ودمه» فأسقط فى يدى ورأيت نفسى فى موقف شائك فجعلت أهدئه بأننى أنا أيضا أحب الأطفال ولكن ليس باستطاعتى شئ حيال ذلك فالطبيعة وحدها هى المسئولة.

Telegram: electronic_library

وكنت كاذبة فى اتهام الطبيعة هذه التهمة. فقد كنت أنا التى أمنع نفسى من الحمل بمختلف الوسائل، ولكننى ما زلت أتعدى على الطبيعة بهذا الاتهام، حتى وجدتها أخيرا تفاجئنى بالحمل دون رحمة أو شفقة رغم حذرى منه واجتنابى له. وهذا دأب الطبيعة دائما فإن شركها أبدا بالمرصاد ولا نجاة للمرأة من الحمل مهما حاولت النجاة.

وبهذا الحمل وقعت فى نوع جديد من الشقاء، نوع قاس مر لم أجد لى منه خلاصا. وكان هذا الشقاء راسخا فى أعماق نفسى لا أستطيع إظهاره لأحد للتخفيف عنى، فقد كتمت خبر حملى عن كل إنسان، علنى أتخلص منه بينى وبين نفسى. وكان هذا الكتمان شاقا عسيرا على وأنا أجاهد لإخفاء الضعف وغثيان الوحام أمام سام كل يوم وأتظاهر بالمرح والنشاط اللذين يعرفهما بى.

وكأن القدر يأبى ألا أن يتم قصة الزواج الذى توقعته وتشاءمت منه، فأصل إلى هذا الفصل المروع منها، عندما رأيت سام يمشى متأبطا ذراع امرأة يتحدثان ويضحكان مغتبطين. وكنت فى ذلك الحين واقفة إلى النافذة أنتظره على عادتى كلما تأخر عن موعد مجيئه. ولما اقتربا عرفت فى المرأة جارتى الفاتنة الجمال التى تدعو نفسها «السيدة ووكر» بينما لم الاحظ أى «سيد ووكر» فى كل الجوار. وكانت تكبرنى سنا ولكنها رائعة الجمال، ساحرة الحديث وقد بدا عليها السرور وهى بجانب زوجى فزادها روعة ومرحا مما جعله يسترسل فى ملاطفتها كأن ليس له زوجة تزوجها على أساس الحب والثقة المتبادلة، فكرست حياتها لأجل إسعاده والعناية به.

وعندما دخل سام البيت هرعت من وراء ستار النافذة إلى المطبخ أتظاهر بأننى مشغولة لأخفى غضبى وتألمى ولكنى كنت أتحرك باضطراب ظاهر وأحرك الأوانى بشدة وعنف، فيتحطم بعضها دون أن أشعر أو أعى. فقد كنت فى حالة هياج، فى حالة جنون. لقد وصلت إلى نهاية المطاف من

Telegram: electronic_library

الحياة الزوجية التى توقعتها، إذ دخلت الأخرى فى هذه الحياة، فها هى حياتى مع جونى تتكرر الآن بحذافيرها، وغدا سألد الطفل الذى سيشغلنى عن زوجى وعشيقته ويذهب بجمالى وأناقتى فأفقد بذلك السلاح الذى أستطيع به اجتذاب سام إلىّ. نعم، سأفقد هذا السلاح منذ الآن وأنا حامل عندما يتضخم جسمى وتسوء صحتى. إذن، لن أبقى حاملا يجب أن يذهب هذا الجنين الذى سيفسد علىّ حياتى، يجب أن أجهض بأية وسيلة.

وأردت الذهاب إلى الطبيب لأجل هذه الغاية، فلم أجرؤ على ذلك، فعدت وتذكرت شخصا أعرفه يشتغل كاتبا فى دكان عطار، فذهبت إليه وهمست له برغبتى فى الإجهاض وأنا ارتجف اضطرابا، فوجم قليلا ثم أعطانى شيئا ملفوفا أوصانى أن أتناول منه دون إكثار. فأخذت هذا العقار أستعمله يوميا، ولكن لم أر منه فائدة. فاستولى على الجزع وشعرت بهذه المحاولة كأننى ضربت الحائط برأسى أبغى هدمه. فلم أنل سوى الألم والعذاب. وجن جنونى فقمت إلى العلاج يائسة مستميتة أبتلع منه كمية كبيرة علنى أحصل على الفائدة المرجوة. ولكن هذه الفعلة كادت أن توردنى حتفى. فقد شعرت أن رأسى يدور، وقواى تنهار، فجررت نفسى إلى فراشى حيث بقيت لا أستطيع حراكا إلى أن جاء سام من عمله فوجدنى أشبه بالجثة جائعة باكية، يحاكى لونى وجوه الأموات. فصاح مرتاعا: ما بك يا روبى، سأدعو لك الطبيب. فقلت بوهن لا، لا أنه مجرد سوء هضم وسيزول من نفسه، ولكن أرجو أن تطعم جيمى ريثما أنام قليلا.

ولما استفقت من نومى الثقيل وجدت سام وأمه واقفين بجانب سريرى باهتين قلقى النظرات. وكنت أشعر أن حالتى أسوأ مما كانت. فقالت الأم: أننى لم أرك قبل الآن فى مثل هذه الحالة يا روبى، ماذا فعلت بنفسك؟. أنك تبدين مخيفة. فأجبت بصوتى المرتجف الواهن: لا شئ يا أمى. إن

Telegram: electronic_library

سام يضخم الأخبار أحيانا فالأمر لا يستحق أن تأتى من بيتك إلىّ، ولن يستمر مرضى أكثر من يوم واحد، وغدا سأشفى..

ولكن بدا عليها أنها لم تقتنع بكلامى فرأيتها تحدق فى وجهى بشدة ثم تنبسط ملامحها وتنير وجهها بسمة خفيفة وتقول بغبطة: «أظن أننى حزرت المسألة، أنك حامل أليس كذلك؟».

وجعلت أنفى كلامها بشدة، ولكن سرعان ما انتابتنى حالة عصبية غريبة، فأحسست بأن جسمى يحترق تارة ويبرد تارة أخرى، ثم دفنت وجهى بالوسائد وجعلت أبكى بحرقة وتقدم سام منى يحنو علىّ ويطوقنى بذراعيه هامسا فى أذنى عبارات الحب محاولا تهدئتى، ولكنى دفعته عنى بشدة ورحت أبكى وأصيح كالمجنونة مما جعله يسدى إلى أحسن خدمة ارتحت إليها، هى إرجاع أمه إلى بيتها. ولما أغلق الباب وراءها عاد إلىّ يتأملنى فى هدوء. وكنت ساعتئذ أرتجف تحت وطأة المرض تجيش نفسى بغثيان الوحام وتتملكنى قشعريرة قاسية، بينما كانت قطرات العرق تملأ وجهى.

وقال بهدوء: لماذا لم تقبلى أن أحضر الطبيب؟. فلم أجب فاردف بنفس اللهجة الهادئة الوجلة: أهو طفل؟. فأومأت بالإيجاب. فقال: ولكن الحمل لا يسبب هذا المرض المخيف للنساء.

قال هذا وجذبنى من كتفى بيديه الاثنتين، وجعل يتفرس فى وجهى بحدة، ثم دفعنى على السرير وكان وجهه مربدا مخيفا وقال بلهجة قاسية: هل عملت على التحرر من الجنين؟. أخبرينى الحقيقة يا روبى هل حاولت التخلص منه؟.

ولأول مرة فى تاريخ زواجنا أحسست بالخوف من زوجى ورأيت نفسى أجهش بالبكاء فيهتز جسمى فى نشيج مسموع ورأيت زوجى وقد فهم الحقيقة يشيح بوجهه عنى بسرعة كأننى صفعته ثم يمشى إلى النافذة بحركة عصبية ويقف إليها يحدق فى الفضاء بصمت..

Telegram: electronic_library

ثم بعد برهة رأيته يتحول عن النافذة بهدوء ويجلس إلى جانبى هامسا: روبى!. لقد فهمت كل شئ.

فى تلك اللحظة شعرت أن تلك الكلمات رغم هدوئها قد نزلت علىّ كضرب السياط وتمنيت لو أنه صاح بى وضربنى لكان ذلك أهون علىّ من تلك اللهجة الهادئة التى تخفى وراءها نيران الغضب والثورة.

وأردف سام: لقد تزوجتك بدافع الحب يا روبى، وكنت أظن أنك تبادلينني هذا الشعور أو ستستطيعين ذلك فى المستقبل عندما تتعلمين كيف تحبين.

وشعرت أن هذه الكلمات قد وقعت على نفسى كضرب المطارق، ورأيتنى أقفز من بين وسائدى وأصيح كيف تسمح لنفسك أن تقول ذلك وأنت تعلم أننى وهبتك كل قلبى. أتنكر هذا يا سام، أم أنك تتناساه؟.

فهز سام رأسه بألم وقال: انك تعرفين أن تتكلمى فقط عن الحب يا روبى. أما الحب بشكله العملى، الحب الذى تتطلبه حياة العائلة والزواج فهذا مما لا تعرفين عنه شيئا. أنك لا تعرفين أن تعطى أكثر مما تأخذين ولا أن تتنازلى عن أنانيتك الفاضحة، ولقد عرفت ذلك فيك متأخرا يا روبى، إذ كنت آمل منذ زواجى بك أن تستيقظ فى قلبك هذه العاطفة ولكنى أيقنت الآن بأنها لن تستيقظ ولن تستطيعى أن تخلقيها فى قلبك المتحجر، وأنت لا تعرفين أن تعطيها حتى لابنك جيمى، وحتى لهذا الجنين الذى تريدين أن تقتليه قبل أن يبصر النور.

فأحسست بأنى أتحطم تحت وقع هذه الكلمات، وأننى لم أعد أحتمل كلمة واحدة، وشعرت بأننى أريد أن أنهى هذه الحياة الأليمة مع سام، أننى أريد أن أعلنها ثورة تصفى حسابى معه، وتظهر له حقيقة موقفه المخادع من زواجنا، وموقفى الذى أتحمل فيه ألوان العذاب بصمت وقنوط. فصرخت قائلة. لا أريد أن تعطينى هذه النصائح المغرضة، أن غضبك هذا ليس لفقدان عاطفة الحب من قلبى، ولكنك غاضب لأننى لم أشأ أن أكون

Telegram: electronic_library

عبدة لك شأن كل زوجة أفنى شخصى فى شخصك. وأكرس حياتى للحمل والولادة، لأعطيك طفلا فى كل سنة فأبقى أبدا مريضة مشوهة بشعة، منهمكة بتربية الأطفال ورعايتهم ليتوافر لك العذر دائما للابتعاد عنى ومطاردة المرأة الجميلة الخالية من عدة أطفال، أطفال يتعلقون بأذيالها.

فقاطعنى سام صائحا بلهجة خائفة: اصمتى.. اصمتى ولا تتكلمى مثل هذا..

ولكنى لم أستطع أن أكف لحظة عن كلام، فقد كنت ثائرة مندفعة، يتدفق الكلام من فمى وأتمنى لو أنه قنابل أرمى بها هذا الزوج الغادر الذى يخوننى فى الخفاء ويدمر حياتى ثم يطلب منى الحب والطاعة. واسترسلت فى الصياح والثورة فتكلمت أشياء وأشياء، تكلمت داخل موضع الخصام وخارجه، ورميت زوجى بشتائم وألفاظ واتهامات كلها من بضاعة قريتى مما لم أقله له طوال حياتى معه.

وأرتفع صوت زوجى صارخا ينهال علىّ بكلمات التهديد والوعيد إن لم أصمت. فداخلنى الخوف وشعرت بحدتى تبرد، فصمت.

ثم رأيته يدفع كرسيه بعنف ويقف منتصبا أمامى، وقد تقلص وجهه، وتطاير شرر الغضب من عينيه وقال: إذا كانت هذه هى نظرتك إلى الحياة الزوجية والأمومة، وهذا هو اعتبارك لهذه المقدسات إذن فلم يبق شئ يربطنى بك يا روبى..

فصحت جازعة: سام لا تتركنى.. لا تتركنى..

فقال: حالما تستطيعين السفر سأرسلك إلى أهلك وهم سيعنون بك ريثما تشفين، فإنى لست مجنونا حتى أعيش معك وأنت فى هذه الطباع اذهبى إلى بيت أسرتى وكونى مطمئنة إلى أننى سأرسل إليك كل ما تحتاجين من المال ريثما تلدين، وبعد ذلك سأسعى إلى الطلاق.

Telegram: electronic_library

وشعرت أنى تحطمت تحت وقع هذه الكلمات فلقد عرفت ماذا يعنى بكلمة أسرتى لقد عنى فيها بيت إخوتى وقريتى وليست عمتى سوسان وزوجها ديف، لقد عنى بلدى تينيسى. معسكر المناجم. إخوتى وأخواتى. حياة الشقاء والبؤس والهوان. واقشعر بدنى ورحت أصيح نائحة: ارحمنى بربك، ارحمنى يا سام، ولا ترسلنى إلى قريتى. أتوسل إليك.

فقال بصوت بارد كالثلج: لماذا؟.. هل تكرهين بلدك؟.. هل تكرهين أهلك؟.. أتكرهين أصدقاءك وعشيرتك هناك؟. هلا تشعرين بأية عاطفة نحو أى إنسان يا روبى؟..

فصحت باكية: إنك تسترسل فى اتهامى دون هوادة وأنت لا تعرف الأسباب، إنك لا تعرف حياتى فى تلك التى تسميها بلدى ذلك الجحيم المخيف الذى هربت منه إلى هذه المدينة، استنجد بخدمة الفندق، فأراها نعيما لم أكن أحلم به بالنسبة لتلك الحياة، أنك لا تعرف حياتى فى ذلك الجحيم الذى تعمه الفوضى والبؤس والمرض والجهل والقذارة، فنعيش فيه وكأننا لا نمت إلى العائلة الإنسانية بصلة. وأنك لا تعرف حياتى مع تلك التى تسميها أسرتى. هذه الأسرة التى لا أتذكر أننى أكلت مرة عندها واكتفيت من الطعام، أو أننى لبست ثوبا غير بال وانتعلت حذاء إلا فيما ندر أو أنه مر على يوم دون أن أذوق الضرب المبرح من أبوى لأجل أتفه الأخطاء، ثم من إخوتى من بعدهما.

وحاول سام مقاطعتى، ولكن الكلام كان يتدفق من فمى كالسيل الجارف، أصف له شقائى فى بلدتى تلك، وأبين الحياة فيها فأخبرته عن الموت بالجملة هناك، وعن رخص الأرواح أمام فتك البؤس والقذارة والمرض وخاصة مرض «ذات الرئة» المستوطن هناك، ووصفت له صراعنا المر فى محاربة الجوع، والطفولة الرازحة تحت أعباء الحياة فى جهادها لتحصيل العيش وأخبرته أيضا عن الفسق هناك والخيانة والغضب والغدر وعن المصانعة والمراءاة فى

Telegram: electronic_library

الدين. حدثته عن كل ذلك بقلب يحترق لوعة وأسى وقلت له: أتعرف أين كان زوجى الأول عندما ولدت ابنى جيمى، وأنا وحيدة فى كوخنا الحقير، وليس حولى من يساعدنى؟. ثم بكيت وأردفت: لقد كان فى كوخ آخر مع امرأة أخرى أجمل منى، لأنها ليست مبتلاة بالحمل والولادة مثلى. ولم يكن زوجى فى ذلك شاذا عن بقية رجال القرية. فقد كان كأى رجل آخر، كان مثل أبى الذى لقب بذى الزوجتين، ومثل إخوتى وجيرانى ومثل كل الرجال حتى أنت يا سام.

فصاح سام وقد أمسك بكتفى: لا.. لا يا روبى

فجاهدت حتى أتخلص من بين يديه فلم استطع. فقال بصوت هادئ: رويدك يا روبى، أحب أن أحدثك بشئ مهم. لماذا لم تخبرينى عن كل هذا قبل الآن؟. فقلت لأننى كنت أريد أن أنسى أو اتناسى هذا العار الذى يخجلنى أن أظهره للناس.

فصاح سام: ولكنك لم تفعلى شيئا من هذا، فقد جعلت ماضيك البشع ذاك قسما من حياتك هذه، وجزءا لا يتجزأ من طباعك ونفسيتك. فإنك تعيشين بقلب ملؤه الشك فى الحياة بكل إنسان حتى أصدقائك وأقربائك، ولذلك أنت لا تؤمنين بقداسة الزواج باتهامك أياى أنا زوجك بالخيانة، كما أنك لا تثقين بصدق الحب الذى ربطنى بك برباط الزوجية ولا عجب فى ذلك وأنت لم تعرفى شيئا عن هذا النوع من الحب فى حياتك الماضية، ولا عن قداسة الزواج وسعادة الطمأنينة واعلمى يا روبى أننى لست كرجال عائلتك وأهل بلدك، ولكن هو الشك. نعم الشك بكل شئ وبكل إنسان، المتأصل فى نفسك هو الذى جعلك ترتابين بى وتتهمين إخلاصى. وأن نظرتك هذه المتشائمة إلى الحياة، والمنبعثة من أعماق ماضيك المظلم، هى التى موهت الأشياء أمامك وجعلتك سجينة نفسك الشقية التاعسة فيجب أن تطمئنى يا روبى وتثقى بى، فإن كل مخاوفك ليست إلا ظلال لحياتك الماضية التى كان يجب أن تخبرينى عنها بحذافيرها.

Telegram: electronic_library

فدمدمت: أنها ذكريات كانت قد دفنت منى فى الأعماق ولولاك لما نبشتها الآن.

فقال سام: أنها بدفنها هذا قد تحولت إلى سم فى داخلك أفسد عليك حياتك، ألا تقرين بذلك معى يا روبى؟.

وأدركت فى تلك اللحظة فقط أن سام على حق فى كل ما قال، ولكنى كنت متأخرة فى ذلك الإدراك.. آه.. ولكن لا، فقد شعرت بأننى لم أكن متأخرة عندما طوقنى سام بذراعيه وهمس فى أذنى برقة: روبى الآن عرف كل منا كثيرا عن صاحبه ويجب أن نعرف فى المستقبل أكثر.

فوضعت رأسى على كتفه، وقد أسكرتنى هذه السعادة المفاجئة ثم همست بجذل: سام، لقد وضحت لى حقيقتك الآن ولم أكن لأعرفها من قبل، وعرفت من شخصيتك فقط أن الحياة تحفل بأشياء سامية ومثل عليا تستحق أن يعيش من أجلها الإنسان، وعرفت أيضا يا سام لأول مرة أن النفس البشرية تحفل بميزات وصفات ترفعها عن مستوى الحيوان وعن طبقة سكان معسكر المناجم التعساء، نعم يا سام، أعطنى فرصة لأبرهن لك على أنى فهمتك فأخلص لك وأحبك حبا لم تحبه امرأة زوجها من قبل، ولا برهن لك أيضا على أننى فهمت الحياة، فأكون أما مثالية لجيمى ولطفلنا الذى سيبصر النور بعد شهور.

فضمنى سام إلى صدره وتلمس شعرى بلطف قائلا: إنى واثق من أنك ستفعلين كل هذا وأعدك بأنى سأكون لك خير مساعد لتحقيقه.

وجعلنا ذلك اليوم السعيد تاريخ عيد زواجنا وميلاد سعادتنا، نحتفل به كل سنة، وقد ملأت رأسى فكرة هى لو أننى كنت نجحت فى محاولة الإجهاض وضيعت ذلك الجنين، لما حصلت لى تلك الفرصة التى تفاهمت فيها مع سام فتجددت سعادتى، واطمأنت نفسى وأشرقت حياتى.

■■■

Telegram: electronic_library

ابنة الملك

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

1

لم تشعر «تشيترا» - ابنة ملك البلاد - يوما بأنها أنثى، حتى التقت بالمحارب البطل «ارجونا» الذى أيقظ فى أعماقها أحاسيس غريبة عليها، فإذا هى تقع فى هواه، وتكره رجولتها وترتد إلى الأنوثة تحاول أن تبهره بها. ولكنه لا يكترث لها، بعد إذ نذر نفسه للآلهة.

وفى غمرة حيرتها، تلتقى «تشيترا» فى الغابة باثنين من الآلهة: «مادانا» إله الحب، الذى يعرفها بنفسه قائلا: «أنا المولود الأول فى صميم قلب الخالق الأعظم. أسعد حياة الرجال والنساء، أو أربطهم بروابط الألم».

أما زميله فيقدم نفسه إليها قائلا: «أنا فاسانتا، ملك الفصول والحياة. إن الموت والذبول يحومان حول العالم حتى الفناء، ولكنى لا أفتأ أتعقبهما وأطردهما. إننى الشباب الدائم» .

وتعرفهما «تشيترا» بنفسها، ذاكرة كيف وعد الإله «شيفا» بأن يمنح كل ملك من أسرتها ابنا واحدا يكون دائما من الذكور، ليرث الملك ويتولى السلطان، ولكن.. «ولكن الكلمة الإلهية لم تغير اتجاه شرارة الحياة الكامنة فى رحم أمى. فجئت فى صورة امرأة، وإن كانت لى طبيعة الفتيان الأشداء. وهذا هو السبب الذى جعلنى أرتدى زى الرجال، وأعيش جاهلة

Telegram: electronic_library

بكافة حيل النساء لكسب قلوب المحبين. فإن يدى اعتادتا حمل القوس، ولكنى لم أتعلم فن «كيوبيد» فى الرماية، حين يسلط السهام من عينيه»

مادانا: وهل هذا يحتاج إلى علم أو دراسة؟.. إن العين تفعل فعلها بغير تعليم، والمحب يعرف من الذى أصابه بسهمه.

«تشيترا»: أذكر أننى كنت أتجول يوما فى الغابة وحدى، حتى بلغت شاطئ نهر بورنا، فنزلت عن جوادى وسحبته بين فرجه فى الغابة. وإذا بى أجدنى فجأة أمام رجل اضطجع على حشية من الحشائش والأوراق المتساقطة، فكان بوضعه ذاك يعترض طريقى. ونهرته، آمرة إياه أن يتنحى ولكنه لم يحرك ساكنا، فغمزته فى تحد بسن قوسى، وإذا هو يقفز منتصبا بأطرافه الضخمة كلسان من لهب ينبعث على حين غرة من كومه من الرماد. ولعبت ابتسامة ساخرة على جوانب فمه، لعل مرجعها إلى مظهر الفتيان الذى رآنى عليه. إذ ذاك شعرت لأول مرة فى حياتى بأننى امرأة، وبأن أمامى رجلا.

وكان ذلك الرجل هو «أرجونا» البطل الذى طالما أعجبت به الفتاة دون أن تراه. وتمضى «تشيترا» فى حديثها للإلهين: «ورحت أسائل نفسى: أهذا حقا أرجونا، فارس أحلامى العظيم؟. أجل.. ولقد سمعت منذ زمن كيف نذر للآلهة اثنتى عشرة سنة من عمره يقضيها فى عزوبة. ولكم تمنيت منذ صغرى أن أمتشق حربتى وأنازله، حتى أبرهن له على مهارتى. ولكن، أواه يا قلبى الساذج المسكين. أين ذهبت خفقاتك؟. أو استطيع أن أعود إلى بداية عمرى، فأبدل من نهجى، وأخرج عن تنكرى ومكابرتى، وأنزل عن كل حقوقى وأبهتى، لألثم الثرى تحت قدميه، طلبا لرضاه؟.

«... وعندما أفقت من دوامة خيالى وتفكيرى، كان هو قد غاب عن ناظرى.. يا لى من امرأة غبية. ما استطعت حتى أن أحييه. ولا أن أناشده الصفح عما بدر منى.

Telegram: electronic_library

وفى الصباح التالى، بادرت فنحيت عنى ثياب الرجال، وأحطت معصمى وقدمى بالأساور، وزينت أذنى بقرطين ولففت حزاما حول خصرى وارتديت ثوبا موشى بالخرز الأحمر. وكان هذا الملبس الذى لم أعتده يريدنى حياء، ويصبغ وجنتى بحمرة الخجل»

وراحت «تشيترا» تبحث عن أرجونا حتى عثرت عليه فى معبد الإله «شيفا» فى جوف الغابة. ولم تقو - لفرط حيائها - على النطق. بينما صارحها أرجونا بما كان من نذره للآلهة. وإذ ذاك عادت الفتاة إلى القصر، فكسرت قوسها، وألقت بسهامها فى النار.

ثم تمضى قائلة للإلهين: «منذ تلك اللحظة كرهت قوتى، وذراعى المفتولين، وزهدت شكل وتر القوس. أيها الحب. ألست أنت الذى بث فى طبيعتى الترابية الفانية، هذه الكبرياء الجوفاء، والزهو بالقوة المماثلة لقوة الرجل؟. ها قد صار كل من رآنى هباء عند قدميك. ألا لقنتنى فنونك. امنحنى القوة التى تنبعث من الضعف الأنثوى الفتاك، وسطوة السلاح السحرى الذى تلوح به اليد الناعمة وهى عزلاء»

مادانا: سآتيك بالبطل أرجونا - الذى يقهر العالم - أسيرا مهزوما أمامك لينال من يديك جزاء تمرده.

ولكنها لا تريده مهزوما، فتقول: «إننى أسعى - فى مظهر الفتيان - لأقف إلى جانبه كصديق حميم: أقود الجياد الجامحة التى تجر مركبته الحربية، وأدبر له فرص الاستمتاع بالمطاردة والقنص، وأقف فى الليل بباب خيمته أحرسها، وأعاونه فى جميع المهام العظيمة التى ينهض بها، فانتصف للضعيف، وأنشر العدل.. لو أننى فعلت هذا، فلابد أن يأتى الوقت الذى يلتفت فيه «أرجونا» إلىّ ويناجى نفسه مأخوذا: «أى فتى

Telegram: electronic_library

هذا؟». لست أنا المرأة التى تجتر هموما فى الوحدة القاتلة، ترويها بالدمع المنهمر فى الليل. ولكن هذا ـ للأسف ـ عمل طويل، وبرنامج يستنفد العمر كله. لذلك جئت إلى بابك يا إله الحب القاهر، وإليك أيها المولى «فاسانتا» ـ إله الفصول والشباب الدائم ـ لتخلصا جسدى الصغير من قسمته غير العادلة التى قدرت له، ومن حظه الضئيل من الجمال والجاذبية. اجعلانى آية من آيات الجمال ليوم واحد، وسأتولى بنفسى أمور ما بعد ذلك من أيام».

ويهبها الإلهان ما تطلب.. «لا ليوم واحد لا غناء فيه، بل لعام كامل، تبدين خلاله فى ربيع دائم».

■■■

Telegram: electronic_library

2

ويحقق الإلهان وعدهما، فتظهر «تشيترا» لأرجونا فى الغابة، فى صورة امرأة مكتملة الحسن والبهاء. وفى معبد «شيفا» يركع أرجونا أمام الإله يناجيه ويبثه لوعته:

أرجونا: لقد خيل إلى أن قلب الأرض قد رقص طربا تحت قدميها العاريتين. بل خيل إلى أن الغلائل الرقيقة التى تحتضن جسدها المرمرى، تكاد تذوب فى الهواء لفرط النشوة، كما يذوب ضباب الفجر الذهبى فى دفء الخيوط الوضاءة المنسابة من المشرق. وانحنت حوريتى تحدق فى مرآة البحيرة اللامعة فرأت هالة وجهها. ثم نصبت قامتها الفارعة، ووقفت ساكنة. وما لبثت أن.. أن ابتسمت. أأقول ابتسمت؟.. لم لا أقول افتر ثغر القمر؟. ومدت ذراعها اليسرى - فى غير اكتراث - فأرسلت شعرها، وتركته ينساب إلى الأرض عند قدميها. ثم كشفت عن جيدها وتأملت ذراعيها وتناسقهما البديع. وأحنت رأسها تتأمل شبابها المتفجر حيوية وجاذبية وجسمها البض الذى يشبه زهرة ريانة يانعة فبدت جذلانة تتألق بالفتنة، وتزهو بالجمال. ثم غابت عن عينى كأمسية حلوة غيبها الليل فى أطوائه الكثيفة. إن الواقعة كلها - يتراءى لى - ليست إلا وهما، أو حلما من أحلام اليقظة، صوره لى الخيال أو هى وقدة الرغبة تمثلت فى صورة طيف أو حسناء من دم ولحم. ثم ذابت وتلاشت.

Telegram: electronic_library

وتدخل «تشيترا» المعبد فى ثياب النساء فترحب به بزعم أنها من كاهنات المعبد متجاهلة أنها كانت تعرفه، لتستدرجه إلى حبها وتسأله كيف تكرمه، فيقول:

أرجونا: إن اكتحال العينين بمرآك هو فى الواقع أقصى حدود الضيافة والكرم. ترى أى نذر هذا الذى يحسبك فى هذا المعبد المنعزل، فيحرم الناس جميعا من اجتلاء هذا الجمال الرائع؟.

تشيترا: إننى أطوى بين جوانحى أمنية لا أبوح بها، وأنا أرفع كل يوم دعواتى للإله «شيفا» عسى أن يحققها لى.

أرجونا: عجبا!. ما الذى يمكن أن تتمنيه على الإله وأنت أمنية العالم أجمع لقد حملتنى قدماى من أقصى قمم الشرق حيث تمد شمس الصباح قدميها الفاتنتين إلى أقصى بقعة تغرب عندها الشمس وصادفت كل ما فى الكون من نفيس وجميل فهاك خبرتى وخدمتى رهن إشارتك يكفى أن تذكرى لى عما تبحثين أو عمن تسألين.

تشيترا: إن من أبحث عنه معروف للجميع إنه سليل أعرق البيوت الملكية إنه بطل يعلو على جميع الأبطال.

أرجونا: لا تجودى يا سيدتى بمثل هذا الجمال النادر الذى تنفردين به من أجل إشاعة زائفة لا تستند إلى الحقيقة. إن الشهرة الزائفة تنتقل من لسان إلى لسان كضباب الفجر الذى يغشى الكون قبل أن تبدده إشراقة الشمس.

ويلحف عليها فلا تلبث أن تصارحه فى تخابث بأن الحبيب الذى تنشده هو «أرجونا الذى أخضع الدنيا. ولقد التقتت هذا الاسم الخالد من أفواه الجميع الحاشد وأخفيته فى فؤادى الأنثوى بحرص» فيصارحه بدوره بأنه هو «أرجونا الضيف الذى يطلب زاد الحب عند بابك!.».

Telegram: electronic_library

تشيترا: إذن.. فليس صحيحا أن «أرجونا» قطع على نفسه عهدا بأن يظل أعزب مدى اثنتى عشرة سنة

أرجونا: ولكنك حللتنى الآن من هذا العهد كما يحل القمر الليل من أن تألفه الظلمة بأستارها الكثيفة الثقيلة.

تشيترا: يا للعار!.. ماذا رأيت فى حتى أصبحت تغالط نفسك؟. عمن تبحث وراء هاتين العينين السوداويين وهاتين الذراعين البيضاويين كاللبن حتى تقدم لى الثمن على حساب عهدك الذى قطعته على نفسك. ليس هذا لشخصى ذاته فيما أعتقد، ويقينا ليس هذا هو الحب ولا يمكن أن يكون هذا هو الإخلاص الحقيقى من الرجل للمرأة.

وا أسفاه!!.. إن هذا المظهر الخارجى. هذا الهيكل قد يضلل الإنسان فلا يستطيع أن يرى الضوء المنبعث من الروح الخالد!. لقد أدركت الآن يا أرجونا أن شهرتك وبطولتك وعظمتك ليس سوى مظاهر زائفة.

أرجونا: إننى لا أعلم كم هى عبث هذه الشهرة؟. هذه البطولة المتشامخة. كل شئ يبدو لى الآن كحلم. أنت وحدك الحقيقة. أنت غاية كل مطلوب. ونهاية كل جهد. أنت المرأة الوحيدة فى هذه الدنيا.

وتشتد الحسرة بشيترا إذ ترى أنه فتن بالجمال الموقوف الذى خلعه عليها الإله ليمكنها من اجتذاب أرجونا. ولكن مقاومتها لا تلبث أن تفتر، فهى تناجى نفسها قائلة: «هل أظل أواجه منه هذه النظرات الحائرة وهل أظل أشعر بقلبه قلقا يحاول أن يحطم الضلوع ويجهر بالرغبة المتقدة التى يخفيها فى أعناقه، ثم أنحيه عنى مع ذلك؟. لا، لا يمكن»

وإذ ترى الإله مادانا تهتف به: «أواه، يا إله الحب!. أى لهيب مروع هذا الذى نفخته فى. إننى أحترق. وأحرق كل ما ألمسه»

Telegram: electronic_library

وتروى له كيف التقت بحبيبها أرجونا ثم تقول «إن حياتى الماضية بل تاريخ وجودى كله قبل اليوم غدا فى طيات النسيان، لم أعد أحس بغير شعور الزهرة الحالمة التى تطل على الدنيا بعينى جمالها وليس لها سوى سويعات تصفى فيها إلى مناجاة الثناء والإطراء. وتمتمات الإعجاب، قبل أن تخفض عينيها وتهبط من عليائها، وتحنى رأسها فوق صدرها، ثم تسلم أنفاسها الأخيرة، وتتهالك فى التراب لتستسلم للعدم بلا صراخ ولا ضوضاء» . وتذكر أنها كانت مستلقية على الحشائش - فى الغابة - وقد غشيتها إغفاءة... «وفجأة، أحسست بنظرة مشبوبة، كأنها أصابع من لهب تمس جسمى، فاستيقظت. وإذا بى أرى ذاك الناسك واقفا أمامى. وكان القمر قد انحدر نحو الغرب، وتسللت خيوطه بين أوراق الشجر، لتسهد هذه الطلعة المهيبة، الباهرة التى تتمثل فى شكل إنسان. وخيل إلىّ أننى قد مت، وأن كل معالم الحياة قد ماتت معى، وتحولت إلى حلم ولد لتوه فى أرض عجيبة تلفها الظلال. وهتف: «يا حبيبتى الغالية» . فاستجمعت حياتى فى أنفاسى المبهورة، واندفعت ملبية النداء. ومددت ذراعى نحوه. وأخفى القمر وجهه خلف الأشجار فتوارى كل شئ فى كنف الظلام وامتزجت السماء والأرض والزمان والمكان، والسرور والألم، والموت والحياة. امتزجت كلها فى نشوة لا يحيط بها الوصف» .

وعندما استيقظت فى الصباح، تذكرت كل شئ، فنأت عنه، وحاولت أن تبكى.. ولكن الدموع استعصت عليها.

وهتف إله الحب: «مسكينة أنت، يا ابنة الفناء.. إننى سرقت لك من المخزن الإلهى خمر السماء المعتقة، فأترعت منها ليلة من لياليك على الأرض وأسلمتك إياها لتشربى. فإذا بك، مع ذلك تصرخين وتجأرين بالشكوى»

Telegram: electronic_library

تشيترا «فى مرارة »: إنما قدمت لى الظل دون الأصل. السراب لا الشراب. إنما لوحت لى ببداية الحب، وطرحتنى فى أتونه. أما الحب ذاته فقد طار من قبضتى.. هذا الجمال المستعار الذى خلعته علىّ سيذهب عنى، ويأخذ معه الذكرى الوحيدة لهذا اللقاء السعيد. ولقد تبينت - حين استيقظت فى الصباح - أن جسمى هو غريمى الأول. فمن أبغض الأمور إلى نفسى أن أحمل هذه الصورة كل يوم وأقدمها لحبيبى. وأن أراه يقبل شكلى دون نفسى. ألا أسترد هبتك أيها الإله».

ولكن الإله يذكرها بأن من القسوة أن يسترد الجمال الذى خلعه عليها، فيحرم حبيبها من الكأس ولما يكد يتذوق منها أولى قطرات السعادة. وهنا يتدخل الإله «فاسانتا» وينصح «تشيترا» بأن تتريث إلى أن يحين الخريف. «حين ينقضى فصل الأزهار، ويأتى دور جنى الثمار وينتصر اللباب على القشور فلسوف يحين الوقت الذى يذبل فيه ما للجسم من زهرات يانعة فيسر أرجونا عندما يرى الثمار الحقيقية، التى تبدين بها إذ ذاك».

■■■

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

3

ويدعوها أرجونا إلى الزواج.. إلى أن تشاطره بيتا واحدا، فتقول: «البيت؟.. ولكن هذا الحب ليس مكانه البيت.. خذ إلى البيت ما هو دائم، ثابت، قوى، ودع الزهرة البرية الصغيرة حيث ولدت!.. دعها فى ثوب جمالها، تواجه مصيرها، وتموت فى نهاية الأيام بين سائر البراعم الذابلة والأوراق الجافة.. حسبك أن تأخذ بحظ مما يتاح لك. أغنم وأنعم واغترف منه حتى ينفد.. ولكن، لا تسل لماذا نفد، ولا تأس لأنه انتهى. خذ من ليلتك كفايتك للصباح فى غير اتخام، ويكفى أن تتزود فى يومك بالزاد الذى لا يفطن عن حاجتك، حتى لا ينتابك الخوف أو الندم أو الجشع وحتى لا تفسد سعادة الحاضر وهناءة الساعة التى أنت فيها. حبيبى!... دع المخاوف والأفكار تغرق فى لقاء عارم بين شفاهنا الظمأى»

على أن الحيرة لا تلبث أن تستبد بأرجونا. إن حبه يوشك أن يشغله عن واجباته، كمحارب وناسك. وهو فى غمرة السرور يتلفت بحثا عن شئ يضمن له بقاء الحب والنشوة، فلا يجد. ويعود إلى الإلحاح على «تشيترا» لتقبل الزواج منه، لأنه والقلق يحتوى نفسه لا يرى الأمان إلا فى البيت. فتسأله: «ولم هذا القلق؟.. هل انقضت ساعات السرور التى تجل عن الوصف؟» .. فيقول: «إنما يخيل إلىّ دائما أننى أكاد أفقدك. قلبى غير

Telegram: electronic_library

مطمئن، وعقلى لا يعرف السلام.. أحيطى نفسك بالسياج الذى يحمل الاسم والبيت والأهل. هبينى شيئا أتشبث به. شيئا يمكن أن يدوم أكثر مما يدوم السرور العارض، ويقوى على البقاء تحت ضغط المتاعب والتجارب».

ولكنها تتهرب من الزواج، خشية أن يزول جمالها المستعار فى نهاية العام فتقول له: «إن العام لم يبلغ نهايته بعد، مع ذلك فإنى أرى أنك بدأت تشكو.. هل أدركت الآن أن حكمة السماء هى التى اقتضت أن يكون عمر الزهور قصيرا!.. أن أيام الحب معدودة، فلا تدخرها، وإنما اعصر الجنى، وأجمع الشهد فى أوانه، فإن المخاوف لن تدع قلبك يطمئن أو يهدأ».

وتحين الليلة الأخيرة فى عمر منحة الإلهين.. الليلة الأخيرة فى عمر الجمال، فتتوسل «تشيترا» إلى «مادانا» و «فاسانتا» قائلة: «عندما تأتى الساعة الأخيرة، فى هذه الليلة، فاجعلا جمالى يبدو فى أبهى صورة كما يبدو الشعاع فى آخر خفقاته!»

■■■

Telegram: electronic_library

4

وفى تلك الأثناء، تتعرض البلاد لنذر إغارة اللصوص من المرتفعات الشمالية، فيدب الذعر فى القلوب. ويسأل أرجونا القوم الخائفين: «أليس لديكم فى هذه المملكة حارس يحميها؟». ويواتيه الجواب بأن الأميرة «تشيترا» كانت تلقى الذعر فى قلب كل من يفكر فى العدوان ولكنها غابت عن المملكة فى سياحة، فيقول: «أتريدون أن تقولوا أن حارس المملكة.. امرأة؟».. فيقولون: «أجل.. هى أبونا وأمنا»

وما أن ينصرفوا، حتى تقبل «تشيترا» فيقول لها أرجونا: «ترى أى نوع من النساء يمكن أن تكونه تلك الأميرة تشيترا؟».. وتجيب بأنها ليست جميلة ولكنها ببراعتها تستطيع أن تصيب أى هدف، عدا قلب البطل «ارجونا» فيقول لها: «كأنى بقلبها يحمل رقة الأنوثة، رغم أنها كأشجع الرجال فى الجرأة والبطولة» فتقول: «وهذا سر شقائها!.. إن المرأة حين تكون مجرد امرأة. حين تتطلق على سجيتها الأنثوية تكون سعيدة. ماذا يجدى المرأة أن تكون على درجة عظيمة من العلم أو على قمة الانتصارات والمغانم فى ميدان الحرب والفروسية؟» لو انك رأيت «تشيترا» وهى فى ساحة معبد الإله «شيفا» أمس، لمررت بها مستنكفا أن تعيرها أتفه التفاتة. ولكن، نبئنى.. هل زهدت جمال المرأة الماثلة أمامك، فأخذت تتطلع إلى ما فى تلك المرأة الأخرى من رجولة؟».

Telegram: electronic_library

وتحاول أن تجتذبه إلى جلسة غرامية فى الغابة ولكنه يعتذر متعللا بقرب هجوم اللصوص فتطمئنه إلى أن «تشيترا» قد بثت رجالها لحراسة الحدود ولكن أرجنا يصر على الذهاب للقتال، فتصيح: «أذهب، إذن.. أذهب ما دمت تشعر أنك قد ارتويت وفاضت بك الكأس. أما إذا لم تكن قد بلغت هذا الحد، فاذكر أن ربة السرور سريعة الغضب».

وإذا تتبين أن قلقه يرجع إلى أنه يفكر فى «تشيترا» تقول له: «وما الذى أوتيته تلك التعسة؟.. إن ميزاتها بالذات أشبه بجدران السجن، تحبس قلبها الأنثوى فى زنزانه خاوية من الحسن، إنها محرومة من الجمال وما أشبهها بروح صباح كئيب، تقتعد ذروة جبل صخرى، وقد غامت السحب الداكنة فحجبت عنها كل ضياء. ولا تسل عن سيرة حياتها فهى ليست مما يطيب لأذن رجل» ولكنه يقول مشوقا إلى أن يعرف عنها كل شئ: «إننى كالمسافر الذى وصل إلى مدينة غريبة عنه، فى منتصف ذات ليلة، فإذا القباب، والأبراج، والأشجار فى الحدائق تبدو للعين باهتة. وخرير مياه البحر يتناهى إلى أذنيه خلال السكينة التى ترافق النعاس وكأنه أنين مبهم. فلا جرم إذا أخذ هذا الغريب يتطلع إلى انبلاج الصبح بصبر نافد ليتكشف أمام عينيه كل شئ. اواه.. هلا حدثتنى عن أمرها؟. لشد ما يخيل لى أننى أراها.. أبصرها بعين الخيال، على صهوة جواد أبيض، تمسك العنان بيسراها والقوس المظفر بيمناها، وتمضى - كربة النصر - تهب كل من حولها أسعد الأمانى.. ذراعاها جميلتان، لا أنهما تزدانان بالحلى وإنما لأنهما تفيضان بالقوة».

ثم ينسى نفسه، فيروح يناجى «تشيترا» البطلة الساحرة. وإذ ذاك تقول له «تشيترا» الماثلة أمامه فى جمالها المستعار: «أصدقنى القول يا أرجونا.. هل تحتمل المفاجأة إذ أنا استطعت أن أنفض عن جسمى بمعجزة ما هذه

Telegram: electronic_library

الفتنة الرقيقة؟. وإذا أنا وقفت أمامك شامخة قوية مطهرة من الضعف النسوى، فهل أروق فى عينى البطل؟».

وتتوزعه الحيرة فيقول: «أخال أننى لا أعرفك على حقيقتك. لكأنى بك ربة تتخفى وراء صورة ذهبية. فمن خلال نظراتك العميقة الحزينة، وكلماتك الحافلة بمختلف المعانى، والزاخرة بالسخرية، ألمح بصيصا يكشف عن محاولة مترددة لإفشاء سر النعمة العظيمة التى يرفل فيها جسدك هذا وللكشف عن نار مطهرة من الألم تشتعل خلف ستر رقيق من البسمات. إن التخيل هو أول مظاهر الحقيقة. فإن الحقيقة تسعى إلى حبيبها متنكرة، ثم لا يلبث أن يأتى الوقت الذى تتخلى فيه عن زخرفها، فتقف مسربلة بالكرامة والجلالة المجردين. لكم أشقى فى اقتناصك أيتها الحقيقة العارية» .. ويجزع أرجونا عندما يراها تدفن وجهها فى راحتيها باكية، فيأخذ فى التسرية عنها.

■■■

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

5

ولكن ساعة استرداد الآلهة منحتها لا تلبث أن تحين. وتقف «تشيترا» أمام أرجونا متدثرة فى عباءة، فتقول له: «هل نضب المعين إلى آخر قطرة فيه؟.. أهذه هى النهاية حقا؟.. لا، بل سيبقى أمر جوهرى هو القربان الأخير الذى أضعه عند قدميك. لقد أحضرت من رياض الفردوس زهرات رائعة الجمال، لا نظير لها، لأقدمها قربانا أتقرب به إليك يا إله قلبى، فإذا كنت قد أتممت شعائرى. وإذا كانت زهراتى قد ذبلت، فدعنى أقذف بها بعيدا» .. وتخلع العباءة عنها، فتتكشف فى صورتها الحقيقية وزيها القديم، وتقول: «انظر!.. لست جميلة كالزهرات التى كنت أقدمها فى تعبدى لك.. إن نصيبى من العيوب والدمامة كبير. إننى رحالة فى طريق طويل لا حدود له: ثيابى قذرة، وقدماى تدميهما الأشواك، فكيف أستطيع أن أحتفظ بجمال الزهرة النظيفة، اليانعة؟.. إن المنحة التى أحملها إليك - مزهوة - هى: «قلب امرأة» .. هنا، فى هذا القلب تتجمع كل الأفراح وكل الآلام، وكل الآمال وكل المخاوف وكل الخجل والحياة اللذين يخامران فتاة خلقت من تراب.. هنا يهب الحب مناضلا فى سبيل حياة باقية خالدة.. هنا تكمن الصورة الحقيقية للإنسان الحقيقى. صورة قد تكون ناقصة ولكنها نبيلة، رائعة، لأنها صادقة.. وإذا كان نفع الزهرة قد انتهى، فتقبل يا

Telegram: electronic_library

سيدى هذا الإنسان الماثل أمامك خادما لك على مدى الأيام.. أنا «تشيترا» .. لقد منحتنى الآلهة أعظم فتنة تتاح لفتاة من بنى البشر، لعام واحد، فأثقلت قلب بطلى بهذا المظهر الخادع. أما الآن، فلم أعد تلك المرأة.. أنا «تشيترا» . لست ربة تعبد، ولست أيضا شيئا يرثى له، وينحى جانبا فى غير احتفال كفضلات المائدة. فإذا سمحت لى بأن أشاركك حمل الأعباء الجسام التى تواجهك فى حياتك فلن تلبث أن تعرفنى على حقيقتى. أما إذا نأيت عنى لواجباتك، وجاء الجنين الذى أحس به فى أحشائى ذكرا فسأعلمه بنفسى وأدربه حتى أجعل منه أرجونا آخر، ثم أرسله إليك إذا آن الأوان. وإذا ذاك، ستعرفننى فى النهاية على حقيقتى. أما اليوم، فكل ما أملك أن أقدمه إليك، هو «تشيترا» ابنة الملك!»

ويندفع إليها أرجونا هاتفا: «يا حبيبتى!.. لقد اكتملت حياتى» .. وبينما يتعانق الحبيبان، تسدل الستار.

ربندرات تاغور

■■■

Telegram: electronic_library

اعتـرافات
خاطئة

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

نشأت وأخى «بن» فى قرية صغيرة فى مقاطعة «لويزيانا» لا نعرف من الحياة إلا وجهها العابس، وقد خيم علينا الفقر المدقع والشقاء والحرمان.

وكان أبى ضخم الجثة، فظ الطبع، قاسى القلب، زادت معاملته لنا حياتنا مرارة وشقاء، وكان صياد سمك كسولا يأبى الاشتغال بغير هذه المهنة التى لا تسد رمقنا فنبيت كثيرا من ليالينا على الطوى عندما يقف حظه أو حظنا، فتأبى شبكته أن ترق لحالنا وتنتشل لنا طعامنا من أعماق نهر «واليتا» ولى نعمتنا. وعندما كان يساعده الحظ أحيانا، كان يبيع ما يفيض عن طعامنا ليشترى بثمنه دقيقا تصنع لنا أمى من أكياسه ثيابا تستر أجسادنا العارية.

وكانت أمى الحكيمة الحنون بلسم العزاء لنا فى حياتنا التاعسة هذه فخلقت من ضعفها قوة، وجعلت من نفسها ترسا يقينا ضربات الدهر وعبوس الأيام. فإنها بعنايتها قد صنعت من كوخنا الحقير الذى كنا نعيش فيه مسكنا نظيفا رغم أرضه الترابية المليئة بالحفر، وحمتنا بتدبيرها من الأمطار التى كانت تهطل علينا من سقفه فى أيام الشتاء، كأنه لا سقف يظللنا، ثم سترت عرينا فصنعت لنا من تلك الأكياس الفارغة لباسا يغطى أجسادنا، كما صنعت لنفسها حذاء من مطاط عجلات السيارات إذ إنها لا

Telegram: electronic_library

تملك ما يقى قدميها قسوة الأرض، ولا أقدامنا الصغيرة الغضة التى بقيت عارية طوال أيام طفولتنا تقريبا.

استبسلت أمى الطيبة الرقيقة فى تخفيف كابوس الفقر عنا، فكانت بطلة رغم ضعفها وضآلة جسمها، فقد خلقت فيها عاطفة الأمومة قوة الجبابرة، فراحت تذيب روحها لتدفئ قلبينا بالحب، وهى ترى نفسها عاجزة عن أن تكسو عظامنا لحما.

ولم نستطع دخول المدرسة إلا وأخى «بن» فى التاسعة من عمره وأنا فى السادسة عندما جهدت أمى فى اقتصاد الدريهمات التى تكفى لنفقات الكتب والدفاتر ومع ما كان فى المدرسة من فقراء فقد كنا أفقر التلاميذ مظهرا وأردأهم طعاما. وكانت المدرسة بالنسبة إلى كالكابوس الثقيل لا يغرينى فيها إلا ركوبى فى الزورق كل يوم إليها فى نهر واليتا الذى أحبه والذى هو ألمع ذكريات طفولتى المشوشة. وأما أخى «بن» فقد كان مغرما جدا باللعب والركض، حتى أننى كثيرا ما خلقت الأكاذيب على أمى إنقاذه من عقابها عندما تجده ممزقا ثيابه. ولم اشعر بالندم على تلك الأكاذيب رغم كثرتها لشدة حبى لأخى العزيز.

بقينا على هذه الحال سنتين، عندما حدث ذلك الشئ الذى زاد الطين بلة فى فقرنا وتعاستنا. فقد جاء إلى مدينة «هافربورج» التى يفصلنا عنها نهر واليتا فرقة من الواعظين وضربوا خيامهم فى ضاحية المدينة فتقاطر عليهم الناس من القرى المجاورة ليسمعوا مواعظ الأخ «هول» ومرؤوسيه الثلاثين كاهنا.

ولم أكن وأخى «بن» قد دخلنا الكنيسة من قبل، رغم أن أمى كانت من روادها الدائمين قبل زواجها بأبى. وقد كانت معلوماتى الدينية التى عرفتها من إنجيلنا القديم، الذى كانت أمى تقرأه علينا كثيرا، كانت كافية لأن تجعلنى أعتقد بأن الله صديقى الرءوف ورفيقى الدائم.

Telegram: electronic_library

وأصر أبى أن نذهب لحضور جلسات هؤلاء المبشرين، فذهبنا نستقل القارب ولبست أحسن ثيابى وهو ثوب أحبه، لأنه يميل إلى الحمرة صنع من كيس طحين جديد. وهو الثوب الملون الوحيد الذى أملك. ولبست أمى ثوبها البالى وحذاءها المصنوع من مطاط السيارات وكان «بن» وأبى يلبسان ثيابهما النظيفة. ولكن رائحة السمك كانت ما تزال تنبعث من ثياب أبى.

كنت أجلس فى الزورق صامتة فى مواجهة أمى، مما جعلنى أفكر فى هذه الأم البائسة وأتساءل: بماذا تفكر الآن وهى فى حياتها الشقية هذه؟. هل هى راضية بحالها، أم أنها لا تزال تتحسر على أيامها فى بيت أبيها الذى يعد رغم فقره غنيا بالنسبة لأبينا هذا المعدم الفقير؟. وفكرت أيضا بماذا تحس وهى تعيش مع هذا الزوج الفظ الطبع القاسى القلب، بعد حياتها مع والديها اللذين يذوبان رقة وحنانا.

ووجدنا الخيمة ممتلئة بالناس، وكلهم صامت. وقد ألقى مصباح الغاز عليهم نوره الضئيل فكسا المنظر كآبة، لا تزال فى أعماق ذاكرتى حتى الآن. وبدأ الناس بالصلاة فركعوا خاشعين، النساء فى جانب، والرجال فى جانب آخر وتصاعدت أصواتهم باكية تمجد الخالق العظيم وتتوسل فى طلب العفو والغفران لخطاياهم.

وأحسست بالكآبة تضغط نفسى، وأنا أسمع هذه الأصوات الباكية الحزينة تتعالى فى هدوء، واعترتنى رعشة الخوف، وشعرت بأن اعتقادى بالله قد تغير، فبدا لى كأنه الديان المخيف الذى يجلس فى السماء فى صمت الصخر الأصم وقسوته يحاسبنى على كل هفوة وكل ذنب ولم أعد أراه ذلك الصديق اللطيف الذى يحبنى ولا يطلب منى إلا أن أبادله الحب فقط.

Telegram: electronic_library

ورأيت لون وجه أبى يختنق لفرط التأثر، وهو يصلى باكيا يطلب المغفرة، وملامحه تتقلص وأنفاسه تضطرب وتثقل كأن على صدره كابوسا فارتعت، وخيل إلىّ أن عقاب الله المنتظر قد تجسم فى حالة أبى هذه.

وبعد الصلاة بدأ الأخ «هول» بوعظه وكان هذا أشد وقعا على نفسى من الصلاة، فراح يتحدث عن الخطايا، ويحذر من الشيطان، ويعد بنار جهنم وبئس المصير، ثم صاح بصوت حاد: اندموا على خطاياكم قبل أن تموتوا. فارتعت ورحت أرتجف من الخوف، وبدا لى أن كل ما فعلته فى حياتى هو خطايا وذنوب، وأن مصيرى حتما إلى جهنم.

ثم راح الكهنة يرتلون وصاح الأخ هول: تعالوا وأكبوا على وجوهكم فى المذبح لتواجهوا خالقكم.

وكدت أفقد صوابى عندما وجدت نفسى فجأة أمام الذين أكبوا على وجوههم، وهم يبكون ويصيحون نادمين على خطاياهم ولعل أخى «بن» لاحظ شدة اضطرابى هذا، فهمس لى بشدة أن أحتفظ بهدوئى، فضممت يدى المرتجفتين إلى حجرى وقد علقت عيناى بهما وأنا خائفة مرتاعة.

ولم أصدق عينى عندما رأيت جلسة الوعظ قد انتهت وأسرعنا فى طريق العودة نستقل الزورق فى ضوء القمر الذى لم يستطع نوره هذا الذى كان يعانق صفحة نهر «واليتا» الحبيب إلى نفسى أن يهدئ من اضطرابى وكآبتى. فقد كان منظر ذلك الاجتماع الدينى أبدا أمام عينى، وكانت كلمات الأخ «هول» لا تزال ترن فى أذنى وهو يدعونى بالخاطئة ويعدنى بعذاب النار.

وقضيت الليل أرقة مضطربة. وكنت أسمع أبى يصلى طوال الليل وكذلك أخى «بن» لم ينم أيضا وراح يهمس لى أنه لا يحب الأخ «هول» ولا

Telegram: electronic_library

طريقته بالوعظ، فلم أجبه لأننى كنت حزينة النفس خائفة مضطربة تماما كالذبابة فى شرك العنكبوت.

وازداد حزنى وخوفى واضطرابى بعد تلك الليلة لأن أبى صار يجبرنا أن نكرر الزيارة كل ليلة، لنصلى ونسمع مواعظ الأخ «هول» مما زاد شعورى بالذنب وجعلنى أعتقد أننى أكثر الناس إثما فأحس بالخجل والعار. وكنا نبدو أنا وأخى «بن» دائما صامتين مرتجفين ناقمين على أبى الذى يجبرنا على الحضور.

وخلال المدة التى أقامتها هذه الفرقة الدينية للوعظ والإرشاد كان أبى قد وقع تحت تأثيرها وغرق فيه حتى عمى عن كل شئ عداه، فترك مهنته التى كانت تسد رمقنا وتفرغ لقراءة الكتاب المقدس مرارا وتكرارا كل يوم تاركا إيانا بدون طعام تحت رحمة القدر.

وعبثا رجوناه أن يعود إلى صيد السمك وحالتنا تسوء يوما بعد يوم، حتى كادت تنفد آخر حبة دقيق عندنا. فجعلنا نقتصد بها، وتركنا المدرسة ورحنا نبكى جائعين. ولكن حالتنا هذه لم تحرك فى أبى عاطفة الشفقة فاستمر فى تصاممه عن سماع توسلاتنا، رافضا أن يفعل أى شئ غير الصلاة وقراءة الكتاب المقدس، والتردد على خيمة الأخ «هول» كل ليلة مجبرا إيانا على الذهاب معه.

وذات يوم، نفدت آخر لقمة فى بيتنا فنفد صبر أمى لهذه الحال وبلغ بها الألم حدا لم تستطع احتماله. وهى ترى ولديهما يتضوران جوعا أمام عينيها، بينما زوجها يقضى لياليه ساهرا يصلى ويصرف نهاره نائما أو طائفا فى الحقول، يصلى ويقرأ الكتاب المقدس. فجلست إليه تقنعه وتتوسل باكية بأن يشفق على طفليه ويرجع إلى مهنة الصيد لئلا يموتا جوعا.

Telegram: electronic_library

وكنت أعتقد أن هذه الطريقة ستنجح مع أبى. فعقدت عليها الآمال الكبار ولكن سرعان ما رأيت أبى يقاطع أمى بنظرة غضب صاعقة جمدتها فى مكانها وراح يهدد ويتوعد إذا عادت إلى هذا الموضوع بعد ثم أردف مرعدا بأن الله أمره أن يكون من المبشرين بدين الإنجيل، وأننا نحن العائق له عن الاستجابة لهذه الدعوة وعن أداء فرائض دينه على الوجه الأكمل. ثم بعد هذا رأيته يرفع يده الكبيرة ويهوى بها على وجه أمى بصفعة جعلتها تقع على موقد النار. فهرعت أرتمى عليها صائحة مرتاعة وهجم أخى «بن» على أبى يضربه ويرفسه كالمجنون ولكن أبى صفعه صفعة أخرى جعلته يتدحرج على الأرض ثم تركنا وخرج.

وكدت أفقد شعورى وأنا أرى وجه «بن» المدمى ودموع أمى المنهمرة فأحسست بالكره الشديد لأبى. نعم كرهت هذا الأب القاسى حتى الموت لأول مرة فى حياتى.

وعاد بعد ساعة برقته الزائفة وصلاحه المصطنع ليتابع صلاته وقراءة الكتاب المقدس.

وبتنا تلك الليلة على الطوى، وذهب أبى وحده إلى خيمة الأخ «هول» وحلمت أنا تلك الليلة بأن وجه أبى هو وجه الله فاستيقظت خائفة حزينة وتأكدت بهذا أننى مخطئة، وأن عمل أبى معنا أمس كان عقاب الله الحق.

كانت هذه الليلة آخر ليلة قضيناها فى كوخنا إذ أن أبى نفسه كرس نفسه للوعظ والإرشاد. وأرادنا أن نرافقه فى جولاته التبشيرية فرحنا نطوف الشوارع وراءه فى جولات أشبه بالتسول. كان أخى فيها يعزف القيثار، وأنا وأمى نرتل، بينما أبى يعظ ويرشد، ثم أتولى أنا الطواف على الناس بقبعة لجمع تلك الدريهمات القليلة التى كنا نسد بها رمقنا.

Telegram: electronic_library

مشينا ومشينا مجاهدين فى سبيل هذه اللقمة، فذقنا حرارة شمس الصيف، كما قرس أجسامنا برد الشتاء. وطفنا كالفجر فى بلدان متعددة ودخلنا بيوتا شتى ورأينا أناسا من كل طبقة فذقنا من المر أمره، حتى بدونا فى منتهى الزراية والقذارة والتعاسة، هياكل قذرة من العظام لا تستر أجسامنا إلا خرق بالية هكذا أرادنا أبى أن نكون، لأن كل رأس ماله هو هذه المحبة الزائفة لله، وهذا الإخلاص المصطنع، هذه العقيدة الجامحة الخرقاء التى عصفت باستقرارنا عصفا.

وزادت هذه الحياة على مر الأيام والشهور من خشونة طبع أبى وضيق أناته فزاد عذابنا معه، كما زاد كرهنا له. وتجسم هذا الكره الشامل فى أخى «بن» الذى صار يشعر بمرارة الذل وهو يعزف القيثار مستجديا الأكف وثار وتمرد ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا أمام غضب أبى وقسوته فرضخ مكرها وجمدت أنا خوفا ألوذ بأمى، هذه الأم الكبيرة القلب الضئيلة الجسم، التى صرت أحبها كالعبادة.

واستمرت بنا الأيام والسنون ونحن على هذه الحالة التاعسة نجوع أكثر مما نشبع، ونتعب أكثر مما نستريح ونقاسى مرارة الحر والبرد فى هذه المهنة التى شاء أبى أن نمتهنها، أما الدراسة فقد اختفت من حياتنا تقريبا، إلا مدرسة دينية شاء أبى أن نتردد إليها أنا وأخى ست مرات فى السنة.

ويشاء القدر أن يبتسم لنا بعد طول عبوس، فيرضى أبى أن نذهب لزيارة جدى أمى فى مدينة هافر بورج فنذوق هناك لذة الشبع وسعادة الراحة والدفء والحرية والطمأنينة.

عرفنا عند جدى الطيب الحنون وجه الحياة الحلو، ولم نكن نعرفه مرة من قبل وتوارينا عن شقائنا ذاك وتوارى عنا فاستسلمنا لمرح الصبا، غير مصدقين أننا تحررنا من ظلم أبى ومن مهنة الوعظ والإرشاد.

Telegram: electronic_library

سرحنا فى أحضان الطبيعة نتنزه مرحين وسبحنا فى نهر «واليتا» الحبيب إلى وساعدنا جدى فى حقله مختارين مسرورين.

قضينا بضعة شهور فى بيت جدى ونحن على هذه الحالة وكان «بن» قد بلغ الخامسة عشرة من عمره، فاستطاع جدى خلال هذه الشهور أن يدبر له عملا يدر عليه أجرا محترما فمكننا ذلك من الاستغناء عن مهنة أبى تلك فى الوعظ والتبشير.

وسكنا لأول مرة فى حياتنا فى بيت صالح للسكن ويستحق أن يسمى بيتا. ولم نصدق أعيننا ونحن نرى مصابيحه الكهربائية وأنابيب المياه الممتدة فيه. وكذلك طرنا فرحا ونحن نلبس ثيابنا الجميلة التى اقتصدنا كثيرا لتوفير أثمانها من راتب أخى المتواضع. ثم دخلنا مدرسة ليلية مختصرة للأميين نستعيد ما كنا تعلمناه فى طفولتنا وذهب فى طيات حياتنا تلك التاعسة.

مضت ثلاث سنوات كان «بن» خلالها قد بدأ يهتم للفتيات كما كنت أنا قد بدأت أسترعى اهتمام الشباب، الأمر الذى فتح لأبى بابا جديدا فى شكاسة الأخلاق فجعل يلصق بى كل تهمة قذرة تحت الشمس، مما أفهم معناه ومما لم أسمع به كل حياتى ولا أفقه له معنى. ولكنى كنت أعرف أن الكل سواء فى القذارة فازداد كرهى له. ومع هذا كنت أحاسب نفسى دائما على كرهى لأبى وأعده خطيئة لا تغتفر.

وكنت لا أزال من رواد الكنيسة تدفعنى قوة الإيمان إلى الارتماء على المذبح أبكى خطاياى راجية العفو والغفران. ولكنى كنت أشعر فى قرارة نفسى بأن كل محاولاتى هذه لن تجعل الله يغفر لى خطيئة كرهى لأبى.

وحلت سنة ١٩٤١ والعالم يئن تحت كابوس الحرب عندما بدأت أمى القوية الصبور تتقهقر أمام مرض ألزمها الفراش فتقهقر بذلك صفاؤنا وراحتنا. وتركت المدرسة خصيصا لأعنى بها ليل نهار، وبشئون البيت

Telegram: electronic_library

أيضا. وزاد فى مرضها خشونة طبع أبى شراسته مما جعل صحتها تزداد سواء ونفسها ألما وشقاء وكانت نقطة العزاء الوحيدة فى حياتها هى افتخارها بأخى «بن» الذى كان يتحدى أبى دائما فى شجاره معها وقذفها بذلك السيل المعتاد من الإهانات والشتائم التى ضاقت أمى ذرعا بها.

واستمرت بى الحال على هذه الصورة وحياتى بين المد والجزر إلى أن تعرفت «بلسلى» الجميل الذى أحبنى وبادلته الحب، فكانت هذه العاطفة أول قوة غزت قلبى وأول نور أشرق فى نفسى يضمد جراح حياتى الدامية.

كان «لسلى هيكوك» صديق أخى العزيز وعندما رأيته لأول مرة شعرت بأن عينيه الزرقاوين تدفئان مشاعرى وأن شعره الأشقر قد أضاء فى ظلمات حياتى.

كان «لسلى» نبيلا مؤدبا وعلى شئ من الخجل وكانت نضارة وجهه ساحرة جذابة وهو يرتع فى سنيه العشرين. وكان أبى يحجر على الخروج فى موعد مع أى شاب، فحصرنا مواعيدنا فى حديقة منزلنا التى شهدت فصول حبنا البرئ ومرحنا الطاهر.

وعندما فاتحنى «لسلى» بحبه كنا نتأرجح سويا فى حديقتنا تحت ضوء القمر فشعرت بأننى فى نشوة غامرة وبأن نفسى قد طغت على الكون بإشراقها حتى أفعمته بأنوار وردية وشعرت وأنا مغمورة بحب «لسلى» بأننى آوى إلى حصن أمين يقينى عواصف حياتى الثائرة.

وحلت سنة ١٩٤٢ عندما تزوجت لسلى وكنت فى السادسة عشرة من عمرى. ورغم أنه شق على فراق أمى وأنا فى هذه السن المبكرة فقد كنت أرى منتهى السعادة فى هذا العش الصغير الذى ضمنى ولسلى زوجى الحبيب.

Telegram: electronic_library

ومضت علينا خمسة شهور سعيدة شاء القدر الغاشم بعدها أن يُبعد لسلى عنى ليتابع فصول مأساة حياتى دون هوادة. لقد طلب لسلى إلى الجندية ككل شاب أمريكى فى ذلك الحين وانتقل إلى معسكره البعيد كما جند أخى أيضا فصار لزاما علىّ أن أنتقل إلى بيت أبى لأرفه عن أمى التى ظلت بدون معين أمام ثورات أبى وشراسته.

عدت إلى حياة الشقاء مع أم مريضة، وأب فظ الطبع فأظلمت نفسى كما أدمى قلبى فراق لسلى الحبيب حتى كادت صحتى تنهار لولا أهل زوجى اللطفاء الذين تداركونى بالترفيه عنى وتسليتى بشتى أسباب المرح والسرور.

وكان طيف لسلى لا يفارق خيالى لحظة وذكريات زواجنا تملك على كل إحساساتى فتفعمها بألم لذيذ ولذة أليمة فى بعادى هذا عن زوجى.

واشتد بى الشوق إليه، إلى وجهه الجميل، إلى حبه العنيف، إلى أيام زواجنا السعيدة فكدت أجن ولكنى جاهدت فى تهدئة نفسى بالسفر لزيارته بعد أن اقتصدت أجرة الطريق مما يخصص لى من راتبه. وسافرت إلى حيث يقوم معسكره مع كثير من أهالى الجنود وزوجاتهم اللواتى صرت أحبهن لاتحادنا فى الشعور. وشعرت وأنا أسافر وحدى هذا السفر البعيد للمرة الأولى فى حياتى، بأننى أكبر مما أنا وأنضج عقلا فجلست رزينة جدية المظهر لا أكلم أحدا ولا أنظر إلى أحد، ولكنى كنت نافدة الصبر. والسيارة تمشى بهذا البطء الشديد لامتلاء الطرق بالثلوج وكنت أشعر بأن كل ساعة تمر علىّ كأنها سنة كاملة.

وكم كان ألمى عظيما عندما وصلت ليلا ولم أستطع أن أرى لسلى، لأنه كان يؤدى واجبه فى الحراسة فتركت له أسمى وعنوان الفندق الذى نزلت فيه، وقضيت تلك الليلة كأننى تحت كابوس ثقيل.

Telegram: electronic_library

وفى الصباح كاد يغمى علىّ فرحا وأنا اراه يطل علىّ بطلعته الحبيبة وبزته العسكرية التى زادته جمالا وفتنة.

وقضينا معا أياما سعيدة أشعرتنى بالأمان الذى لا أشعر به إلا إلى جانبه. واستيقظنا من نشوة السعادة على نفاد دراهمنا القليلة فأظلمت نفسى وأنا أتصور وحشتى القاسية فى بعدى عنه. ولكن لم يكن لى مفر من حزم أمتعتى واستعددت للعودة من نفس ذلك الطريق الطويل الذى أتيت منه وودعنى لسلى وانصرف إلى معسكره وهو يلح علىّ بأن أسافر فى الحال إلى بيت أبى رأسا.

ولكن القدر الذى يحرص كل الحرص على إتمام مأساتى المروعة هيأ لى أن أجتمع بجارتى «بولا» قبل سفرى بساعات.. هذه المرأة التى أخرت سفرى لتقلب حياتى رأسا على عقب. قالت: لا تسافرى اليوم يا سيليا ودعينى أعرفك على زوجى ونتناول العشاء سويا هذه الليلة وغدا تسافرين. وكنت قد أنست بحديثها وأحببت أن أمكن صداقتى معها فأطعتها رغم برقية لسلى التى جاءت تنبئنى بأنه مسافر لأجل مناورات ستقوم بها فرقته وأنه يريدنى أن أسافر حالا إلى بلدى. نعم أطعتها ولو كنت أعرف ماذا سيحدث لى تلك الليلة لفضلت ألف مرة أن أسافر على أن أبقى مع تلك الشيطانة «بولا»

وقبل العشاء بقليل راحت تطوف فى الشوارع زاعمة أنها تريد الترفيه عنى. وكانت المدينة زاخرة بالجنود الذين يفتشون عن المرأة التى تتسيهم خشونة الحياة العسكرية وقسوتها. ولاحظت أن بولا تنظر إلى كل جندى بشكل لا يدعو إلى الاحترام وبدأت أتعرف إلى تحرش الجنود بالصفير وعواء الذئب وكلمات الغزل التى كانوا يوجهونها إلى بولا علنا وجهرا

Telegram: electronic_library

فأحسست بأن وجهى يحترق خجلا وارتكبت وتمنيت أن تفارقنى تلك اللعينة بولا.

ثم رأيتها تستجيب إلى مغازلة جندى فتبتسم له وسرعان ما رأيت ثلاثة جنود يتبعوننا فذبت خجلا ورحت أرتجف خائفة مضطربة وتمنيت أن أركض إلى الفندق ركضا، واقفل على نفسى الباب حتى الصباح وليتنى كنت فعلت ذلك إذن لنجوت من «دان» الذى دخل حياتى فى تلك اللحظة.

كان «دان بوروس» بطل تمثيليتى التى دبرها القدر وكان النجم الذى حلق فى أفق حياتى فبعث فيها النور والظلام، الدفء والبرودة، الحلاوة والمرارة.

لحقنى دان وأمسك بيدى، ثم وقف أمامى بقامته المديدة يرنو إلىّ بعينيه اللتين شابهتا شعره الحالك السواد يتفجر وجهه الخمرى بالفتنة والحيوية ويتدفق جسمه الرائع بالرجولة والقوة والنشاط. وقف دان حيالى فذهلت وعلق نظرى به لا أستطيع رفعه عنه. وأحسست بأننى أسيرته: أسيرة فتنته الطاغية وسحره الذى لا يقاوم.

ومشى معى ونحن صامتان وكان يضغط يدى فأحسستها تحترق فى يده وكنت أحس بأننى بتصرفى هذا أرتكب المحرم وأننى فى طريق الخطيئة فشعرت بأن عينى قد تغشتا بالدموع. ورحت أقاوم عاطفتى بيأس ولكن دون جدوى.

وعطف على «دان» ينظر إلىّ بتأمل وقال فى هدوء: أنك ما زلت طفلة يا فتاتى ولكنك جميلة فتانة.

لا أستطيع أن أصف ذلك الشعور الذى اعترانى حينذاك وتضارب فى أعماقى. إنه شعور الافتتان بهذا الرجل يتحداه حبى للسلى وضميرى الذى جعل يؤنبنى بشدة.

Telegram: electronic_library

ثم أحسست فجأة بأن كل شعور بفظاظة الخطيئة يزول ويتلاشى أمام فتنة «دان» الطاغية التى لم أعد أحس إلا بها تملك على مشاعرى وكل إحساساتى.

وتعشينا سويا، دان وأنا وقد غادرتنا بولا مع جنديين واعدة بملاقاتنا فى الفندق. وأخبرنى دان عن اسمه وعن بلده «فرجينيا» حيث كان يشتغل فى مناجم الفحم قبل الجندية.

وبينما كان دان يتكلم كنت أحس بأن سحره يتزايد وأن فتنته لا تقاوم ومن خلال هذا الشعور رأيت ضميرى يعود إلى تأنيبى ويشعرنى بالخطيئة ولكن صوته خرس عندما لمس دان يدى برقة فتدفق دمى حارا يلهب جسمى.

وعدنا إلى الفندق ننتظر بولا فى غرفتها، وكان دان لا ينفك يرمقنى بنظرات الحب والافتتان وكنت دائما غريقة مشاعرى المتضاربة وأفكارى المضطربة أغالب رغبة الشر وأصارع الخطيئة فتصرعنى فتنة دان الطاغية.

وطال بنا الانتظار وبولا لم ترجع. وكان الليل قد انتصف عندما فرغ صبر دان وقام يطفئ النور.

فى تلك الليلة التى لا أنساها عرفت جلالة الأمانة وروعة الإخلاص بعد أن تواريا عنى. وأدركت فى تلك الليلة أيضا أن من الصعب جدا أن يشترك فى حفظهما اثنان.

وعرفت فى تلك الليلة أيضا أحاسيس شتى. عرفت شعور السعادة المتناهية كما عرفت عار الخيانة بأجلى معانيه. وطأطأت رأسى تحت ضربات تبكيت الضمير.

نعم لقد عرفت الحب مجبولا بالخطيئة، والسعادة مجبولة بالشقاء، وبكيت وأنا أودع ماضى الهادئ الشريف. ذكريات طفولتى البريئة فى

Telegram: electronic_library

الكنيسة وقرب نهر واليتا الجميل، وحياتى الساذجة مع أهلى. وصباى الطاهر مع لسلى وحبى الأول السعيد له، وتلك التعاليم الدينية التى تشربتها كل حياتى الماضية، وحرصت أمى أن تلقننى إياها دائما، كل ذلك قد ذهب ولم يعد لى حق التفكير فيه، وأنا الخاطئة التى عبثت بالشرف وأخللت بإحدى وصايا الله العشر..

وبكيت وأنا أرى ذلك الماضى يغادرنى متعاليا على خطيئتى مشمئزا من ذلى وعارى، بكيت وأنا أحس بتقريع الضمير يدمر كيانى.

وتبعت هذه الليلة ليال عديدة، ورأيت فيها كل شعور عندى يخبو ويتلاشى أمام حبى لدان، فقد كنت أسيرة هواه عاجزة كليلة أمام سحره وفتنته، وكنت أشعر أننى أعيش لأجله وأننى بامتلاكه ملكت شيئا عظيما لم أكن أحلم به من قبل.

ودعانى دان للانتقال إلى معسكر آخر فى مكان بعيد عن المدينة، وبدلا من أن أتركه وأقفل راجعة إلى بيتى وأهلى كما كان قد طلب منى لسلى، فقد رأيت نفسى أرافقه لأجسم جريمتى وأضخمها بتسجيلى نفسى معه كزوجته، لنعيش فى مسكن واحد. ولم أشعر بفظاعة جرمى هذا لأن مشاعرى التى مزقها العار وحطمتها الخطيئة لم تكن لتستطيع أن تستوعب أى شئ آخر غير حب دان وعبادة دان.

وعشت أسبوعا آخر مع دان، أتمرغ فى أوحال الخطيئة والإثم ناسية لسلى الطيب الحنون، وأمى التقية الصالحة، وبيتى الذى ضمنى نقية طاهرة.

عشت مع دان لا أشعر بأحد فى العالم سواه، وأحس بأننى لم أخلق إلا له. وإننى يجب أن أتبعه أينما ذهب، ناسية لسلى كأن لم يكن له وجود فى الحياة.

Telegram: electronic_library

واستفقت من نشوتى هذه على دعوة دان للانتقال مرة أخرى إلى مكان بعيد. وطلب منى أن أعود إلى بيتى ريثما يستقر فى مكانه الجديد ويستدعينى. نعم يجب أن أعود إلى بيتى، إلى بيت أبى مرة ثانية.

وشعرت بالجريمة تثقل كاهلى. وأنا أدخل ذلك البيت وأرى عائلة لسلى تهرع إلى فرحة هاتفة، تسألنى أخبار لسلى، أحسست بأننى خائنة ملوثة، أمام هؤلاء الأطهار. ومع هذا لم أتورع عن الكذب، فقد قلت لهم: إننى اشتغلت مدة أسبوع فى مقهى هناك، حتى جمعت ثمن تذكرة الرجوع. إنها كذبة كبيرة ولكنهم صدقونى.

وكانت أيامى التى قضيتها بينهم مخيفة تعسة، تجسم لى فيها عارى بخيانتى للسلى وجريمتى بخداعى لهؤلاء الناس الذين أحبهم بينما كان يدمر كيانى الشوق إلى دان. كنت أعيش وأنا حبيسة نفسى المظلمة التى مزقتها هذه الأحاسيس وأرهقها الشعور بالعار وعذبها الشوق إلى هذا العار.

تقلبت فى جحيمى هذا أياما كانت ثقيلة شاقة، وأنا فريسة هذا العذاب وأسيرة شوقى لدان. نعم لقد اشتقت إلى الخطيئة، إنا الخاطئة التعيسة الهالكة.

ورجع أخى «بن» إلى البيت فى أجازة. وبرؤيته كنت كأننى قد رأيت لسلى. ولما جعل يسألنى عنه بالتدقيق وأجيبه بإسهاب عادت صورته إلى خيالى من جديد، فاشتد شعورى بعارى وأحسست أن وطأته قد ثقلت على. وطغت على ضميرى حتى لم أعد أشعر بشئ عداها. ثم رأيت نفسى أرضخ وأستسلم لصوت قام فى داخلى أن أتركه وأن أنساه إلى الأبد وصممت على ذلك مخلصة صادقة.

Telegram: electronic_library

وتوالت على بيتنا أحداث مؤلمة سوداء كأن شقائى لم يكن كافيا لى. فماتت أم لسلى فجأة بنوبة قلبية، تبعها أبوه فى اليوم التالى، فمات تحت عجلات سيارة دهسته فى الطريق فخلا بعدهما بيتهما الكبير، إذ أن ابنتهما انتقلت إلى بيت عمتها لتعيش معها، كما أن ابنهما انخرط فى سلك الجيش.

ثم عاد لسلى أخيرا إلى البيت فى أجازة، فهرعت إليه يسبقنى قلبى الثاكل المعذب، الذى تاق إلى حياة الدعة والأمان فى كنفه، وارتميت بين ذراعيه أذرف الدمع السخين وألوذ به لأحس بهذا الأمان الذى لا أحس به إلا وأنا إلى جانبه، ولا يستطيع أحد أن يعطينى إياه غيره.

ومضى على شهر فى حياتى الجديدة مع لسلى. تتردد نفسى بين السعادة والشقاء. بين الملل والاستقرار. فقد كان حب لسلى الهادئ يشبع نفسى بالطمأنينة والأمان، ولكنه لم يكن يستطيع أن يروى تعطشها إلى ذلك الحب اللاهب، الذى كان يقدمه إلى دان.

وبدأ شوقى إلى دان يستيقظ من جديد هذا الشوق الطاغى المستعر الذى يحمل كل ما فى نظراته من قوة وحيوية وما فى حبه من جنون

وغالبت نفسى، جاهدت لأطهرها من شبح الخطيئة التى تتوق إليها. غالبت نفسى لأخلص الحب للسلى، هذا الزوج الهادئ الأمين الذى واجهت إخلاصه بالخيانة، وحبه بالغدر، فلم أستطع إلى ذلك سبيلا.

وكنت فى غمرة ذلك الصراع عندما توالت على حوادث شغلت جانبا من تفكيرى، واسترعت اهتمامى. فقد عدنا مع أبى وأمى إلى ديترويت للمرة الثانية. وهناك تزوج أخى «بن» من فتاة أحضرها إلى بيتنا فى زيارة قصيرة، ثم أخذها ليستقلا وحدهما. ثم بعد ذلك علق أبى بحب امرأة

Telegram: electronic_library

يظهر أنها أعادت إليه طيش الشباب، فلم يستطع مقاومة حبها فغرق فيه إلى أذنيه، وهجر أمى والبيت والكنيسة، وتبعها ليعيش معها فى بيت واحد. فأثرت هذه الصدمة فى أمى فمرضت مرضا شديدا، وتزعزع اعتقادها بالله وبالكنيسة لأول مرة فى حياتها ثم اشتد هزالها وضعفها، وكنت الازمها فى مرضها ليل نهار أشاركها آلامها وزفراتها.

ثم بعد ذلك سافر «لسلى» بأمر من رؤسائه إلى ما وراء البحار وجاءت أختاه «كارول وبيتى» لتعيشا معنا، فزاد بمجيئها تعبى فى شغل البيت بالإضافة إلى رعاية أمى المريضة، إذ كانت قد أدخلتهما المدرسة بقيت وحدى ليس لى من مساعد.

وفاجأنى الحظ بعمل إنقاذ إلى صدفة، يستغرق من وقتى قليلا، بينما يدر على موردا لا بأس به فجمعت منه ومن المال المخصص لى ولأختى لسلى من راتبه مبلغا كبيرا، واشتريت منه البيت الذى أعيش فيه الآن. وبعد ذلك تزوجت كارول كبرى الأختين. وبقيت وبيتى الصغرى وأمى نعيش وحدنا.

وانقضت على وأنا فى غمرة تلك الحوادث شهور، كانت مشحونة بالألم والعناء وبالقلق لأجل لسلى. وكان فيها أيضا شئ آخر يفتك فى كيانى، ألا وهو خيالى دان. نعم لقد كنت لا أنفك أتذكر دان وأتخيله، ولكن لم يكن هذه المرة خياله مقرونا بالرغبة الملتهبة والشوق الملح إلى الخطيئة، بل كان مفعما بالخجل والعار، وبالندم وتبكيت الضمير.

لقد أعادت إلى آلام الحياة ومتاعبها رشدى، فصرت أرى خيال دان الذى كان يراودنى فى الحلم واليقظة، صرت أراه جالبا لى كل تلك المعانى، وشيئا آخر أيضا كان يستقر فى أعماق نفسى فيرهقها، وهو الخوف من أن لا أستطيع مقاومة شيطان الإغراء إذا ما أرسل يدعونى إليه ثانيا.

Telegram: electronic_library

ورغم كل هذه الأحاسيس القاسية فقد كنت أنعم فى أعماق نفسى بقبس من الراحة والطمأنينة لبعد أبى عن البيت وتحررنا من غلاظة طبعه وجلافته. ولم اعرف قيمة هذا التحرر إلا عندما رأيته يعود إلينا فجأة، فى منتصف تلك الليلة الليلاء من سنة ١٩٤٥ ويقف بالباب هزيلا ناحلا كالخيال، برزت عظام رقبته بشكل مخيف، واتسعت ثيابه، فبدت تلوح فى الهواء كأنها معلقة على جسمه الهزيل الفارع.

ولم ندهش لمجيئه، إذ أننا كنا فى أعماق نفوسنا نتوقع هذه العودة، لأن حياة الإثم والرذيلة لا يمكن أن تدوم. ولكننا لم نكن ننتظر مطلقا أن يعود إلينا بهذا الشكل الغريب، ومن أين لنا أن نعرف أن تلك الحياة ستذهب بصحته الجبارة وتلك الضخامة الهائلة التى كان يزهو بها جسمه.

وعندما تكلم كان صوته واهنا، فقد كل قوته ولهجته الآمرة قال: خذونى إلى فراشى وقمنا جميعا على تمريضه. وكان أثناء مرضه واهنا ضعيفا لا يأمر بشئ ولا ينهى عن شئ، حتى إذا ما استعاد صحته وضخامة جسمه الهائلة ظهرت حقيقته أسوأ مما كانت فى كل أيامه السود معنا. لقد بدا قاسيا مخيفا لا يكتفى بالثورة وبشتمى وأمى ولعننا، بل إنه صار يضربنا ويحطم فى ثورته من الأوانى والأثاث، وصار أيضا يخيف أخت زوجى بيتى.

ثم حلت تلك اللحظة التى كنت أتوقعها بخوف ووجل، فجاءت رسالة دان تدعونى إليه، وتخبرنى بأن فرقته قد عسكرت فى «باركلى لوزيانا» التى كانت على بعد أقل من ثلاثين ميلا من المكان الذى يسكن فيه جدى وأخوالى. وفى نفس الوقت وصلتنى رسالة منهم يدعوننى إلى زيارتهم. فكانت رسالتهم هذه تسهيلا كبيرا لذهابى إلى دان خاصة وأنا أشعر بشوق

Telegram: electronic_library

إلى رؤية أهل أمى هؤلاء فلم أستطع أن أقاوم هذا الإغراء وهذه الجاذبية التى تشدنى نحو دان.

وفى اليوم الذى عزمت فيه على السفر أخذت رسالة أخرى من دان تتضمن مبلغ مائة دولار بعشر حوالات. ولما بدأت السفر إلى باركلى كان لا يزال ذلك الصوت يهتف فى أعماقى بأن لا أرى دان، ولكنى كنت حيال الصوت ضعيفة عاجزة، أسيرة لمشاعرى التى كانت تقودنى إلى دان وكنت أردد بقنوط عذرا أوحاه إلى شيطانى: أنى ذاهبة أرجع المال إلى دان، أريد أن أراه لأعيد له ماله لأننى لا أستطيع أن أخفيه عن أفراد العائلة.

ولم أر صعوبة فى الوصول إلى دان لأنه كان قد كتب إلى التعليمات كلها. وما أن رأيته.. ما أن وقع نظرى على دان، الذى طالما حلمت به وعذبنى الشوق إليه حتى رأيت كل صوت فى داخلى يختفى إلا صوت الخطيئة وكل شعور يغور إلا شعور الرغبة الشريرة الآثمة.

وعندما غادرنا معسكره معا إلى المدينة كان الشارع محتشدا بالناس، مما جعلنا نلتصق بعضا ببعض، فأحسست بسعادة غامرة وبأننى أرتجف فى تأثر عميق، مما دلنى على أنه من المستحيل أن أستطيع فراقه يوما من الأيام.

وفى الفندق تسجلنا كزوج وزوجة. وبينما كنا نكذب على كاتب الفندق، كنت أشعر بأن أعصابى تكاد تتحطم خوفا من أن لا يصدقنا كما شعرت أيضا بأن وجهى يلتهب خجلا كلما نظر إلىّ، ظانة أنه اكتشف إثمى وأننى قد وقعت فى الفضيحة.

ومكثت مع دان أسبوعين كاملين، شعرت فيهما بأننى أعيش فى فردوس شعرى، فى نعيم دافق، فى جنة زاهرة بحب دان.

ولكن، فى أعماق نفسى كان يستقر الجحيم.

Telegram: electronic_library

نعم، لقد كان يمزق نفسى الشعور بالإثم.. الشعور بالخطيئة.. الشعور بالعار..

كنت أعيش مع دان وأنا لا أدرى، أأبكى أم أضحك. وكنت إلى جانبه لا أعرف، أأقترب منه، أم أبتعد عنه؟!..

وكانت الأيام تكر على مسرعة. وأنا أتقلب فى هذه الأحاسيس يقسو على جحيمى فى النهار عندما يتوارى دان عن عينى بفتنته وإغرائه فاعتزم التوبة بالابتعاد عنه، وألوذ بالبكاء حينا وبالصلاة حينا آخر. ثم ما أن يحل الليل ويرجع إلى دان وأراه بسحره الآسر حتى أتلاشى بين ذراعيه فى شوق صاخب ورغبة جارفة.

واستمرت بى الأيام على هذه الحالة أعيش سكرى بنشوة السعادة، بينما أنا فريسة للشقاء.. أحاول الابتعاد عن دان بكل قوتى، وألتصق فيه بكل قوتى فأعيش معه وكأننا حجرا رحى فى قطب واحد ليس لأحدهما فرار من الآخر.

ولكن لو كنت أعلم ماذا يخبئ لى القدر لخلقت سبيل الفرار خلقا، ولابتعدت عن دان مهما كلفنى ذلك من غال وعزيز.

وكانت أمسية من أمسياتنا الجميلة التى كنا فيها نعود من المطعم ونحن نمشى طمعا فى اكتساب الوقت لنتمتع بهذا النوع الهادئ من اللذة فى ملامسة اليدين والمناجاة بالبسمات، قبل أن نصل إلى غرفتنا فى الفندق حيث يختفى كل شئ، ولا يبقى إلا لهيب حبنا المتأجج..

فى تلك الأمسية حدث ذلك الذى لم يكن بالحسبان ورأيته. وكان الوقت غروبا وكنا عائدين على عادتنا إلى الفندق، بعد أن تناولنا طعام العشاء فى المطعم. رأيت ذلك الرجل فى الشارع الممتد أمامنا آتيا نحونا وأحسست

Telegram: electronic_library

كأن شيئا يضغط قلبى كلما اقترب منا، ورحت أحملق فى هيكله راجية أن لا يتحقق ظنى. لقد بدا لى أنه أبى ولكنى لم أكن متأكدة من ذلك.. وحاولت أن أدور على عقبى وأولى هاربة ولكنى لم أستطع فقد شل الخوف أرادتى، وجعلنى أتابع سيرى بحركة آلية مقترية من ذلك الرجل الذى أتضح لى هيكله الضخم ووجهه الأحمر الكبير، فتأكدت وقد تملكتنى حمى طاغية أنه أبى.

ولم أعرف فى تلك اللحظة الرهيبة بالضبط وهو يمر بجانبى ماذا شعرت وماذا انتظرته أن يفعل، ولكن كل ما أعرفه أنه لم يفعل شيئا ولن يتكلم بكلمة ولكنه نظر إلى دان بحدة كأنه يريد أن يحفظ شكله وملامح وجهه فى ذاكرته حتى لا ينساه بعد ذلك، ولما مر التفت إلى الوراء بحركة لا إرادية فرأيته وقد وقف وجعل يحدق بنا..

وهمست لدان وأنا ارتجف: أن هذا الذى مر محدقا بك هو أبى لا تنظر ورائك، آه يا دان ماذا سنفعل؟.

قال: وقد أسرعنا فى سيرنا، لا تخافى أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا، وليحاول إذا أراد. وبعد قليل عدت فنظرت حولى مرة أخرى فوجدت أبى يتبعنا وظل كذلك حتى دخلنا الفندق وبهذا أضيف إلى عذابى وآلامى نوع آخر من العذاب هو عذاب الخوف من أبى القاسى. ومع أنى كنت أعرف أن أبى لا يحب الفضيحة، فقد كنت مرجحة أنه سيشى بى لعائلة لسلى.

وحاول دان أن يهدئ من روعى ويزيل مخاوفى، ولكن شخصية أبى القاسية كانت تضج فى مشاعرى فتملأها رعبا من انتقامه المنتظر الذى يمكن أن يحوى كل القسوة والنذالة بلا استثناء.

وقلت لدان وهو يكفكف دموعى محاولا التخفيف عنى: إنك لا تعرف أبى يا دان فهو رجل مخيف لا يتورع عن شئ.

Telegram: electronic_library

ولما أخذنى دان بين ذراعيه عند ذلك فقط زال خوفى ونسيت كل شئ. نعم، إن ذراعى دان فقط هما اللتان جعلتانى أنسى شقائى الجديد هذا، كما كانت دوائى الأوحد، وبلسم جراح نفسى الدامية.

ورغم هذا العذاب الجديد الذى وقعت فيه بخوفى من أبى فإنى لم أستطع أن أفكر لحظة بترك دان. فقد كنت وأنا إلى جانبه ضعيفة أمام حبى عاجزة أمام قوة شخصيته. أسيرة أمام سحره وفتنته.

ثم مضى على أسبوع آخر، وأنا إلى جانبه قبل أن تنزل بى صفعة القدر.

وكان ذلك فى عصر يوم من الأيام عندما رأيت دان يعود من معسكره وقد بدا عليه الألم الشديد والقلق، فظننته مريضا، فهرعت إليه وقد هلع قلبى، ولكنه دفعنى عنه وجلس على مقعد وقال: كل شئ بيننا قد انتهى يا سيليا. ثم خفض رأسه وجعل ينظر إلى أرض الغرفة وأردف: لقد جاءنى خبر من زوجتى أنها فى طريقها إلىّ..

عند ذلك فقط ظهرت لى الحقيقة المرة إذا عرفت حقيقة نفسى. عرفت أننى لست إلا امرأة رخيصة ساقطة وملهاة وقتية. أجل، عرفت أننى امرأة تعيش بدون كرامة وبدون كبرياء وبدون ضمير أيضا. فإننى لم أكتف بخداع زوجى فقط، بل خدعت أيضا زوجة جندى. نعم، طعنت امرأة بريئة آمنة، وهذا شئ ما تفعله امرأة.

وأحسست بأننى أكره نفسى، بأننى اشمئز منها ولكننى لم أستطع أن أكره دان أو أن أشمئز منه. وكان دان واجما، وقد بدت التعاسة على وجهه بكل معانيها ثم رفع رأسه بهدوء وقال: سيليا، أن هذا الظرف يحتم علينا أن نفترق ولكنى لا أستطيع أن أحتمل هذا الفراق، كلا، لا أستطيع تركك يا

Telegram: electronic_library

سيليا فإنى أشعر بأنى فى حاجة شديدة إليك، بحاجة ماسة. وإنك أنت نصفى المكمل، وإن حياتى بدونك هباء.

ثم وجم لحظة وأردف: يجب أن نطلق زوجينا يا سيليا ويجب أن نتحرر منهما ونتزوج نحن الاثنين، ألا توافقين؟..

فى هذه اللحظة أحسست فجأة بأننى كبيرة جدا، كبيرة فى تفكيرى، كبيرة فى كرامتى وكبريائى، كبيرة فى ضميرى، نعم شعرت بأننى أكبر من أن أطيع دان فى هذه السفالة التى يترفع عنها الإنسان الحى، وتغدر باثنين بريئين وأطلق لسلى بمطلق إرادتى، لسلى أول حبيب عرف قلبى حبه الملائكى الهادئ، والشخص الوحيد الذى أشعرنى بالأمان والاطمئنان.

وقبل أن أقرر هذه النتيجة، قام فى داخلى حبى لدان جارفا كالعاصفة، قويا كالقوة نفسها، يريد الانتصار.

وتململت وأنا أفكر، وأحسست بأنى فى ضيق شديد، بأننى تحت كابوس يضغط كيانى فكدت أبكى وشعرت بأننى فى حاجة إلى أمى، بأننى طفلة ضعيفة أحتاج إلى صدر أمى الحنون لأدفن فيه رأسى وأفرغ كل هذه الأثقال التى تحطم كيانى، فأقر بذنبى وأعترف بجريمتى فتفهمنى وتتغلغل إلى أعماق نفسى.

وقلت لدان: سأذهب الآن إلى بلدى وبعدئذ سأكتب إليك ما يقر رأيى عليه.

ثم سرت إلى ديترويت فى تلك الليلة، وكنت أتصرف بمشقة، فقد أحسست وأنا أفارق دان بأنى أسلخ نفسى عن سعادتى سلخا.

Telegram: electronic_library

ولكن بعد أن تغلبت على هذا الشعور داخلنى سرور عميق، إذ شعرت بأننى كفرت شيئا عن خطيئتى، ونلت بعض الجزاء وسأكفر أيضا وأنال الجزاء الأكبر بما ينتظرنى من أبى وذلك لا يعد شيئا أمام ما ينتظرنى من لسلى.

وحدث لى فى البيت كما توقعت أو يحدث، فقد بدأ أبى يقذفنى بشتائمه وإهاناته منذ أن وطأت رجلى عتبة الباب. ولم يترك لى فرصة أدخل فيها غرفة أمى لأسلم عليها ولم أغضب أو أستنكر كل هذا فإنى أستحق أكثر منه نعم أستحق لأننى عبثت بإحدى وصايا الرب العشر، لقد صرت زانية.

وطأطأت رأسى للإهانات التى انهالت على من أبى، فشعرت بألم يضغط نفسى وهو يصور لى عالم العار الذى ترديت فيه وتمنيت لو يخفف قليلا من كلماته القاسية ولكنه لم يفعل بل بدا من سرعته فى كيل الشتائم والإهانات لى أنه يتمنى لسانا آخر يساعده فى عمله وتجلت لى الخطيئة بصورها البشعة، فأحسست بالندم يملأ نفسى فبكيت ورنت فى مشاعرى تلك الجملة الخالدة التى قالها السيد المسيح للخاطئة التائبة: «اذهبى ولا تخطئى ثانية» هذه لن تكن طريقة أبى. كلا، فإن أبى لا يعرف الحلم ولا يؤمن بالتوبة، فهو يرانى عشيقة جندى، فاجرة سوف لا تنفك تكرر فعلتها الشائنة وتكررها إلى نهاية العمر.

وأخبرنى وهو يقذف بحمم غضبه أنه اشتبه بى مرة فأراد أن يتأكد من صدق ظنه فذهب إلى بيت جدى يسأل عنى ولما لم يجدنى هناك تأكد شكه فصمم على أن لا يترك زاوية فى البلاد دون أن يبحث عنى فيها ثم عاد إلى البيت ورأى ختم رسالة دان إلىّ فعرف أنه فى باركلى وأننى معه.

Telegram: electronic_library

وكأن القدر يريد أن يمعن فى تعذيبى فقد كان دان أرسل إلىّ رسالتين بالطائرة وصلتا قبل أن أصل فاستلمهما هو، كما أخبرنى شامتا، ثم أردف بفخر وانتصار: إنك لن تعرفى أبدا أين أخفيناهما مهما حاولت وأنهما سلاحى ضدك وسوف يأتى الوقت الذى سأستعملهما فيه بمضاء.

وحملق فى وجهى ضاحكا بانتصار، فكرهته حتى تمنيت لو أستطيع قتله.

وفى الأسبوع التالى جاء خبر من لسلى أنه سرح من الجيش وسيرجع إلى البيت نهائيا.

لم يكن هذا بشارة لى، ولا شعرت بسعادة الزوجة التى ستستقبل زوجها بعد غياب طويل، وتغتبط بعودته سالما من حرب ضروس كلا لم يكن هذا شعورى بل كان شعور الخوف فقط، الخوف من وشاية أبى له وتدمير حياتى.

وما كان أقسى هذه العودة بالنسبة إلى لسلى نفسه أيضا.

فقد بدأ شقائى الأعظم عندما عاد لسلى من القتال يحمل فى طبعه حدة المعارك وهياج الحديد والنار وسرعة انطلاقهما. وكان أول شئ فعله أن رفض العيش مع أبى فى بيت واحد، وقد صارا متشابهى الطباع لا يتسامح أحدهما مع الآخر بكلمة لا تعجبه وحركة لا يستسيغها

ولا أعتقد أن إنسانا ما، يستطيع أن يتصور مقدار شقائى فى تلك الحياة، وأنا لا أستطيع طرد أبى من البيت لتهديده لى بالرسائل فاضطر إلى تسميم حياتى بالاختلاف مع لسلى يوميا واحتمال ثورته وغضبه لأجل بقاء أبى يعيش معنا فى البيت وفعلت هذه الحياة فعلتها فى صحتى فساءت وخسرت كثيرا من وزنى وصرت سريعة الانفعال، دائمة التهيج وانتابنى أرق دائم وصداع شديد وكثيرا ما حاول لسلى إقناعى بالذهاب إلى الطبيب، فلم أطعه أولا، ثم عدت فقبلت بعد جهد ولما رآنى الطبيب أعلن أننى حامل.

Telegram: electronic_library

وذهلت لهذا الخبر، آه يا إلهى.. أصحيح هذا؟.. ما أفظع جريمتى أننى لا أعرف من منهما والد ولدى.. دان أم لسلى؟..

وضعت فى عالمى المظلم عالم الخوف وتبكيت الضمير. وهل هنالك عقاب أشد من الخوف وأفظع من تبكيت الضمير؟.

وبدت لى شهور الحمل التسعة، كتسع سنين طويلة، ولما جاءنى المخاض كان الخوف من أن يأتى الطفل مشابها دان، اشد فتكا فى كيانى وأكثر قسوة على نفسى من آلام الولادة.

وكما يكون الأطفال فى الغالب غامضى الملامح، لا يشبهون أحدا فى الأيام الأولى لولادتهم، هكذا جاءت ابنتى مارى إلى الوجود لا تشبه أحدا إلا شكلها الجميل المستقل بذاته. ولما رأيت لسلى يبتهج بها ويفخر ويغمرها بحنانه، انكسر قلبى.

ورجعت ومارى من المستشفى إلى بيت الشقاء وهى فى اليوم التاسع من عمرها لأتابع حياتى التعسة الأولى التى كنت أحياها.

وكانت قد مضت أربعة شهور عندما رأيت صبرى يفرغ. أمام شراسة أبى وقسوته فتقع الطامة الكبرى التى يهددنى فيها ويتوعدنى. كان ذلك فى عصر يوم من الأيام وعندما بلغ أبى قسوته فى ثورة جامحة، أخذ يهدد فيها ويصيح منزلا بى وبأمى لعناته. ولما سمعت خطوات لسلى آتيا نحونا، تصورت ما سيحدث عندما يدخل ويرى أبى فى هذه الحالة. عند ذلك نفد صبرى فجأة ولم أعد أطيق الصمت فانفجرت بأبى صائحة: يجب أن تذهب من هنا فهذا بيتى. ولم أعد أطيق بقاءك فيه.

فاشتدت ثورة أبى وصياحه وشتمه لى، فلم أهتم وأعدت كلامى بعد برهة بهدوء قاتل، ثم أردفت. يجب أن تفارقنا حالا أفهمت؟.

Telegram: electronic_library

فرمانى بنظرة تفيض بالكره، ثم رأيته يغادر الغرفة وسمعته يفتح أدراجا فى الغرفة المجاورة وعندما عاد إلينا وهو كالصاعقة، عرفت ماذا يمسك بيده دون أن أراه، لقد كان يمسك رسالتى دان اللتين كان خبأهما كل هذا الوقت الطويل لأجل لحظة كهذه. ثم بدون أية كلمة ناولهما للسلى.

ذلك هو يوم الدينونة.. نعم، لقد أحسست فى تلك الساعة بأننى أقف أمام الله فى يوم الدينونة. ولم أستطع أن أراقب لسلى وهو يقرأ الرسالتين، فأعطيت الطفلة لأمى وذهبت إلى الباب أنتظر ماذا سيفعل.

ولم يطل انتظارى ورأيت لسلى يخرج والرسائل المخيفة فى يده، وكان وجهه جامدا كالحجر وسألنى: أصحيح؟.. فأجبت: نعم..

يا لهول تلك النظرة التى بدت بعينيه فى تلك اللحظة. فقد كانت أفظع عقاب أستطيع أن احتمله. فإن كل تلك الرقة التى كانت تزين ملامحه وذلك الدفء الذى كان يظلل عينيه والذى طالما أحببته فيهما، والذى يبعث الأمان فى نفسى منذ أن عرفته أن كل ذلك قد اختفى فجأة من وجهه وبدا شيخا مهدما حطمته المصيبة وأودعت عينيه كل قسوتها وكل جبروتها.

قال: أنا ذاهب وسآخذ أختى بيتى معى، وتستطيعين أن تعيشى مع أبيك الأحمق الآن..

فصحت: لسلى، استمع إلىّ.. أتوسل إليك.. حاول أن تفهمنى.. إننى أحبك.. أنا.

فصعقنى بنظرة احتقار وقال بلهجة باردة كالثلج: الحب؟.. لا تقولى هذه الكلمة لى.

ثم أخذ أخته بيتى وانصرف. ورحت أراقبهما بذهول وهما يبتعدان عن البيت. وشعرت بأننى صريعة ذلك الاحتقار، الذى كان باديا فى عينى

Telegram: electronic_library

لسلى. ثم لم أشعر إلا وأبى يقف إلى جانبى ويقول بتهكم: لقد كنت حذرتك.. كنت أخبرتك أنهما للساعة التى ستغيظيننى فيها.

فرأيت نفسى أثب عليه لأنشب أظافرى فى وجهه صائحة هائجة، ولكنه كان أسرع منى فقبض على ذراعى يلعننى ويشتمنى، ثم رأيت يده الكبيرة ترتفع ثم تهوى على وجهى بصفعة سمعت صداها يتجاوب وأنا أبتعد عن الوجود... رويدا.. رويدا.. إلى الوراء.. لأغور فى ظلام دامس.

واستمر ذلك الظلام ستة أيام، ثم عرفت بعد ذلك أن لسلى كان قد عاد فى ذلك اليوم إلى البيت فوجدنى فاقدة الشعور وأمى إلى جانبى تبكى بمرارة والطفلة فى الأرض تصرخ وليس من يعنى بها. فأخذنى إلى المستشفى وعهد بى إلى طبيب بدنى وآخر نفسانى، عند ذلك بدأت أعود إلى رشدى من هناك، من ذلك الوادى المظلم، فى طريق ضيق طويل.

وكنت مريضة العقل والجسم فى ذلك الحين كما أخبرنى طبيبى بعد ذلك وكانت كل مشاعرى سقيمة منذ زمن بعيد قبل أن أتزوج لسلى وذلك بسبب معاملة أبى الوحشية وخوفى منه فى طفولتى، وتأثرى بالدين لدرجة اشتد معها خوفى من الله. ذلك كان السبب الأول لمرضى، وقد كانت الأزمة خفيفة علىّ فى ذلك الحين، فلم تؤثر على عقلى، ولكنها اشتدت بسبب الفقر والجهل اللذين عشت بهما، وبسبب الجبن أيضا الذى جعلنى أحبس مخاوفى فى داخلى منذ طفولتى، مما أرهق أعصابى. ثم بعد ذلك جاءت خطيئتى وعارى يزيدان فى اشتداد الأزمة وتفاقم خطرها، حتى أوصلتنى تلك الفضيحة أخيرا إلى هاوية المرض.

وكانت مدة عودتى إلى شعورى بطيئة متطاولة. وفى الواقع أن معالجتى كانت كأنها لبناء شخص جديد، دون أن تتوافر عناصر كثيرة لهذا البناء.

Telegram: electronic_library

وكان لسلى يراقب دقائق مرضى وتطوراته بفهم وتأثر عميقين، فعرف من هذا بأنى كم عانيت من شعور الخجل والعار وتبكيت الضمير الذى حطم أعصابى، وعرف أيضا كم كانت خطيئتى ثقيلة على نفسى، وكم جاهدت للابتعاد عنها وكم سررت بالتكفير بعد ذلك وتقت إلى الندامة والتوبة والإخلاص لهم. فعل كل ذلك فعله فى قلب لسلى الكبير، ونفسه الطيبة التى أدركت جوهرى الصالح ووثقت بتوبتى وإخلاصى فتجاوب فيها الصدى الرائع الذى لا يتجاوب إلا فى مثل قلب لسلى ونفسه، وهو الغفران. نعم غفران لسلى الذى أنا مدينة له ولعناية طبيبى الرحيمين بانتصارى على المرض، الذى عرفنى إلى وجه الحياة من جديد.

وقبل أن أشفى تماما أحسست بأننى يجب أن أريح ضميرى من شك أخير عاد يعذبنى وهو أبوى مارى فسافرت بمساعدة طبيبى «فوك» إلى مدينة صغيرة فى فرجينيا حيث يسكن دان لعله يفيدنى شيئا فى هذه المسألة، أو لعل له أطفالا يشبهون مارى. ولم أجد صعوبة فى العثور عليه فى تلك المدينة الصغيرة فكلمته بالهاتف وأعطيته موعدا ليلاقينى فى فندق هناك. ولما تقابلنا كان قلبى يضرب بشدة، ولكن لم أكن أشعر بتلك الفتنة الطاغية فيه، ولا بتلك الجاذبية التى لا تقاوم. كلا، لم أشعر بذلك ولا بأ شعور آخر من تلك الأحاسيس التى كانت تشدنى إليه وتزين لى الخطيئة. بل كنت جامدة الشعور أمامه. أنظر إليه ببرود كأن لم يكن بيننا ذلك الماضى الحافل. وكأن كل ما قد حدث بيننا كان قد حدث لامرأة أخرى.

فى تلك اللحظة أيقنت بأننى قد شفيت تماما وخلصت من أدران حياتى الماضية. وبمنتهى الاختصار أخبرته بما حدث لى وبخوفى من أن تكون مارى ابنته.

Telegram: electronic_library

وعندما انتهيت، قال دان برقة: اغفرى لى يا سيليا إننى لا أملك أولادا لأننى عقيم لذلك فابنتك ليست ابنتى.

ولم أصدق ما سمعت،أصحيح أننى تحررت من ماضى بهذه السرعة؟.. وراحت دموعى تهطل بغزارة، ما أسعدنى سوف لا أرى دان بوروس بعد الآن..

وكان رجوعى إلى البيت نزهة جميلة سررت فيها، كما لم أسر منذ أن عرفت دان. وأحسست بأن قلبى يرقص على أنغام حركة القطار فيتردد صداها فى داخلى موسيقى رائعة. نعم عدت إلى عائلتى، إلى زوجى الحبيب. إلى برجى الشامخ الوطيد. وشعرت للمرة الأولى بالسلام يسود نفسى وبالراحة والاطمئنان.

واختفى أبى من حياتنا تاركا فى مكانه الأمن والسلام. ولم نعد نراه منذ تلك الصفعة التى أرسلتنى إلى عالم الظلام، فجئت بالنور والسعادة إلى حياتنا الجديدة. توارى أبى عنا ولا أدرى أين ذهب.. أهو لا يزال يتابع مواعظه وإرشاداته؟..

وبدأت أشعر نحوه بالشفقة بدلا من الكره، فإنه رجل تعيس، تعيس أينما ذهب وحيثما استقر ما دامت القسوة تملأ قلبه، وما دام هذا القلب لا يعرف إلى الغفران سبيلا..

«اذهبى ولا تخطئى ثانية» هكذا قال السيد المسيح للخاطئة التائبة منذ زمن طويل، فترددت هذه الكلمة فى طوايا العصور هديا للبشرية، وأملا يشرق فى النفوس التى عذبتها الخطيئة وأمضها العار، كما أشرقت فى أعماق نفسى وبعثت حياتى من جديد.

■■■

Telegram: electronic_library

المتمردة

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

لقد أراد الكاتب اللاذع السخرية «جورج برنارد شو» أن يلفت الأنظار إلى أن البغاء ليس وليد حرمان الأنثى، أو فجور الذكر، وإنما هو وليد ما يقع على الأنثى من غبن، وعدم ظفرها بحقها من التقدير وفرط إرهاقها بالعمل إلى درجة مخزية، تضطر معها أفقر الإناث إلى أن يلجأن إلى البغاء لينجون من هذه الحال. ليس هذا فحسب، وإنما «أردت أن أبين أن البغاء يمارس أيضا كمهنة منظمة ويستغل كتجارة دولية كبيرة لصالح الرأسماليين كأية تجارة أخرى»

وما أن ظهرت هذه المسرحية لأول مرة، حتى ثار رئيس الديوان الملكى الذى كانت له سلطات استبدادية على المسارح البريطانية، وتمثلت ثورته فى مرسوم برلمانى، دمغ المسرحية بأنها «غير خلقية، ومن ثم فهى لا تليق بالإخراج على المسرح».

وحرم عرضها، فأصيبت سمعة «شو» بأضرار بليغة، وصفها بأسلوبه الساخر: «كذلك اعترف بأن سمعتى كناقد ثورى لأعظم نظمنا الاجتماعية نصيبها من الاحترام، قد جعلنى باستمرار فى مياه ساخنة «أى مواقف حرجة» . لذلك فإن ملء إبريق آخر من الماء المغلى - من رئيس الديوان - لا يضيرنى كثيرا، لا سيما إذ عززت المسرحية شهرتى بين القراء الجادين. ومع ذلك، فإن الضرر الذى حاق بى - والذى لم يعد من سبيل إلى درءه -

Telegram: electronic_library

كان حقيقيا وكبيرا، كما أن الضرر الذى أصاب المجتمع كان أعظم. فعندما عولجت مسألة «الاتجار بالرقيق الأبيض» - كما أطلق على مهنة مسز وارين - فى الهيئة التشريعية، كان كل ما فعله البرلمان هو أن يقرر جلد الذكور الذين يعاشرون البغايا والقوادين. تاركا «مسز وارين» مسيطرة كل السيطرة على الموقف، وقد ازدادت طبيعتها الحقيقية تواريا عن ذى قبل، وراء قناع مكين. وكان الذنب فى أن المشرعين والصحفيين لم يلموا تماما بحقيقة الموقف، واقعا على الرقابة التى فرضت»

وفى سنة ١٩٠٢ أقدمت جمعية لهواة التمثيل تدعى «جمعية المسرح» على إخراج التمثيلية، فإن كونها جمعية للهواة أعفاها من سلطان رئيس الديوان. ولكى تكون لدينا فكرة عن الضجة التى أثارها هذا الحادث، ننشر لك - فيما يلى - بعض فقرات من حديث طويل جدا يستغرق حوالى ٤٠ صفحة إذا ترجم كاملا، وقد جعله «شو» كمقدمة لطبعة خاصة من التمثيلية ظهرت بهذه المناسبة:

الفن أقوى من الوعظ

«لو أنكم مثلتم «مهنة مسز وارين» على جمهور من رجال الكنيسة، ونسوة من الخبيرات بإنقاذ وترويض الفتيات، لما ثار أى ذعر على الأخلاق. فإن كل رجل وكل امرأة من الحضور سيعرف أن صراعه العنيف ضد البغاء - بالصلوات والإغراء والملاجئ والصدقات الضئيلة - صراع خاسر طالما ظل الفقر قادرا على أن يجعل الفضيلة بشعة قاسية، وطالما كانت النفقات التى يبددها العزاب الأغنياء بإسراف تجعل الرذيلة باهرة تزيغ الأبصار.

«ذلك لأن الدعاة الدينيين والخلقيين لم يعودوا اليوم يؤمنون بالجحيم، كما أن الفتيات - الذين يقوم هؤلاء بخدماتهم الدينية الخلقية والاجتماعية

Telegram: electronic_library

بينهن - يدركن أنهم لا يؤمنون بالجحيم. ولقد تعلم الآن هؤلاء المنفذون أن دفاع مسز وارين عن نفسها واتهامها المجتمع، هو الشئ الجدير بأن يقال.

«إن حرفة مسز وارين هى الوحيدة بين تمثيلياتى التى أستطيع أن أقدمها للرقابة دون ما شك فى النتيجة، على شريطة أن لا يكون الرقيب من صغار النقاد المسرحيين، ولا موظفا قضائيا ساذجا كذلك المحقق الذى عينه رئيس الديوان.

وغنى عن القول أنه ينبغى ألا يكون الرقيب من القوم الذين يدركون أنهم يربحون من مهنة مسز وارين، ولا ممن يستغلونها شخصيا ولا ممن يتشبثون بالرأى الشائع همسا أن البغاء صمام أمن لا غنى عنه لحماية الفضيلة العائلية. وقبل هؤلاء وأولئك يجب أن لا يكون الرقيب من أولئك المصابين بإشفاق عاطفى على أختنا الساقطة فيؤثرون أن يترفقوا بها، ولا من السادة الأطباء الذين يفرضون الفحص الطبى والتسجيل على مسز وارين ويتركون «زبائن» مسز وارين ليتلفوا صحتها وصحة أى امرئ آخر دون خوف من أى جرم أو قصاص.

إننى موقن من أن الفن الجميل هو أسمى الأشياء مكانة، وأكثرها استهواء وأشدها مفعولا كأداة للدعاية الخلقية فى الدنيا لا يفوقه فى كل هذا سوى السلوك الشخصى. بل أننى أستبعد هذا الاستثناء بالنسبة لفن التمثيل، لأنه يؤدى مهمته عن طريق عرض أمثلة للسلوك الشخصى، فى قالب مفهوم حى، على جموع من الناس عديمى الملاحظة والتفكير لا يبدو للحياة الواقعة لديهم معنى. ولكم أجد الأسلوب التمثيلى مجديا حتى أنى لا أشك فى أننى سأوفق فى النهاية إلى إقناع لندن ذاتها بأن تأخذ معها ضميرها ووعيها وعقلها عندما تذهب إلى المسرح، بدلا من أن تتركها فى البيت مع كتاب الصلوات.

Telegram: electronic_library

وأصل فى حديثى إلى أولئك النقاد الذين حيرتهم مشكلة «مهنة مسز وارين» من الناحية العقلية، فجعلوا من الفرار منها بحجة الشهامة فضيلة، إذ زعموا أن مثل هذه المشكلة لا ينبغى أن تناقش - بل ولا أن تذكر - فى حضور النساء. ولست أجادل مثل هذه الشهامة، وإنما أؤكد ببساطة أن «مهنة مسز وارين» مسرحية للنساء، وأنها كتبت من أجل النساء، وأنها ما مثلت ولا أخرجت إلا بفضل تصميم نساء على أنها يجب أن تمثل وأن تخرج وأن تحمس النساء قد جعل أول عرض لها ناجحا إلى أقصى حد، وأنها لم يغير رأيا من هؤلاء النساء بمناصرتها سوى إيمانهن بقوة الدرس الذى يتمثل فى هذه المسرحية.

«إن الإيحاء بأن البغاء ينشأ عن شر «مسز وارين» لا يقل سخفا عن الإيحاء بأن السكر وإدمان الشراب نتيجة لشر صاحب الحانة. إن مسز وارين ليست أسوأ من الابنة الطيبة السمعة التى لا تستطيع أن تحتمل أما مثلها. والذى لا يستطيع أن يرى أن الجوع والعمل المرهق، والقذارة والمرض من الأمور المنافية للمجتمع - مثلها مثل البغاء - وأنها رذائل وجرائم وليست مجرد نكبات تصاب بها أية أمة، لهو إنسان مغرق فى الفساد إلى درجة لا رجاء فيه معها.

«إن الإيحاء بأن مسز وارين لابد أن تكون شريرة جهنمية ليس سوى مثال للعنف والشهوة اللذين تثيرهما فى العقول غير المتزنة أتفه إشارة إلى الجنس، واللذين يجعلان من الطبيعى لمن يسنون قوانيننا أن يعاقبوا أتفه التصرفات غير المحتشمة بوحشية لا يعامل بها الاحتيال المالى الذى يؤدى إلى الدمار... مثلا»

■■■

Telegram: electronic_library

1

ترفع ستار الفصل الأول عن كوخ فى حديقة على سفح تل فى ريف إنجلترا، وقد بدت بضعة مقاعد قماشية من النوع الذى يستخدم فى الحدائق، وإلى الجدار كانت ثمة دراجة مسندة. وإلى اليمين محفة معلقة بين عمودين ومظلة كبيرة مثبتة فى الأرض، تحجب الشمس عن المحفة التى استلقت فيها فتاة مستغرقة فى القراءة. وعلى منضدة مجاورة مجموعة من كتب يدل مظهرها على أنها جدية وكمية من ورق الكتابة.

يبرز من خلف الكوخ رجل فى أوسط العمر، يوحى مظهره بأنه فنان وقد عنى بملبسه وشكله. فيرفع قبعته محييا الشابة ويسألها: «هل لى أن أسأل عما إذا كنت الآنسة فيفى وارين؟»

وتعرف الشابة الجميلة أنه يدعى «برايد» وأن أمها هى التى دعته إلى الحضور، ليتعرف إليها.

فيفى «فى شئ من التمرد»: لقد استطابت أمى أن تدبر لى المفاجآت لترى كيف أتصرف فى غيابها. وأحسب أننى سأفاجئها بالمثل - ذات يوم - إذا ظلت تدبر لى ما يخصنى دون أن تستشيرنى.. أنها لم تأت بعد.

وإذ يرتبك الشاب، تتخلى «فيفى» عن جفائها، وتدعوه إلى الجلوس ويبدو لها حرصه على إرضائها كمظهر من مظاهر الضعف، فإذا ما سألها

Telegram: electronic_library

عما إذا كانت تعتزم الذهاب لاستقبال أمها فى المحطة، قالت: «ولماذا؟. أنها تعرف الطريق. أتعرف أنك كما توقعت أن تكون تماما؟. أرجو أن تكون على استعداد لأن تصبح صديقا لى»

برايد: شكرا يا عزيزتى مسز وارين. لكم أنا مسرور لأن أمك لم تفسدك.. إننى فوضوى بفطرتى وأكره السلطان فهو يفسد العلاقة بين الأهل والطفل. بل بين الأم والابنة. وكنت أخشى أن تكون أمك قد فرضت عليك نفوذها لكى تراعى التقاليد المتعارف عليها. أنكن - معشر الشابات العصريات - رائعات كل الروعة «ترمقه فى استياء من تفكيره وشخصيته» عندما كنت فى سنك كان كل من الشبان والشابات يخافون بعضهم بعضا إذ لم تكن هناك زمالة طيبة. لم تكن هناك سوى مجاملات منقولة عن الروايات وفى منتهى السخف والاستهجان. تحفظ عذرى وشهامة فروسية.. «لا» دائما فى مكان «نعم» . ولكن الأمور تتحسن. أتعرفين أننى كنت فى شوق حقيقى إلى لقائك منذ سمعت عن أعمالك الرائعة فى كمبريدج؟.

ذلك أن الفتاة أظهرت تفوقا رائعا فى العلوم الرياضية، وهى تتفرغ - فى عطلتها هذه - إلى استذكار القانون لتستطع أن تعمل فى بورصة الأوراق المالية.

برايد: أو ليس من هوى أو جمال فى حياتك؟.

فيفى: لست أحفل بأى منها، فإنما أحب العمل والكسب منه. فإذا تعبت من العمل فإنى أحب مقعدا مريحا وسيجارا، وقليلا من الويسكى، ورواية بوليسية جيدة.

ويأبى برايد أن يصدق أن فتاة مثلها تنصرف عن جمال الحياة إلى هذا الحد، ولا تحفل بالمسرح ولا بالموسيقى، فيقول: «بصراحة، أخشى أن تستاء

Telegram: electronic_library

أمك بعض الشئ، فأنت تختلفين عن الصورة المثالية التى تتخيلها لك. لعلك لاحظت يا مس وارين أن الناس الذين لا يرضون عن نشأتهم يخالون أن الدنيا تتصلح إذا نشأ كل امرئ على غير ما نشأوا عليه. ولقد كانت حياة أمك... آه، أعتقد أنك تعرفين»

فيفى: لا تعتقد شيئا فأنا أكاد لا أعرف أمى، إذ أننى منذ طفولتى أقيم فى انجلترا سواء فى المدرسة أو مع قوم يؤجرون على رعايتى. أما أمى فكانت تعيش فى بروكسل أو فيينا. ولم أكن أراها إلا عندما تزور انجلترا لأيام قلائل.

وتحاول أن تحمله على أن يحدثها عن أمها وحياتها ولكنه يراوغ ويتهرب إلى أن تفد مسز وارين نفسها وبصحبتها كهل متصاب، هو «السير جورج كروفتس» أما الأم فامرأة بين الأربعين والخمسين، كانت جميلة يوما، وقد بدا التبهرج فى ثيابها وزينتها. ويتجلى الاشمئزاز على «فيفى» من «السير جورج» وتظرفه المتكلف حتى إذا صافحها بيد رخصة ناعمة، ضغطت عليها حتى أوجعته. وتذهب «فيفى» لإعداد الشاى، فيقول برايد لمسز وارين: «أعتقد أن من الخير أن نكف عن التفكير فى ابنتك كما لو كانت فتاة صغيرة، فقد استطاعت أن تبرز ذاتها حتى بت أعتقد أنها أكبر من أى واحد منا»

مسز وارين: لا تقحم نفسك يا برايد، فأنا أعرف كيف أعامل ابنتى...

«ويروح برايد يتمشى فى الحديقة واجما فتهمس لكروفتس» ماذا به؟.

كروفتس: أنك خائفة منه.. خائفة منه

مسز وارين «فى غضب»: إذا لم يكن بوسعك أن تجعل نفسك مقبولا فانصرف من هنا.

Telegram: electronic_library

وتنهض فتجد نفسها وجها لوجه مع برايد

برايد: أرجو أن لا تخالينى غاضبا يا عزيزتى كيتى، ولكنك تعرفين أننى كثيرا ما ألاحظ أمورا تفوتك. ومع أنك لا تأخذين بنصحى قط، فإنك لا تلبثين أحيانا أن تعترفى بأنه كان خليقا بك أن تستجيبى لهذا النصح. وأنا ألاحظ الآن أن فيفى امرأة ناضجة فأناشدك أن تعامليها بكل احترام

مسز وارين «فى دهشة»: احترام؟.. أعامل ابنتى باحترام؟.

وتناديها ابنتها إلى داخل الكوخ فتسرع إليها. وإذ ذاك يساءل كروفتس جليسه عمن يكون والد «فيفى» فيبدى برايد جهله به.

كروفتس «غير مصدق»: أفهم أنك قد تكون مقيدا بوعد بالكتمان، إذا كانت قد أنبأتك. ولكن من المحرج أن لا نكون على بينة، ونحن سنلتقى بالفتاة فى كل يوم. إننا لا ندرى كيف ينبغى أن نشعر نحوها

برايد: وفيم يهم هذا؟.. إننا نتقبلها على علاتها، فما قيمة أن نعرف من يكون أبوها؟.

كروفتس: إذن فأنت تعرفه؟. «ينكر برائد» إذا كنت تعرف، فخليق بك أن تطامن خاطرى. لا تنزعج، فهى فكرة بريئة، وهذا سر حيرتى. إذ من أدرانى؟. قد أكون أنا أباها.

برايد: أنت؟.. مستحيل.

كروفتس «كمن أوقعه فى فخ»: أواثق أنت من أننى لست أباها؟ لعلها ليست ابنتك أنت؟.

برايد «مستنكرا»: اسمع يا عزيزى كروفتس. ليست لى أية علاقة بذلك الجانب من حياة مسز وارين ولا هى حدثتنى يوما عنه. إذ ذكاءك جدير

Telegram: electronic_library

بأن يعلمك أن المرأة الجميلة تحتاج إلى بعض أصدقاء ممن.. أعنى ليسوا على شاكلتها، فإن مفعول جمالها قمين بأن يصبح عذابا لها، إذا عز عليها أن تهرب منه بين آن وآخر.

كروفتس: لقد سألتها مرارا ولكنها مصرة على أن تستبقى الفتاة لنفسها حتى لتكاد تنكر أنه كان لها أى أب.

وتناديها مسز وارين ليدخلا كى يتناولا الشاى فيسرع كروفتس إلى الداخل. وإذ يهم برايد بأن يتبعه يلمح شابا مليحا أنيقا مقبلا وهو يحمل بندقية صيد خفيفة، فلا يلبث أن يتبين أنه صديق صباه «فرانك جاردنر» ابن أحد القساوسة. ويتصافحان فى شوق. ويسأل برايد صديقه عن أبيه فيجيب هذا: «لقد أصبح موكلا بكنيسة القرية وقد جئت لأقيم معه خلال هذا الخريف، من قبيل الاقتصاد فقد تأزمت الأمور فى شهر يوليو، واضطر أبى إلى أن يدفع عنى ديونى فأفلس كما أفلست»

وعندما يعرف أن «برايد» جاء ليقضى يوما مع مس وارين يقول: «ألا تراها بديعة؟.. إننى أعلمها الرماية ولكن يسرنى أنها تعرفك فأنت عين النوع الذى ينبغى لها أن تعرفه. يا لها من شخصية ما أرق شعورها، وما أمهرها.. ثم أنها تحبنى»

ويبدو القس «صامويل جاردنر» - والد فرانك - خارج الحديقة فيخف ابنه إلى لقائه، بينما يدخل برايد الكوخ. ويأبى القس أن يستجيب لابنه - إذ يدعوه إلى الداخل - لأنه لا يعرف «مس وارين» التى تقيم فى الكوخ ولم يرها تتردد على الكنيسة.

فرانك: طبعا، فهى كبيرة العقل، وقد حصلت على شهادة تفوق شهادتك، فما حاجتها إلى أن تستمع إلى عظاتك؟.

Telegram: electronic_library

القس: لا تكن قليل الأدب

فرانك «يجذبه إلى الحديقة»: تعال أعرفك بها. ألم تتصحنى بأن أبحث عن زوجة أوتيت عقلا ومالا، ما دمت لم اوت شيئا منهما؟.

القس: ما كنت أفكر فى المال. وإنما كنت أتحدث عن أمور أسمى، كالمركز الاجتماعى.

فرانك: لست أحفل بذلك. ومع هذا فإن لديها شهادة عالية من كمبريدج ويبدو أنها أوتيت من المال كفايتها. ولا تنس أننى لا أسرف فى العبث كما كنت أنت فى سنى «يبدو على القس الاستهجان» لقد حدثتنى بنفسك عن ساقية الحانة فى «رد هيل» وعن أنك عرضت مرة على امرأة خمسين جنيها فى مقابل الرسائل التى كتبتها لها عندما.

ويقاطعه القس فى جزع واستنكار. لقد روى له يوما بعض حماقات صباه، وهو يعظه ليرتدع عن غيه، فإذا الابن يستغلها ليعيره بها، وليتخذ منها تبريرا لتصرفاته هو.. ويقول القس: «لقد وضعت نفسى تحت سلطان تلك المرأة حين كتبت لها تلك الرسائل يا بنى، وأنى لآسف لأننى وضعت نفسى تحت سلطانك إذ رويت لك قصتها. ولقد رفضت المرأة نقودى - وكان هذا منذ نيف وعشرين عاما - ولن تستخدم يوما سلاحها ضدى، ولا سببت لى أية متاعب»

ويهم القس بالانصراف ولكن «فيفى» تخرج من الكوخ فتتعرف إليه وتصر على دعوته إلى الداخل، وإذ تراه الأم تهتف: «عجبا، إنه سام جاردنر، وقد أصبح من رجال الكنيسة.. أتذكرنى» إن لدى ألبوم كاملا لرسائلك، عثرت عليه منذ أيام»

وندرك أنها عين المرأة التى خاض معها بعض المغامرات الغرامية فى شبابه

■■■

Telegram: electronic_library

2

ويهبد الليل. وعندما ترفع ستار الفصل الثانى، نرى «مسز وارين» تدخل يتبعها فرانك عائدين من نزهة على الأقدام. ويتغزل الشاب فى المرأة الناضجة، فتحاول أن تصده على أنه لا يزال غلاما، ثم تقول له: «إننى أعرفك أكثر مما تعرف أنت نفسك، لشبهك بأبيك، فلا تداخلنك أفكار نزقة عنى».

فرانك: لست أملك لها دفعا، فإن هذه الأفكار وراثية فى الأسرة.

وتقبله ثم ترتد ساخطة على نفسها. ولا يلبث الحديث أن يكشف لمسز وارين عن أن فرانك وابنتها متحابات، فتحذره من أن يعبث بالفتاة ويجيبها بأن الفتاة لا تحتاج إلى نصف ما تحتاج إليه أمها من رعاية.

ويقطع عليهما الحديث مقدم «كروفتس» والقس فيشغلون جميعا بموضوع إيواء كروفتس وبراید فى تلك الليلة. فما كانت مسز وارين تستطيع إيواءهما خوفا على سمعتها وسمعة ابنتها. ويتطوع القس بأن يستضيفهما ثم يذكر «فرانك» اعتزامه الزواج من فيفى:

القس «ينهض جزعا وقد احتقن وجهه» : فرانك، فلتعلم أن هذا مستحيل. وتستطيع مسز وارين أن تخبرك بأن هذا أمر ينبغى ألا تفكر فيه.

مسز وارين «بعد تفكير»: لست أدرى يا سام. إذا كانت الفتاة راغبة فى الزواج منه، فلا حيلة فى الأمر.

Telegram: electronic_library

القس «مبهوتا»: ولكن.. تتزوج منه؟. ابنتك تتزوج من ابنى؟ فكرى فى الأمر.. إنه مستحيل.

كروفتس: إنه مستحيل فعلا يا كيتى، فلا تكونى حمقاء

مسز وارين «فى استياء»: ولم لا؟. أليست ابنتى كفء لابنك؟

القس: ولكنك ولا شك تعرفين الأسباب يا عزيزتى.

مسز وارين «فى تحد»: لست أعرف، وإذا كنت تعرف شيئا، فقله للفتى، أو للفتاة أو لأهل بيعتك إذا شئت.

القس «يتهالك مغلوبا على أمره»: أنك لتعرفين تمام المعرفة أن ليس بوسعى أن أذكر الأسباب لأى امرئ ولكن ابنى سيصدقنى إذا أنبأته

فرانك: بلا شك يا أبت، ولكن.. هل تأثر مسلك ابنك يوما بحججك؟.

كروفتس: ليس بوسعك أن تتزوجها، وكفى.. «لمسز وارين» ما أحسبك تريدين زواج ابنتك من شاب يصغرها، ولا حرفة له ولا مال.

ويكفى هذا المنطق لأن يغير موقف مسز وارين، فتعارض الزواج. وفيما يشتد الجدل تقبل «فيفى» مع «برايد» فما ان تدخل الكوخ، حتى تسرع إلى إعداد مائدة العشاء. ولكن المائدة لا تتسع لأكثر من أربعة أشخاص، فيتطوع القس وكروفتس للبقاء مع «فيفى» ريثما يتناول الآخرون عشاءهم ولكنها تختار فرانك دونهما. ولا يملك الآخرون سوى أن ينقلوا إلى المائدة فى الحجرة المجاورة.

وإذ يغلق الباب خلفهم، يسأل فرانك الفتاة عن رأيها فى أبيه. وينطلق يحدثها عنه، فيذكر لها أنه اضطر اضطرارا إلى أن يصبح من رجال الكنيسة، ثم أخذ يعالج نفسه ليصبح أهلا لمنصبه.

فيفى: وما رأيك فى أمى؟.

فرانك: أتريدين رأيى الحقيقى، الصادق؟.. إنها بديعة ولكنها تميل إلى الحرص.. وذلك الرجل كروفتس، ما رأيك فيه؟.

Telegram: electronic_library

وتبدى فيفى استهجانها لأصحاب أمها الذين لا هم لهم فى الحياة سوى الأكل واللهو. ولا تلبث أن تعود مسز وارين مع كروفتس إلى الحجرة، وتدعو الشابين إلى أن يحلا محلهما على المائدة. وتلمح مسز وارين النظرات النهمة التى يشيع كروفتس بها ابنتها فتروح تؤنبه.

كروفتس: إننى لم أبلغ الخمسين بعد، وثروتى طيبة. وليس من السهل التقاط شخص ذى لقب رفيع فى كل يوم، كما أن أى رجل آخر فى مركزى لا يمكن أن يرتضيك حماة له.

ويرمق كل منهما الآخر مليا: هى فى ازدراء واستهجان، وهو فى خبث وابتسامة رقيقة. ويهمان بالتشاتم، لولا أن يفتح الباب، فيغادر الرجل الكوخ مسرعا، قبل أن يلمح أحد أساريره. ويقبل القس فيقف إلى جوار مسز وارين عند المدفأة، ثم تدخل فيفى وفرانك يتبعهما برايد. ولا يلبث الرجال أن ينصرفوا. ويود فرانك أن يقبل فيفى قبل رحيله، ولكنها تقول فى سخط: «لا.. أننى أكرهك» وتنصحها أمها - عقب خروجه - بأن لا تمضى فى تشجيعه.

فيفى: يا له من مسكين!.. إننى مضطرة إلى أن أتخلص منه، ولكننى سآسف من أجله، وإن لم يكن أهلا لذلك. وكذلك لا يبدو لى ذلك الرجل كروفتس لائقا. أليس كذلك؟.

مسز وارين «فى دهشة من عدم اكتراث ابنتها»: وماذا تعرفين عن الرجال يا ابنتى، حتى تتحدثى عنهم بهذه اللهجة؟. ستضطرين إلى أن تروضى نفسك على أن ترى جورج كروفتس كثيرا، فهو صديقى.

فيفى: ولماذا؟. أتتوقعين أن نبقى معا - أنت وأنا - طويلا؟. وهل ترين طريقتى فى الحياة تروق لك؟. أشك فى ذلك.

مسز وارين: ما هذا الكلام الفارغ؟. أتريدين أن تستقلى بحياتك، لأنك أصبحت طالبة علم رفيعة القدر؟. «فى عنف» تعسا لك ولطريقتك فى الحياة. لسوف تكون طريقتك فى الحياة هى ما يحلو لى أنا. لقد لاحظت

Telegram: electronic_library

هذه الظواهر منذ حصلت على تلك التقديرات العالية فى الدراسة وإذا خطر لك أننى ابهر بذلك فأنت على خطأ.. «ترفع صوتها من جديد فى غضب» .. أتعرفين إلى من تتحدثين يا آنسة؟.

فيفى: لا.. من تكونين؟. وماذا تكونين؟.. إن كل امرئ يعرف سمعتى، ومركزى الاجتماعى والمهنة التى أعتزم أن أتخذها. ولكنى لا أعرف شيئا عنك، فما هى الحياة التى تدعيننى أن أشاطرك وسير وجورج كروفتس إياها؟.

مسز وارين: حذار، وإلا أقدمت على ما سوف آسف - وتأسفين - عليه

فيفى «فى حزم هادئ»: أنك بحاجة إلى نزهات وإلى لعب التنس حتى تهدأ أعصابك. أنك لم تستطيعى أن تقطعى عشرين ياردة صعودا إلى التل، دون أن تكفى عن اللهث. ثم أن رسغيك كتلتان من الشحم. انظرى إلى رسغى.. «تبدو الأم حائرة، ثم تبكى» أرجوك.. لا تبكى

مسز وارين: كيف تقسين على إلى هذه الدرجة يا حبيبتى؟.. أليس لى حقوق عليك، وأنا أمك؟.

فيفى: أو أنت أم؟. إذن فأين أقاربنا وأهلنا؟. أين أبى، وأين أصدقاء الأسرة؟. أنك تستحلين لنفسك حقوق الأم، وتكلميننى، وتريدين أن تملى على نهجى فى الحياة وأن تقسرينى على معرفة وحش يرى أى امرئ أنه من حثالة رجال لندن. وقبل أن أكبد نفسى عناء مقاومة حقوق كهذه، أحب أن أعرف ما إذا كان لها وجود حقا.

مسز وارين «يشتد بها الأسى، وتجثو على ركبتيها»: أواه.. كلا.. أقسم أننى أمك. ما أحسبك تريدين أن تكرينى يا صغيرتى.

فيفى: ومن كان أبى؟.. «تصر الأم على عدم الإجابة» .إن من حقى أن أعرف. ولك أن ترفضى الإجابة، ولكنك - فى هذه الحالة - لن ترينى قط بعد صباح الغد «ترتجف فى تقزز» كيف لى أن أطمئن إلى أن عروقى لا تحتوى على شئ من الدم الملوث.. دم ذلك الرقيع البغيض؟.

Telegram: electronic_library

مسز وارين: لا، لا.. أقسم أنه ليس أباك، ولا أى واحد ممن قابلتهم. إننى واثقة من هذا على الأقل.

فيفى «ترمقها بنظرات ثاقبة وتقول ببطء»: أنت واثقة من هذا، على الأقل.. «مسز وارين تدفن وجهها فى راحتيها» لا تفعلى هذا ما أماه، فأنت تعلمين أنك لا تشعرين بشئ مما تتظاهرين به. «ترفع الأم وجهها عن راحتيها، وتنظر إلى فيفى بيأس، فتمسك الفتاة برسغها وتشدها فى حزم» انهضى وتجلدى.. ما رأيك فى الذهاب إلى الفراش وقد بلغت الساعة العاشرة والنصف؟.

مسز وارين «فى مرارة»: وما جدوى الذهاب إلى الفراش؟. أتظنيننى أقوى على النوم؟. أواه، أنك بلا قلب «تنطلق فجأة فى حمية الأم التى يغلبها سلطان الأمومة الطبيعى» لن أحتمل هذا، لن أقبل هذا الغبن. بأى حق تترفعين وتشمخين بأنفك علىّ.. على أنا، على التى أتاحت لك فرصة أن تصيرى إلى ما أنت فيه.. خسئت

فيفى «تجلس، وتهز كتفيها وقد فقدت شيئا من اعتدادها»: لا تظنى أننى أشمخ عليك. لقد هاجمتنى بسلطان الأم المتعارف عليه، فدافعت عن نفسى بالعزة المألوفة لدى أية امرأة محترمة. إننى بصراحة لن أرتضى شيئا من هذرك، فإذا كففت عنه، كففت أنا عن هرائى.. سأحترم دائما حقك فى آرائك وفى أن تسلكى المسلك الذى يحلو لك فى الحياة.

مسز وارين: ما هذا الكلام؟.. أتظنيننى نشأت نشأتك، أختار النهج الذى يحلو لى فى الحياة؟.. أتحسبيننى قد فعلت ما فعلت لأننى أحببت هذا المسلك أو رأيته صوابا، أو لأننى كنت أفضل عدم الذهاب إلى الكلية، لو أننى استطعت ذلك وأتيحت لى الفرصة؟.

فيفى: كل امرئ أوتى شيئا من الاختيار يا أماه، وقد لا تستطيع أفقر فتاة أن تختار بين أن تكون ملكة انجلترا أو عميدة نيونهام، ولكنها تملك الخيار

Telegram: electronic_library

بين أن تجمع الخرق القديمة أو تبيع الزهور. إن الناس يلومون الظروف دائما على ما هم فيه، ولكنى لا أومن بالظروف. فالذين يوفقون فى الحياة هم الذين يسعون وراء الظروف التى يشتهونها ويخلقونها إذا هم لم يعثروا عليها

مسز وارين: ما أسهل الكلام!. أتريدين أن تعرفى ماذا كانت ظروفى؟

وتروى الآن أن أمها كانت تزعم أنها أرملة، وتملك حانوتا لبيع السمك المقلى بجوار دار سك النقود، وتكسب منه قوت نفسها وبنات أربع، كانت بينهن شقيقتان، هما مسز وارين وأخت لها تدعى «إليزابيث» وكانتا جميلتين. أما الأخريات فكانتا أختين من أب آخر، دميمتين، تشقيان بالعمل، وتتشبثان بالاستقامة «كانتا من الصنف المحترم، فماذا كسبتا من الاحترام؟» . لقد ظلت إحداهما تشتغل فى مصنع للرصاص اثنتى عشر ساعة فى اليوم، لقاء تسعة شلنات فى الأسبوع، حتى ماتت بسم الرصاص. أما الأخرى فقد تزوجت من عامل أنجبها ثلاثة أولاد كانت ترعاهم فى حجرة صغيرة، تعيش مع أسرتها فيها على ثمانية عشر شلنا فى الأسبوع إلى أن قدر لزوجها أن يدمن الشراب.

أما الشقيقتان الجميلتان فكانتا تشعران بأنهما أرقى من غيرهما من البنات إلى أن غادرت إليزابيث البيت ذات ليلة، ولم تعد قط. أما مسز وارين فقد اشتغلت خادما فى مطعم ثم ساقية فى مشرب، تقدم الخمر وتغسل الكؤوس أربع عشرة ساعة فى اليوم لقاء أربعة شلنات فى الأسبوع مع الوجبات والمأوى.

مسز وارين: وفى ذات ليلة باردة، تعسة، وقد برح بى التعب ولقيت عناء فى البقاء مستيقظة إذا أختى «ليزى» - إليزابيث - تدخل فى معطف طويل من الفرو وكيسها ملئ بالنقود الذهبية. إنها تقيم الآن فى «وينشيستر» كواحدة من أكثر سيداتها حظوة بالاحترام. وأنك لتذكرينى بليزى بعض الشئ، فقد كانت عملية من الدرجة الأولى، فراحت تدخر النقود من البداية. أبدا لم تدع نفسها تبدو على حقيقتها وأبدا لم تفقد عقلها، ولا أهملت فرصة.

Telegram: electronic_library

ورأت «ليزى» فى جمال أختها - مسز وارين - فرصة سانحة فأخذتها معها حيث فتحتا بيتا للهوى فى بروكسل.

مسز وارين: أفكنت ترديننى على أن أبقى فى الظروف التى كنت فيها، إلى أن تهدمنى المهانة والذلة قبل أن أبلغ الأربعين؟.

فيفى: ولكن، لم اخترت هذا العمل؟. إن ادخار المال وتحسين الحال ممكنان بأى عمل آخر؟

مسز وارين: ولكن كيف لامرأة أن تحصل من أى عمل آخر على مال يدخر؟. كان كل ما لدى ليزى ولدى أنا من المواهب هو جمالنا، ومقدرتنا على إرضاء الرجال. أفتظنين أننا كنا من الغباء بحيث ندع الغير يتجرون فى جمالنا باستخدامنا كعاملتين فى المتاجر، أو ساقيتين، أو خادمتين، بينما فى وسعنا أن نتجر بجمالنا لحسابنا، ونستأثر بكل الأرباح بدلا من الأجور التى لا تطعم فم؟. كان علينا أن نعمل وندخر ونحسب وإلا ظللنا فقيرتين كأية امرأة سكيرة، مفسودة، تحسب أن حظها يدوم إلى الأبد «بحرارة» إننى ازدرى من هن على هذه الشاكلة فليست لهن شخصية.

ويدور الحوار عن مهنة الأم، فتبدى هذه ما تعانيه كى تحتمل رجلا يستخف ظله وهو يتقرب إليها.. «ولكنها أفضل بكثير من ألوان الخدمة الأخرى. صحيح أنك لو مارستها لكنت حمقاء، ولكنى كنت خليقة بأن أكون حمقاء لو أننى اتخذت مهنة أخرى» . فتسألها الفتاة عما إذا كانت ترتضى لها أن تعمل خادما فى حانة، أو عاملة فى مصنع لو أنهما كانتا فقيرتين؟. فتصيح مسز وارين فى شمم: «أى نوع من الأمهات تظنيننى؟. كيف تحفظين كرامتك فى مثل ذلك الجوع وتلك العبودية؟. وما قيمة المرأة، بل ما قيمة الحياة بلا كرامة؟. إننى لست حرة وقادرة على أن أتيح لابنتى أرقى تربية إلا لأننى أعرف كيف أحترم نفسى».

Telegram: electronic_library

فيفى «مبهورة»: أنك لرائعة يا أمى العزيزة. أنك أقوى من انجلترا بأسرها؟. أصحيح أنك لا يساورك أتفه شك، أو... أو خجل؟.

مسز وارين: إن الخجل من هذه المهنة من حسن الخلق المرتجى من أية امرأة، بطبيعة الحال. فعلى النساء أن يتظاهرن بالشعور بكثير مما لا يشعرن به. ولكنى لا أطيق أن أقول شيئا بينما يعرف الناس أننى اعنى شيئا آخر، إذا ما جدوى الرياء؟. لا، ما خجلت من مهنتى يوما خجلا حقيقيا.. بل أرى أنه كان من حقى أن أفخر بتوفيقنا إلى تسيير كل شئ فى احترام، حتى لقد تزوجت إحدى فتياتنا من سفيرٌ.

فيفى: لقد غلبتنى الليلة يا أماه، بالرغم من أننى كنت أعتزم العكس.. لنكن صديقتين.

وتعانق الأم ابنتها وكأنها تحميها، وترفع بصرها إلى السماء - بحافز غريزى - وكأنها تشد أن تباركهما العناية الإلهية.

■■■

Telegram: electronic_library

3

وترفع ستار الفصل الثالث عن القس وابنه فى حديقة دارهما وقد بدا القس متوعكا، وزاده استياء أن زوجته ذهبت إلى المدينة فى الصباح الباكر، برغم وجود ضيفهما فى الدار، فيقول فرانك ساخرا: «لعلها راعت ذلك، ولو أن كروفتس كان ينوى البقاء هنا، واعتزمت أنت أن تجلس معه كل ليلة إلى الساعة الرابعة صباحا، تتذكر أحداث صباك الجامح، فليس بوسع أمى سوى أن تقوم بنفسها بشراء لوازم البيت، وبطلب برميل من الويسكى له ولك. ما رأيت رجل دين يشرب كما شربت أنت.. ولكم كانت أحداث ماضيك فظيعة» .. ويبهت القس حين يعلم أن مسز وارين وابنتها مدعوتان إلى داره، فيقول فرانك:

«وكيف تجزم بأنك وأنت ثمل لم تعرب عن رغبتك فى دعوتهما بل كيف تعرف ما بدر منك من كلام ليلة أمس؟»

وينصرف القس متعثرا، مضطربا، بينما يفد برايد فينتقد فرانك لأنه لا يبدى لأبيه احتراما.

فرانك: ولكن، تصور كيف أنه أخبر كروفتس بأن يدعو مسز وارين وابنتها إلى هنا؟. لابد أنه كان ثملا جدا، فإن أمى لا يمكن أن تطيق مسز وارين لحظة. وليس لفيفى أن تأتى إلى هنا إلا بعد أن ترحل أمها

Telegram: electronic_library

إلى المدينة. إن سفر أمى اليوم يوحى بأنها تعرف كل شئ عن مسز وارين.

وتصل مسز وارين وابنتها مع كروفتس، فيقف فرانك وبرايد يتأملانهما ولا يلبث الأول أن يقول: «ألا يقشعر بدنك إذ ترى هذه الشيطانة القادرة على كل شر، مع فيفى؟... عجبا!. انظر، إن فيفى تحيط خصر العجوز بذراعها».

ويرافق القس ضيوفه ليريهم الكنيسة، بينما تبقى فيفى مع فرانك، فتحذره من أن يسخر من أمها مرة أخرى، وتسأله أن يعاملها بما يعامل به أمه من احترام، فيصيح: «ولكنها لن تقدر ذلك.. ثم، ما الذى دهاك حتى تحولت بين عشية وضحاها؟».

فيفى: إننى اليوم أعرف أمى خيرا مما تعرفها أنت.. لو أنك علمت بالظروف التى كان على أمى أن تكافح ضدها.

فرانك: وما الفارق؟.. أنك لن تستطيعى أن تحتمليها سواء كانت ثمة ظروف أو لا ظروف، فهى عجوز شريرة ولو أنك أحطت خصرها بذراعك أمامى مرة أخرى، فسأطلق الرصاص على نفسى احتجاجا على منظر يثيرنى. أنها قد تكون من أصل طيب، ولكنها فاسدة جدا.

فيفى: وهل تهجرها الدنيا بأسرها لهذا؟. أليس لها حق فى أن تعيش؟.

فرانك: أنها لن تكون منبوذة، ولكنك يجب أن لا تعيشى معها. إنها كفيلة بأن تفسد فريقنا. فريق ابنى الغابة، فيفى وفرانك. تعالى نستتر بورق الشجر. الفتاة الصغيرة العاقلة، والفتى الصغير الطائش. لنعش فى دعة دائمة بعيدا عن حماقات والد الفتى وعن ريب أم الفتاة. «يتعانقان ويتأرجحان فى وقفتهما فى نشوة حالمة».

Telegram: electronic_library

فيفى «منساقة للنوبة العاطفية»: صه!.. إن الفتاة الصغيرة تريد أن تنسى كل شئ عن أمها.

ويظلان متعانقين فى وجد ويسودهما الصمت فترة. ثم لا يلبث كروفتس أن يفاجئهما، فيسأل الفتاة أن تتصت إليه على حدة.

ومن ثم ينسحب فرانك إلى داخل الدار. ولا يلبث كروفتس أن يبدى الرثاء لأن فرانك معدم ومتعطل، بالرغم من أنه شاب لطيف. ويروح يطرى نفسه، ووفاءه، وثراءه، ويعرض عليها الزواج، ولكنها ترفض رفضا جازما، فلا ييأس. ويقول: «بوسعى أن أنبئك بما يغير رأيك، ولكنى أوثر أن أكسبك بالود الصادق الأمين. لقد كنت صديقا حميما لأمك، وما كان بوسعها أن تدخر المال لتربيتك وتعليمك لولا نصحى. بغض النظر عما أقرضتها فى البداية. وما من أحد وقف إلى جوارها مثلى، فقد كبدنى ذلك مبلغا كبيرا»

فيفى «مبهوتة»: أتريد أن تقول أنك كنت شريك أمى فى العمل؟

كروفتس: أجل، ولا أزال.. أنها ليست بالتجارة التى تعتبر لائقة فى نظر الطبقة التى انتمى إليها. ولابد أنك تعلمين أنها كانت تجارة أمينة، فإن أمك تؤثر أن تقطع يداها على أن تأخذ ما ليس من حقها. سأحدثك عن هذه التجارة إذا شئت. إننى لا أدرى ما إذا كنت تعرفين مدى ما يلقاه المسافر من عناء فى سبيل العثور على فندق خاص مريح «يبدو الاشمئزاز على الفتاة» وقد أوتيت أمك عبقرية فى إدارة مثل هذه المشروعات. ولدينا اثنان فى بروكسل، وواحد فى أوستند، وآخر فى فيينا، واثنان فى بوادبست. ومن الطبيعى أن معنا شركاء، ولكنا صاحبا الشطر الأكبر من رأس المال. ولا غنى للمشروع عن أمك كمديرة. ولكنك لا تستطيعين أن تذكرى هذا فى مجتمع عام، فما أن تلفظى كلمة فندق حتى يقول كل امرئ

Telegram: electronic_library

أنه بيت عام. بيت للهوى. وما أظنك تحبين أن يقال هذا عن أمك، وهذا هو السر فى تكتمنا الأمر.

فيفى: وهذه التجارة. أتدعونى إلى الانضمام إليكما فيها.؟

كروفتس: لا، فلست أحب لزوجتى أن تحمل هم التجارة، ولن تشتركى فيها بأكثر مما تشتركين الآن. أى أنك عشت دائما عليها، فهى التى درت نفقات تعليمك وكسائك.

وإذ ذاك تفاجئه فيفى بأن أمها قد صارحتها بحقيقة هذه التجارة، فيغتاظ ويسخط، بينما تقول: «أحسبك تفهم أن معرفتنا تنتهى بمبارحتنا هذا المكان غدا. لقد كانت أمى امرأة فقيرة لا تملك أن تختار سوى ما فعلت. أما أنت فكنت سيدا راقيا، غنيا، فعل الشئ ذاته ليكسب من ورائه. فما أنت سوى وغد وضيع»

كروفتس: إننى أتقاضى فائدة عن أموالى لا أكثر. وما أظنك ترفضين معرفة ابن عم أمى «دوق بلجرافيا» لأن بعض الإيجارات التى يحصلها تأتى من موارد غير شريفة، أو أسقف كنتربورى لأن بعض مستأجرى أملاك الكنيسة من باعة الخمور والآثمين. إذا أصررت على أن تختارى معارفك على أسس من مبادئ الأخلاق، فمن الخير أن ترحلى عن هذه البلاد.

وتهم الفتاة بمبارحة الحديقة بعد أن تصب عليه احتقارها فيحاول أن يعترض طريقها، وإذ ذاك تهز جرس باب الحديقة فيبادر إليها فرانك وهو يحمل بندقية، ويمعن بدوره فى تحقير كروفتس.

كروفتس: إذن، فلأقل لكما شيئا قبل أن أغادركما. شيئا يهمكما لأن كلا منكما مشغوف بالآخر. أسمح لى أن أقدم لك يا سيد فرانك أختك غير الشقيقة، كبرى بنات القس المبجل صمويل جاردنر «ويشير إلى فيفى».

Telegram: electronic_library

وينصرف، فيقف الشابان مبهوتين فترة، ثم يصوب فرانك البندقية نحو ظهر كروفتس، ولكن «فيفى» تجذب فوهتها نحو صدرها، وتقول: «أطلق النار الآن!.» . ويجذب البندقية فتقع على الأرض، ويقول: «هونى عنك.. إذا كان هذا الوغد قد قال الحقيقة لأول مرة فى حياته، فلن يزيدنا هذا إلا إيمانا بأننا ابنا الغابة المتحابان». ولكن الفتاة تصرخ فى اشمئزاز، وتتصرف، فيهرع خلفها.

■■■

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

4

وترفع ستار الفصل الرابع عن «فيفى» وقد أصبحت شريكة لزميلة لها فى مكتب للأعمال المالية بلندن، ونراها فى المكتب بعد ظهر أحد أيام السبت، وحيدة وقد انصرف سواها للاستمتاع بسهرة نهاية الأسبوع. ولا يلبث أن يفد «فرانك» فى ثياب أنيقة، فيحاول أن يغريها بالخروج معه، ويعرض عليها حفنة من النقود قائلا أنه كسبها من المقامرة، فتصيح فيه: «أنها أدنأ من السرقة.. لا، لن أخرج معك».

وتشعل سيجارة، فينظر إليها فى عجب وحيرة، ولا يلبث أن يقول: «اسمعى يا فيفى، لقد افترقنا فى ذلك اليوم ونحن فى سوء فهم كامل. أتذكرين ما قاله كروفتس؟. كان المفروض أن يؤدى ما كشفه إلى تغير فى طبيعة شعور كل منا نحو الآخر، إذ أنه جعلنا أخوين. فهل كان لك أخ يوما ما؟» .. وتقول، وهى تطفئ سيجارتها: «كلا».

فرانك: إذن فأنت لا تعرفين كيف يكون شعور الأخت التى أوتيت أخا؟. أما أنا فلى شقيقات عديدات، فالشعور الأخوى مألوف لدى، وأؤكد لك أن شعورى نحوك لا يشبهه فى شئ إطلاقا. إن شقيقاتى لن يلبثن أن يتفرقن فى سبيلهن، وأنا لن ألبث أن أذهب فى طريقى. وهذا هو أمر الأخ والأخت. أما أنت، فلست احتمل أن أقضى أسبوعا دون أن أراك، فالذى بيننا ليس

Telegram: electronic_library

شعورا بين أخ وأخت. إنه عين ما كنا عليه قبل أن يكشف لنا كروفتس السر بساعة. وقصارى القول يا عزيزتى فيفى، إن الذى بيننا هو حلم الغرام الشاب.

فيفى «بلهجة لاذعة»: عين الشعور الذى جعل أباك يجثو عند قدمى أمى.. أليس كذلك؟.

ويؤكد لها أن أباه قد أنكر ما رواه كروفتس إنكارا تاما.

فيفى: وهل يغير هذا من الأمر.. أعنى فى تصورك، أو خيالك، أو ضميرك؟.

فرانك «محملقا فيها»: لقد ظننت أن علاقتنا قد تبدلت فى تصورك وضميرك ـ كما تقولين ـ فى اللحظة التى انطلقت فيها تلك الكلمات من فم ذلك الوغد.

فيفى: لا، ليس الأمر كذلك فإننى لم أصدقه.. ليتنى أستطيع، فإنى أرى أن الإخوة خير علاقة تلائمنا. أنها العلاقة الوحيدة التى أحفل بها.. هذا رأيى الذى أصر عليه. ويوحى هذا إلى فرانك بأن فيفى متعلقة برجل آخر، فيهم بأن يثور ويغضب لولا أن يأتى «برايد» ليودع فيفى وقد تأهب للسفر إلى إيطاليا. ويروح يغرى الفتاة بأن تسرى عن نفسها، وأن تستمتع بجمال الحياة والعواطف، وأن ترافقه إلى مدن أوربا. ويمضى قائلا: «إن روحك خليقة بأن تطير محلقة لمجرد مرأى أوستند.. ولسوف يفتنك مرح بروكسل وجوها الناضح بالسعادة»

وتقفز فيفى من مكانها محنقة، عند ذكر المدينتين اللتين قال «كروفتس» أن لأمها بيوتا للهوى فيهما، ويدهش برايد ويتساءل وهو ينقل بصره بينها وبين فرانك: «ماذا فى الأمر؟». ويحاول فرانك أن يعالج الموقف بالفكاهة

Telegram: electronic_library

والسخرية، ولكن فيفى تصرخ فيه أن يسكت، ثم تقول: «أحسبكما تظنان أننى أصبت بنوبة عصبية. لا، ولكن هناك موضوعين أحب أن تطرحاهما عن ذهنيكما. أحدهما «موجهة الكلام لفرانك» هو حلم الغرام الشاب، فى أى شكل من أشكاله أو لون من ألوانه. والثانى «موجهة الكلام لبراید» هو جمال الحياة والعواطف، لا سيما فى «أوستنتد» والمرح الذى تتسم به «بروكسل» . وإذ كنتما تريدان أن نظل ثلاثتنا أصدقاء، فلابد من أن تعاملانى كامرأة ذات عمل وقد نذرت أن تظل بلا زواج دائما وغير راغبة فى الجمال والعواطف».

فرانك: سأظل أنا الآخر أعزب إلى أن تغيرى رأيك. حدثنا فى موضوع آخر يا براید.

براید: يخيل إلىّ أنه ليس فى الحياة موضوع أحسن الكلام فيه. إن رسالة الفت هى الإنجيل الوحيد الذى أستطيع أن أبشر به، ولكنى أعرف أن مسز وارين من أشد المؤمنات بإنجيل العمل والسعى. وليس بوسعنا أن نتكلم فى هذا دون أن نجرح شعورك يا فرانك، طالما أنت مصر على أن لا تعمل ولا تسعى.

فيفى: إذا لم يكن فى الحياة غير هذين الإنجيلين يا مسز براید، فجدير بنا أن نقتل نفسينا، لأن جوهر الاثنين واحد.

فرانك «يتأملها متفحصا»: إن فيك اليوم مسحة من الشاعرية كانت تنقصك من قبل يا فيفى.

براید «محتجا»: ألا ترى أنك تثقل عليها قليلا يا عزيزى فرانك؟.

فيفى «فى قسوة على نفسها»: كلا، فإن قسوته خير لى، إذ أنها تمنعنى من أن أنساق للعواطف.. «فى شبه هياج عصبى» لا تشفق علىّ

Telegram: electronic_library

يا فرانك لقد كنت عاطفية للحظة واحدة فى حياتى. تحت ضوء القمر. أما الآن..

وإذ يفطن فرانك إلى أنها تعنى اللحظة العاطفية التى ضمتهما قبل أن يدخل كروفتس بينهما ويسمم هناءهما بما ذكره عن مسز وارين، يهتف بها محذرا من أن تعود للذكرى.

فيفى: أتظن أن مستر برايد لا يعرف كل شئ عن أمى؟. «لبرايد» كان خيرا لو أنك صارحتنى بالحقيقة فى ذلك الصباح.

برايد: أنك رجعية فى آرائك، متعنتة. وأميل إلى ان أقول لك أن أوثق الروابط الإنسانية تتجاوز كل قانون وتعلو عليه. ومع أننى أعرف أن أمك امرأة غير متزوجة، إلا أن هذا لا يقلل من احترامى لها، بل إنه يزيده.

ويهتف فرانك إعجابا، فتحملق «فيفى» فيه، ثم فى «برايد».

فيفى: إذن فكلاكما لا تعرفان شيئا، إذ أن ما يخطر لكما برئ ساذج إذا قيس بالحقيقة.

برايد «ينهض فى استنكار وجزع»: آمل أن لا يكون كذلك. هل تعتقدين أن من حقك أن تخبرنا إذا كان الأمر أسوأ مما نتصور؟.

فيفى: أعتقد أننى لو أوتيت الشجاعة لقضيت بقية عمرى فى إطلاع كل امرئ عليه وبثه فى نفوسهم حتى يتغلغل فيها ويشعروا جميعا بنصيبهم من بشاعته، كما أشعر بنصيبى. لست أزدرى شيئا قدر ذلك العرف الخبيث الذى يتستر على هذه الأمور بتحريم ذكرها على المرأة. ومع ذلك فليس بوسعى أن أخبركما.. إن الكلمتين النابيتين اللتين تصفان أمى لا تزالان ترنان فى أذنى، وتناضلان لسانى، ولكنى أعجز عن لفظهما. إن ما فيهما من خزى جد فظيع بالنسبة لى.

Telegram: electronic_library

تدفن وجهها فى راحتيها، بينما ينقل كل من الرجلين بصره بينها وبين صاحبه فى حيرة ودهشة. ولا تلبث أن تتناول ورقة وتكتب:

«رأس مال مدفوع: لا يقل عن ٤٠,٠٠٠ جنيه، باسم السير جورج كروفتس، صاحب القسط الأكبر من الأسهم. منازل فى بروكسل، وأوستند، وفيينا، وبودابست. مديرة الإدارة: مسز وارين»

فيفى: ولا ينبغى أن ننسى مؤهلاتها.. تلكما الكلمتان «تكتب الكلمتين، ثم تدفع الورقة إليهما» أواه!.. لا، لا تقرآهما.. لا تقرآهما

وتنتزع الورقة فتمزقها إربا، ثم تعتمد رأسها بيديها، وتخفى وجهها على سطح المكتب الذى تجلس إليه. ويكون فرانك قد قرأ ما كتبت فيتناول من جيبه بطاقة يكتب فيها الكلمتين، ويدفع بها إلى برايد فى صمت، فيقرأ هذا الكلمتين فى عجلة، ثم يخفى البطاقة فى جيبه. وفى صوت خافت حنون، يؤكدان للفتاة أن ودهما واحترامهما لها لم يقلا قيد شعرة، ويقول برايد: «أنك أروع شجاعة قابلتها». وتتجلد فيفى فتقاوم خجلها وتنهض متحاملة على نفسها، وتسير نحو باب حجرة مجاورة، ولكنها تقف على مقربة من برايد.

فيفى: سأحتاج إلى أضعاف هذه الشجاعة عندما أقول لأمى أننا قد بلغنا مفترق الطرق، ولابد لنا من أن نفترق. سأدخل الغرفة الأخرى لأسوى مظهرى.

وما أن تغيب عنهما، حتى يقول «فرانك» أنه لم يعد راغبا فى الزواج من «فيفى» . ويلومه «برايد» فى استنكار فيصارحه الشاب بأنه لا يبنى قراره على اعتبارات خلقية، وإنما على أنه لا يستطيع أن يحمل نفسه على أن يمس نقود أمها، فهو لا يملك مالا، وسيكون على «فيفى» أن تعوله إذا هو تزوج منها.

Telegram: electronic_library

ويجلس حيث كانت فيفى تجلس، ويشرع فى كتابة رسالة وداع لها، يضعها على فوهة المحبرة، حتى تجدها الفتاة إذا جلست إلى مكتبها

وتفد مسز وارين فى تلك الأثناء، فما أن يراها الرجلان حتى يتمنيا أن تتصرف، إشفاقا عليها من لقاء فيفى.

مسز وارين: أتريداننى أن أنصرف؟. وعلى أن لا أراها إطلاقا بعد ذلك؟. «تبكى»

وقبل أن تبت مسز وارين فى الأمر تعود فيفى إلى الحجرة فتبادرها الأم بالتحية وهى مضطربة متوجسة وإذ ذاك ترجو الفتاة صاحبيها أن يخليا لها الجو كى تتحدث إلى أمها وتودعها. وما أن ينصرفا حتى تجلس فيفى إلى مكتبها فى وقار وجد.

مسز وارين: ما الذى جعلك ترحلين فجأة على هذا النحو يا فيفى؟. وما الذى فعلته بجورج المسكين، حتى يخافك إلى هذا الحد؟. وما معنى هذا يا فيفى؟.

وتخرج من حقيبتها خطابا من المصرف، مشيرة إليه، فتذكر لها فيفى أنها ترد إليها المبلغ الشهرى الذى كانت تمدها به، لأنها تعتزم أن تعيش من كسبها الخاص. ثم تنهض قائلة: «وداعا» .... لا داعى لمواقف لا جدوى منها، فأنت تعرفين أن سير جورج كروفتس أنبأنى بكل شئ عن مهنتك.

وتثور الأم سخطا على الرجل، ثم تقول: «ولكننى شرحت لك الظروف»

فيفى: أجل.. شرحت لى كيف بدأت ولكنك لم تذكرى لى أنك لا تزالين ماضية فى العمل.

مسز وارين: أتعرفين مدى ثرائى يا فيفى؟. أنك أصغر من أن تدركى معنى هذا الثراء. معناه ثوب جديد فى كل يوم، معناه مسارح ومراقص فى

Telegram: electronic_library

كل ليلة، معناه صفوة رجال الطبقة الراقية فى أوربا عند قدميك. معناه بيت جميل وخدم كثيرون، معناه أشهى أكل وشرب، معناه كل ما تشتهى نفسك وكل ما يخطر لك على بال. فماذا تفعلين هنا.. تشقين، وتكدحين، وتعملين من الصباح الباكر إلى ساعة متأخرة من الليل، لقاء الكفاف وأرخص الثياب.

فيفى: لابد أنك قلت كل هذا لكثير من النساء يا أماه، حتى أنك تحفظينه عن ظهر قلب.

مسز وارين «فى يأس»: أصغى إلى وافهمنى يا فيفى. لقد أخطأت فى تعليمك، فأنت لا تعرفين الدنيا على حقيقتها. أنك تطوحين بكل فرصة وحظك دون مقابل. إنك تخالين الناس كما يظهرون لك، فهكذا علمتك المدرسة ولكن كل هذا مجرد تظاهر. أتريدين أن تتبينى - بعد أن تبلغى الأربعين - أنك قد أضعت حظك، أم تحبين أن تحظى به فى الوقت المناسب، من الأم التى تحبك أصدق الحب؟. إن أعظم الناس، وأمهرهم، وأعلاهم مكانة، يفعلون ما أفعل، ويفكرون كما أفكر.. إننى لا أبغى ضرا لك، ولكن رأسك ملئ بآراء جاهلة، إذ ما الذى يعرفه أولئك الذين علموك عن الحياة وعن الناس الذين على شاكلتى؟.

فيفى: إننى أعرف فلسفة كروفتس فى الحياة يا أماه، فلقد سمعتها منه فى ذلك اليوم الذى كنا فيه لدى آل جاردنر. وأنى لأعجب بما أوتيه من عقل جعله يستمتع بما يحلو له، فيكسب لنفسه مالا وفيرا بدلا من أن يعيش لمجرد الصيد والقنص والتسكع فى الحياة كما يفعل أبناء طبقته. كذلك أعرف أن التمسك بالأخلاق ليس سوى تظاهر، وأننى لو أخذت ما لك وعشت عمرى أنفقه فى بذخ، لصرت كأغبى النساء اللاتى لا قيمة لهن. ولكن لا أريد أن أكون بلا قيمة. ولكن، لماذا لم تتركنى المهنة بعد إذ أثريت؟.

Telegram: electronic_library

مسز وارين: ليس هذا بالأمر اليسير، إذ لابد لى من العمل، ومن الانفعالات، وإلا جننت. وأى عمل لى فى الحياة سوى ذلك الذى لم أخلق لغيره. إننى لا أوذى أحدا به، فضلا عن أنه يدر على مالا وأنا أحب جمع المال.

فيفى: وأنا مثل أمى، أحب العمل، ولابد لى من أن أجمع من المال أكثر مما أنفق. ولكن عملى غير عملك، وطريقى غير طريقك، فلابد لنا من أن نفترق. فلا نلتقى أبدا «تغرورق عينا الأم» آه، لن تبدل من موقفى بضع دمعات رخيصة.

مسز وارين «محنقة»:أتسمين دموع الأم دموعا رخيصة؟.

فيفى: إنها لا تكلفك شيئا، بينما تطلبين منى أن أضحى بهدوئى وطمأنينتى طيلة العمر فى مقابلها. ثم، أى ميول مشتركة بيننا تجعلنا نسعد إذا عشنا معا؟.

مسز وارين: إننى أمك، ومن حقى أن أسعد بابنتى. منذا الذى يرعانى إذا كبرت؟. كم من فتيات كن لى بمثابة البنات، وكن يبكين حين يفارقننى، ولكننى فرطت فيهن جميعا لأننى كنت أعقد آمالى كلها عليك. ليس من حقك أن ترفضى أداء واجبك كابنة.

فيفى «مشمئزة من الصورة التى أوحى بها كلام أمها للمواخير التى تعيش فيها»: واجبى كابنة!.. أنت تتشدين ابنة، وفرانك ينشد زوجة. ولكنى لا أريد أما، ولا أبتغى زوجا. إننى لم أشفق على فرانك ولا على نفسى حين أقصيته فهل تحسبيننى أشفق عليك؟.

مسز وارين «فى غيظ»: إننى أعرف أى صنف أنت. لا ترحمين نفسك ولا ترحمين سواك. أتعرفين ماذا كنت أفعل بك لو أنك عدت طفلة؟. كنت

Telegram: electronic_library

أربيك كما ينبغى أن تربى ابنة لى، لا كما أنت الآن، مليئة بالكبرياء، والآراء المتزمتة. كنت أربيك فى بيتى.

فيفى: تقصدين واحدا من بيوتك.

مسز وارين «صارخة»: اسمعوا قولها.. إنها تبصق على مشيب أمها. يا للعقوق!. يا للعقوق!. لطالما رغبت فى أن أكون امرأة صالحة، فجربت العمل الشريف، وإذا بى أساق كالجوارى، حتى لعنت اليوم إلى سمعت فيه بالعمل الشريف. ولقد كنت أما صالحة، فإذا ابنتى تتقلب علىّ وكان بى جريا!. إننى منذ اللحظة لن أفعل سوى الشر، والشر وحده، وسأغتنى من ورائه

فيفى: أجل، من الخير أن تختارى طريقك وتمضى فيه. ولو أننى كنت مكانك لجاز أن أفعل عين ما فعلت. ولكنى ما كنت لأسمح لنفسى أن أعيش حياة غير التى أؤمن بها. ألا تريننى على صواب؟.

وتنكس الأم رأسها، وتسير إلى الباب فتسألها فيفى: «ألا تصافحيننى؟» وترمقها الأم فى حدة وكأنها تهم بان تنقض عليها، ثم تقول: «لا، شكرا، وداعا».

وتخرج وهى تصفق الباب خلفها. وإذ ذاك يخف التوتر الذى كان يسيطر على عضلات وجه «فيفى» ويشرق محياها وتنطلق منها نهنهة هى خليط من البكاء والضحك والارتياح. ثم تذهب إلى مكتبها فتجلس إليه، وتزيح المصباح جانبا، وتشد إليها كومة من الورق. وفيما تهم بان تغمس قلمها فى المداد، يقع بصرها على رسالة فرانك، فتفضها فى غير اكتراث، وتقرأها بسرعة، ثم تطلق ضحكة مقتضبة، تشى بمعنى غريب، وتقول: «... وداعا يا فرانك»

وتمزق الرسالة وتلقى بأشلائها إلى سلة المهملات فى غير تردد. ثم تقبل على عملها فى إصرار فسرعان ما تستغرق فيه وتنسى كل ما عداه.

■■■

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

السوسن
وبرعمة الورد

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

كان فى سالف الزمان إنسان فى نضرة الصبا يعيش بعيدا نحو الغرب. وكان هذا الإنسان طيبا غاية الطيبة، عجيبا مع ذلك غاية العجب، فهو دائب الحزن فى غير ما شئ، لائذ دائما بالصمت، يلتجئ إلى العزلة حين يلهو الناس، ويتعلق أمورا غاية فى الغرابة.

فالمغارة والغابة مقامه المحبوب يتحدث فيه إلى الحيوان والطير والشجر والصخر، حديث خرافة يثير الضحك، وقد جهد فى تسليته السنجاب والقرد، والببغاء والصعو. وتعبت كلها فى رده إلى السبيل السوى، لكنه ظل الساخط الكئيب.

كانت الأوزة تقص عليه مختلف الأقاصيص، وكان الغدير يترنم بينها، والحجر الضخم يقفز أثناءها قفزات مضحكة كقفزات التيس. وكانت الوردة تتبعه راضية أينما سار، وتتسلل فى خصله متوددة وكان اللبلاب لا يفتأ يلاطف جبينه الحزين.

لكنه مع هذا لم يدع الاكتئاب، ولم يزايله التجهم. فكان أبواه من جراء ذلك جد كئيبين، وكانا أبدا فى حيرة من أمره ماذا يصنعان، فقد كان صحيحا لا يزهد فى طعام، وكانا حريصين على مرضاته، وكان من سنوات مضت طروبا مرحا كما لم يكن إنسان يرتع ويلعب فى طليعة اللاعبين، ويفوز

Telegram: electronic_library

بالتفات الفتيات الحسان. وقد كان جميلا بارع الجمال، يحسبه الرائى صورة بالألوان، حاذقا للرقص كحذق العشاق. وكان فى الفتيات طفلة فاتنة يخالها من يراها قد صنعت من شمع، ناعمة الشعر كأنه حرير، شقراؤه كأنه نضار، دعجاء العينين، نامية كالدمية، قانية الشفتين فى لون العناب، يتمنى المرء لو فنى فى هواها، فبهذا القدر حسنها وصباها.

وكان السوسن - وهو اسم الفتى - يحب البرعمة - وهذا اسم الفتاة - قد أشرب حبها إلى حد الفناء. وكان سائر الفتية والفتيات يجهلون أمرهما، حتى نفضته البنفسجية على الأسماع، ولحظته القطط لتجاور البيتين، فكان السوسن وهو بنافذته ليلا، وكانت البرعمة وهى بنافذتها كذلك، تمر بهما القطط فى طلبها للجرذان، فتضحك حين تراهما واقفين، وتغرب فى الضحك بصوت مرتفع يسمعه العاشقان فيغضبان.

وقد حكت البنفسجة حكايتهما لعنب الذئب، فقصها بدوره على صديقته الفراولة فجعلت تغمز كلما مر السوسن، ثم لم تلبث الحديقة أن علمت بالأمر، وانتشر منها إلى نواحى الغابة، فكان السوسن إذا خرج إليها تجاوبت الغابة بأغنية واحدة: برعمة الورد يا حبيبة الفؤاد!..

فيغضب السوسن، ثم لا يلبث أن يضحك حين يرى السحلاة آتية تتسلل تعتلى حجرا طلبا للدفء، وتحرك ذنبها كأنها تقول:

«برعمة الورد يا طفلتى الحبيبة، ماذا دها عينيك من منظر الحبيب؟. تعانقينه كما لو كان أما، وتثبتينه فلا ترعوين. بل تمعنين فى تقبيله، ولثم وجه السوسن الغريب!..»

لكنه وا أسفاه قد ولى الهناء، إذ جاء رجل قادما من سفر بعيد الأرجاء، ذو لحية مرسلة، وعين غائرة وحاجب رهيب، وثوب عجيب، كثير التثنى،

Telegram: electronic_library

موشى بالصور. فقعد قبالة بيت السوسن فأثار منظره فيه الفضول. فجاءه يستطلع جلية خبره، وأتاه بشئ من الخبز والخمر. وفرق الرجل لحيته البيضاء، وأخذ يقص على السوسن القصص إلى ساعة متأخرة من الليل والسوسن لا يتزحزح ولا يترنح، ولا يدركه التعب ولا الملل.

وذاع فيما بعد أن الرجل الغريب قد حدث السوسن عن بلاد أجنبية، وأصقاع مجهولة، وأشياء عجيبة، وأنه قضى معه ثلاثة أيام يغوصان إلى الأعماق، وينسابان إلى الهُوى. وبرعمة الورد تصب اللعنات فى تلك الأثناء على رأس الشيخ الذى سحر السوسن واستحوذ عليه، فلم يعد يأبه لشئ غيره، اللهم إلا القليل من الزاد. ورحل الرجل بعد إذ ترك للسوسن كتيبا غامضا، وزوده السوسن بالفاكهة والخبز والخمر. وحزنت البرعمة عليه، وأزعجها جفوته وانقطاعه إلى نفسه.

وفى ذات يوم عاد السوسن فجأة إلى بيت والديه فعانق أبويه، وبكى ثم قال: " لابد لى من الرحيل إلى بلد غريب، فقد أهابت بى عجوز الغابة أن أنتجع الصحة وأحرقت كتبى وأطعمتهم النار، ثم دفعت بى إليكما أنشد بركتكما وقد أعود قريبا وقد لا أعود أبدا. فأبلغا سلامى إلى البرعمة. فقد كنت حقيقا أن أذهب إليها لولا دافع قوى يدفعنى إلى الرحيل. إنى كلما فكرت فى الأيام الخوالى تطغى على تفكيرى أفكار أقوى. فالراحة زايلتنى، والقلب والحب وليا معها عنى، فلابد من نشدانها جميعا. لوددت أن أنبئكم أين مرتحلى. لكنى أنا نفسى لا أعلم ذلك. ولعلى ذاهب إلى أم الأشياء، إلى العذراء ذات القناع فنفسى تذوب حنينا إليها. فالوداع "

وانتزع نفسه من أحضان والديه، ومضى فى سبيله إلى ما لا يعلم من وجهته. وندبه أبواه، وذرفا عليه الدمع، والتزمت برعمة الوردة مخدعها، وجرت عبراتها سخينة غزيرة. ومضى السوسن يقطع الوديان والقفاز

Telegram: electronic_library

ويعبر الجبال والأنهار، ولا قصد له إلا البلد الخفى. فكان يسأل أينما سار عن إيزيس الإلهة المقدسة: يسأل الإنسان والحيوان، والصخر والشجر، فيضحك بعضها، ويصمت البعض، ولا يفوز أبدا منها بجواب.

واجتاز أول الأمر أرضا وعرة موحشة، واعترضه الضباب والسحاب، فكان يقتحم ما يعترضه حتى إذا أتى صحارى رملية لا يدرك الطرف آخرها، وسار فوق ترابها المضطرم الوهاج جعلت نفسه تتبدل كلما أمعن فى السير فيها، فزايله اضطرابه، وازداد اطمئنانه وحال التقزز العنيف فى نفسه تدريجيا ترسلا خافتا، لكنه قوى مستحوذ. ولاح له الزمن وكأنه عبر منه شوطا بعيدا. ثم عادت الأرض غنية ثانية متنوعة، فاترة الهواء، مستوية الطريق، تستهويه أدغالها الخضراء، إلى ظلالها الفيحاء. لكنه لم يكن يفهم كلامها، ولا كانت تبدو أنها تتكلم وإن أفعمت قلبه نضرة، وأنزلت عليه السكينة والسلام.

وازداد الشوق فى نفسه كل يوم اشتعالا، وازدادت أوراق الأشجار على الأيام نضارة، وعلت أصوات الطير والحيوان، وازدادت ارتفاعا وانشراحا، وطابت الفاكهة على مر الزمن نكهة وشفاء، واشتدت زرقة السماء وحرارة الهواء، وازداد هواه اضطراما وجعلت الأيام تمر سراعا وكأنما هو من غايته قاب قوسين أو أدنى.

وفى ذات نهار صادف عينا صافية، وطائفة من الأزهار تهبط واديا بين عمد قاتمة اللون تطاول السماء، فحيته الأزهار تحية طيبة بعبارة يفهمها، فقال لها يخاطبها: أيتها المواطنات العزيزات. ترى أين مقام إيزيس وقدسها الأقدس؟. فإنه لابد أن يكون فى هذه الأرجاء وربما كنتن أدرى بهذا المكان منى.

Telegram: electronic_library

قالت الأزهار: إننا نعبر هذا المكان عبورا فحسب، ونتقدم فيه أسرة من الأرواح نمهد لها السبيل ونعد المقام. وقد مررنا منذ هنيهة بإحدى الجهات، فسمعنا اسم إيزيس على الأفواه، فامض صعدا إلى حيث ابتدأنا فستعلم أكثر مما علمت.

وابتسمت الأزهار، وابتسمت العين إذ قالت ذلك وزودته بجرعة منعشة، ومضت الأزهار فى سبيلها وعمل السوسن بإشارتها فجعل يسأل ويسأل حتى بلغ ذلك المنزل المنشود المتوارى بين النخيل ورائع النبات فخفق قلبه خفقانا شديدا. وطغى عليه الحنين وغمره اضطراب حلو فى ذلك القدس الذى تسكنه فصول السنة على الدوام. وغلبه النعاس فى عبق العطور السماوية، لأن ارتياده قدس الأقداس إنما يكون عن طريق الأحلام. وعبرت به الرؤيا مخادع لا تعرف آخرا، وأشياء غاية فى العجب، وأصواتا ساحرة مستفزة متفاوتة، متعبدة الانسجام، وكأن ما يرى لا يجهله. لكن روعته فاتت فى نظره كل روعة. ثم اختفى عن عينيه آخر مظهر لهذه الأرض، وكأنما قد امتصه الهواء، ثم ألفى نفسه ماثلا بين يدى العذراء السماوية فتقدم فحسر عن وجهها القناع اللامع الرقيق، فإذا برعمة الورد تبدو له، وترتمى فى أحضانه.

وصدحت عن بعد موسيقى تحوط أسرار اللقاء الحبيب، وتصحب فيوض الحنين وتقصى عن المكان البهيج كل غريب. وعاش السوسن طويلا بعد ذلك ينعم بعشرة برعمة الورد، وصحبة أبويه ورفاقه المبتهجين، ورزقا الأولاد، وحمد الأحفاد لعجوز الغابة سداد الرأى، وفضل النار التى التهمت استبداد المجهول بالخيال الخصيب.

الشاعر نوفاليس

■■■

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

الرهان العجيب

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

كانت ليلة مظلمة من ليالى الخريف، وكان المليونير العجوز يذرع غرفة مكتبه ذهابا وجيئة، وهو يستعيد فى ذاكرته تلك الحفلة التى أقامها منذ خمس عشرة سنة فى ليلة مظلمة كهذه من ليالى الخريف.

لقد كان المدعوون إلى هذه الحفلة من المثقفين وعلية القوم، وتناول الحديث - فيما تناول - موضوع عقوبة الإعدام، واتفقت آراء أكثر الضيوف - وكان بينهم عدد من رجال العلم والأدب - على استنكار هذه العقوبة التى تحرم الإنسان من نعمة الحياة التى وهبها له الله، ورأوا أن يتبدل السجن المؤبد بهذه العقوبة. فعارض هو قائلا لهم:

«لست معكم فى هذا الرأى يا سادة، وصحيح أننى لم أتعرض للحكم على بالسجن المؤبد أو بالإعدام، ولكنى أستطيع - بداهة - أن أؤكد كل التأكيد أن عقوبة الإعدام ارحم وأخف وطأة وأقرب إلى الطبيعة الإنسانية من السجن المؤبد. إن الإعدام قتل سريع، ينهى حياة المذنب فى لحظات فيريحه من القلق والتعب والعذاب. أما السجن المؤبد فهو قتل بطىء، يستل حياته شيئا فشيئا ويضاعف له العذاب يوما بعد يوم»

قال أحد الضيوف: «كلا الحكمين رهيب مادامت النتيجة واحدة فليس من حق أى فرد أو أية هيئة حرمان إنسان أيا كان من نعمة الحياة»

Telegram: electronic_library

وكان بين المدعوين محام شاب، لم يجاوز الخامسة والعشرين من عمره. فلما سئل عن رأيه، قال:

«إن فى القصاص حياة للناس. لذلك أقرته شرائع السماء والأرض على السواء. على أننى لو أتيح لى يوما أن أختار بين الإعدام أو السجن المؤبد، لن أتردد فى اختيار السجن.. فالحياة، أيا كان لونها، أفضل - فى رأيى - من الموت!

ودارت بعد هذا مناقشة حادة، ثم لم يتمالك الضيف نفسه، فهتف بصوت حاد وهو يضرب المائدة بقبضته:

- هذا لغو وهراء. أنى على استعداد لأن أراهن من شاء بمليونى جنيه منى فى مقابل جنيه واحد منه على انه لن يستطيع احتمال السجن الانفرادى خمسة أعوام.

فقال له المحامى الشاب متحديا: «إذا كنت جادا فى عقد هذا الرهان، فأنا على استعداد لاحتمال السجن خمسة عشر عاما لا خمسة فقط»

فصاح الضيف: «لا أنا موافق كل الموافقة، وهؤلاء السادة الحاضرون جميعا شهود على هذا الرهان:»

وكان الضيف ماليا كبيرا، يمتلك عدة ملايين من الجنيهات، وقد عرف باندفاعه فى تنفيذ كل ما يخطر بباله من آراء ومشروعات، ولهذا أثار هذا الرهان العجيب مشاعره، فقال للمحامى الشاب ساخرا.

- أرجو أن تعود إلى صوابك يا عزيزى قبل أن تندم.. إن مبلغ مليونى جنيه لن يؤثر قليلا أو كثيرا فى حالتى المالية، ولكن من المحتمل أن تخسر أنت ثلاث سنوات أو أربع سنوات من أفضل سنوات العمر. وأقول ثلاث سنوات أو أربع سنوات فقط، لأنى موقن بأنك لن تستطيع أن تحتمل أكثر

Telegram: electronic_library

من هذه الفترة، ثم لا تنس - أيها المسكين - أن السجن الاختيارى أشد قسوة من السجن الاضطرارى. إن تفكيرك الدائم فى قدرتك على الخروج من السجن فى لحظة سيسمم حياتك، ويضاعف آلامك، ويهز أعصابك فى قسوة مروعة. أنى ارثى لك كل الرثاء!.

تذكر المليونير الكبير هذا كله وهو يذرع غرفة مكتبه جيئة وذهابا، ثم قال لنفسه:

- لماذا عقدت هذا الرهان؟. ما هى الفائدة المنتظرة منه؟. فالمحامى سيخسر خمسة عشر عاما من حياته، وسأخسر أنا مليونى جنيه، فهل سيقنع هذا الرهان الوحشى الناس بأن عقوبة الإعدام اقسى من السجن المؤبد؟. كلا:. وإنه إذن لرهان ضائع لا جدوى منه ولا خير فيه: انه دليل على حماقتى وطيشى، كما أنه دليل على طمع ذلك المحامى الشاب وعبادته للذهب.

ثم استأنف عرض موكب ذكرياته، فذكر كيف وافق المدعوون فى تلك الليلة على عقد الرهان مادام هو وذلك المحامى الشاب قد قبلا الاستمرار فيه، وكيف وضعت الشروط والالتزامات التى ارتبط بها الطرفان، عن رضى واختيار، فقبل المحامى الشاب أن يضع نفسه تحت الملاحظة الدقيقة، ليلا ونهارا، مسجونا فى حجرة منعزلة بحديقة قصر المليونير الكبير، وكانت الشروط والالتزامات تنص على أن يحرم المحامى السجين من رؤية الناس أو التحدث إليهم بالقول أو بالإشارة، أو أن يسمع أصواتهم أو يستقبل رسائلهم أو صحفهم ومجلاتهم، كما تنص على أن له الحق فى أن يحتفظ فى زنزانته بآلة موسيقية، وأن يطلب ما يشاء من الطعام والخمر والتبغ والكتب على اختلاف أنواعها، والأقلام والأوراق، وعليه أن

Telegram: electronic_library

يطلب ما يريد عن طريق كتابة رسائل قصيرة يلقى بها من نافذة صغيرة فى أعلى حجرته أو زنزانته المختارة

وتناول عقد الاتفاق كل صغيرة وكبيرة لتحديد حقوق المحامى والتزاماته خلال فترة السجن. وقد حددت من الساعة الثانية عشرة من منتصف نهار اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٧١ إلى مثل هذا التاريخ بالساعة واليوم والشهر من سنة ١٨٨٥. فإذا حاول المحامى - مجرد محاولة - أن يرتكب أى مخالفة لهذا الاتفاق، كأن يحاول - مثلا - رؤية أحد أو التحدث مع احد. فضلا عن محاولة الفرار، فانه يخسر الرهان. ولو كانت هذه المخالفة قبل الموعد المحدد لانتهاء المدة بدقائق معدودات.

كان المحامى الشاب فى خلال العام الأول من سجنه الاختيارى يعبر فى رسائله القصيرة المتلاحقة التى كان يلقى بها من النافذة - عن الآلام الرهيبة التى يعانيها من الوحدة والملل. وكانت نغمات البيانو الذى يعزف عليه فى زنزانته تنساب منها ليلا ونهارا.

ولم يرسل فى طلب الخمر أو التبغ، فالخمر كما ذكر فى رسائله تلهب الدماء وتثير الشهوة التى هى ألد أعداء السجين. كما أنه ليس أثقل على النفس من شرب الخمر الجيدة على انفراد. أما التبغ فإنه يفسد هواء الغرفة. ولكنه كان يطلب فى خلال هذا العام الأول، ألوانا من الكتب الخفيفة، والروايات العاطفية والبوليسية والمسرحيات الهزلية.

وفى العام الثانى توقفت نغمات البيانو عن الانسياب من غرفته، وبدأ يطلب كتب الأدب الكلاسيكى.

وفى العام الخامس، انسابت نغمات البيانو مرة أخرى، وبدا السجين يطلب الخمر والتبغ. وكان الذين يراقبونه خلال هذا العام يرونه يقضى أيامه فى الأكل والشرب والتدخين والاسترخاء والتثاؤب والتحدث إلى

Telegram: electronic_library

نفسه بصوت غاضب. ولم يعد يطلب كتبا، وإنما كان يقضى ساعات من الليل فى الكتابة، فإذا أسفر الصباح مزق كل ما كتب. وقد سمعه المراقبون أكثر من مرة وهو يبكى.

وفى منتصف العام السادس، بدا السجين يقبل فى شغف ونهم على دراسة اللغات والفلسفة، والتاريخ، وكان يلتهم بعقله كتب هذه الدراسات فى سرعة رهيبة، جعلت المليونير الكبير يكاد يعجز عن موافاته بكل ما يطلب فى الأوقات المحددة. وفى خلال هذه الفترة المحمومة بحب العلم والثقافة، تلقى المليونير الكبير من سجينه المحامى الرسالة التالية مكتوبة بست لغات:

«اعرض هذه الرسالة على خبراء اللغات. اجعلهم يقرؤونها. فإذا لم يجدوا فيها غلطة واحدة، فأرجو أن تطلق فى الحديقة طلقتين من المسدس لأعرف أن جهودى فى دراسة اللغات لم تذهب عبثا. إن العباقرة فى مختلف العصور والبلاد يتقنون أكثر من لغة واحدة. آه. ما أعظم سعادتى بعد أن عرفت كيف أتقن ست لغات مختلفة»

ولما عرض المالى هذه الرسالة على خبراء اللغات، لم يجدوا بها غلطة واحد، وعلى هذا أطلق من مسدسه طلقتين بالقرب من غرفة السجين.

وبعد العام العاشر، كان المراقبون يشاهدون السجين وهو يجلس الساعات الطوال أمام مائدته، لا يتحرك أو يريم. وكان يقتصر فى قراءاته على الكتب المقدسة. وقد عجب المالى وهو يرى المحامى ينفق عاما كاملا فى قراءة بضعة كتب دينية، بينما استطاع قبل ذلك أن يقرأ ويهضم ستمائة مجلد فى مختلف العلوم والفنون فى أربع سنوات!

وعكف السجين بعد ذلك على دراسة المؤلفات الخاصة بتاريخ الأديان، أما فى العامين الآخرين، فقد تباينت أنواع الكتب التى يطلبها تباينا

Telegram: electronic_library

شديدا. فهو يطلب كتابا فى العلوم الطبيعية، ثم كتابا عن بيرون أو شكسبير، وآخر عن العلوم الكيميائية أو المذكرات الطبية. فكان مثله فى تلك الفترة مثل الغريق فى بحر ملىء بالحطام فهو فى لهفته للنجاة، يتشبث بقطعة من هذا ?الحطام بعد أخرى.

تذكر المالى الكبير هذا كله، ثم قال لنفسه:

ـ غدا، فى الثانية عشرة ظهرا، سيظفر المحامى بحريته!. وسيتحتم على، طبقا للشروط والالتزامات، أن أدفع له مليونى جنيه. فإذا نفذت هذا الشرط فقد حل بى الخراب والدمار حتى نهاية العمر.

لقد كان المالى، قبل خمسة عشر عاما يملك عددا لا يحصى من ملايين الجنيهات، ولكنه الآن لا يدرى أيهما أكثر، أمواله أم ديونه.

فقد افتتح فى خلال هذه الحقبة من الزمن بضع شركات وأنشأ بضعة مصاريف مالية، وضارب فى بورصة الأموال ونفذ كل ما كان يخطر بباله من المشروعات وانتهى به الأمر إلى لون من الفوضى والاضطراب المالى، حتى أصبح لا يدرى أهو ثرى كبير، أو مفلس كبير؟. وعاد يحدث نفسه وهو يخفى وجهه بين يديه قائلا:

ـ هذا الرهان اللعين... لماذا لم يقض هذا المحامى نحبه؟. أنه الآن فى الأربعين من عمره. لسوف يعتصر آخر قرش من ثروتى، ويتزوج ويستمتع بالحياة، وينمى ثروته. بينما أنا.. أنظر إليه كأى متسول حسود. وسوف أسمعه فى كل يوم يقول لى فى سخرية وهو يقدم لى مبلغا من المال على سبيل الإعانة: «هذا مبلغ بسيط أقدمه إليك اعترافا بالجميل» .. لا... لا... هذا المصير الرهيب لا يمكن احتمال. إن الحل الوحيد لاجتناب الإفلاس والفضيحة هو.. أن يموت هذا الرجل.

Telegram: electronic_library

ودقت الساعة ثلاث دقات بعد منتصف الليل. وأرهف المالى سمعه، إن السكون يشمل القصر كله. كل من فيه مستغرق فى النوم.. أشجار الحديقة المغطاة بالصقيع هى وحدها التى ترسل أنينها عبر النافذة.

وتناول الرجل من درج خزانته مفتاح باب الزنزانة التى لم يفتح منذ خمسة عشر عاما. وتسلل من القصر إلى الحديقة الغارقة فى الظلام والبرد والمطر. وسار فى حذر وهو يرهف السمع ويمد البصر حتى بلغ الجناح القصى حيث زنزانة السجين.

ثم هتف بصوت خافت مناديا الحارس. فلما لم يسمع مجيبا، أدرك أنه يحتمى من البرد أو استغرق فى النوم فى حجرته الخاصة الملحقة بجناح السجن.

وحدث المالى نفسه قائلا:

ـ لو تذرعت بالشجاعة فى تنفيذ مأربى، فسوف يقع عبء الجريمة على الحارس.

وتحسس فى الظلام الدرجات المفضية إلى الجناح، ثم فتح ـ فى حذر شديد ـ باب الردهة الواقعة أمام الزنزانة.. إن الحارس غير موجود بها. لا شك أنه نائم فى المطبخ أو فى الحديقة الشتوية. وفى ضوء عود من الثقاب رأى المالى أختام باب الزنزانة سليمة، لم تفض ومن نافذة المراقبة رأى السجين ـ فى ضوء قنديل السجن ـ جالسا إلى مائدته موليا ظهره للباب لا يتحرك.

ومضت خمس دقائق دون أن يتحرك السجين. لقد عرف فى خلال خمسة عشر عاما من السجن الانفرادى، كيف يبقى هكذا فترة طويلة دون

Telegram: electronic_library

حراك، إن المالى ينقر بإصبعه على حافة النافذة ولكن السجين يبقى فى مكانه لا يريم.

وأخيرا تناول المالى الكبير من جيبه مفتاح الزنزانة ونزع الأختام من موضعها، ثم أدار المفتاح فى الثقب الزاخر بالصدأ ثم دفع الباب فى حذر وهو يرتعد بعنف، ثم تسلل داخلا وشاهد أمام المائدة رجلا جالسا.. إنه المحامى السجين نفسه. ولكن يا للهول!.. ما أبعد الشبه بينه وبين الآدميين. إنه شبح رجل. هيكل عظمى مشدود عليه جلد آدمى شاحب رهيب. الشعر الطويل الذى وخطه الشيب ينسدل على الكتفين، واللحية مهوشة تغطى الصدر كله، والوجنتان غائرتان، والجفنان مسدلان ولا يمكن لأحد أن يصدق أن هذا الهيكل الآدمى لشخص لم يتجاوز الأربعين من عمره.

وقال المالى لنفسه: «يالالا حمق المسكين!. لا شك أنه نائم يحلم بالملايين. ما علىّ إلا أن ألقى بهذا الميت الحى على فراشه واضع الوسادة بضع لحظات على شفتيه فيموت فى ثوان معدودات ولا يستطيع أى طبيب أن يفطن إلى سر موته.

ثم أردف قائلا حين لمح قصاصة من الورق مكتوبة على المائدة:

- ولكن.. لأقرأ أولا آخر ما كتبه بيده

وتناول الورقة، وراح يقرأ ما فيها.

كان المحامى السجين قد كتب فى تلك الورقة يقول:

«غدا فى منتصف النهار سأظفر بحريتى، وبحقى الاختلاط بالناس، ولكنى أريد، قبل أن أغادر السجن وأرى الشمس والقمر، أن أقول لكم فى هذه الرسالة بضع كلمات.. إننى أكتبها وأنا فى تمام حالاتى العقلية. وأنى أشهد الله الذى يعلم خفايا القلوب أنى أحتقر هذه الحرية، وأحتقر الحياة،

Telegram: electronic_library

واحتقر الصحة، واحتقر هذه الكتب التى تزعمون أنها خلاصة الفكر الإنسانى العجيب. فى خمسة عشر عاما درست فى هدوء وروية هذه الحياة الدنيا. إننى حقا لم أكن أرى الأرض، أو الزهر، أو الناس. ولكنى كنت عن طريق الكتب أشرب رحيق الخمر، وأترنم بأعذب الأغنيات، وأنصت إلى روائع الأناشيد، وأصيد الغزلان والدببة فى الغابات، وأتبادل الحب مع النساء. النساء الجميلات الشفافات كسحائب الأثير، المخلوقات من أحلام عباقرة الشعر والأدب. هؤلاء النساء كن يزرننى فى سكون الليل، ويهمسن إلىّ بأهازيج الحب التى تدير الرأس كالخمر. فى كتبكم كنت أتسلق الجبال، وأصعد إلى القمم حيث أرى موكب الشمس فى الصباح وهى تشمل الكون فى هالة من، وكنت أرى جيوش الليل وهى تغزو الحياة بالظلام والسكون. ومن هناك فوق القمم، كنت أرى البرق وهو يومض والسحاب وهو يحبو وخضرة الغابات والحقول وتألق الأنهار والبحيرات وروعة المدن والقرى. ومن هناك كنت أسمع أغانى الرعاة، وأنين أنغام الناى فى الليل.. فى كتبكم كنت أهبط إلى الهاويات وأرى كيف تشيدون المدن وكيف تدمرونها وكيف تؤمنون وكيف تكفرون. وكيف يقتل بعضكم بعضا.

«لقد منحتنى كتبكم الحكمة. وفى أعماق عقلى الذى لا يزيد حجمه المادى على قبضة اليد تركزت كل ما أنتجته القرائح البشرية على مر السنين. لقد أصبحت الآن أكثركم حكمة، وأشدكم ذكاء، وأعرف منكم بأسرار الحياة.

«ومع هذا كله فإنى أحتقر كتبكم هذه. احتقر كل بركات الأرض. أحتقر هذه الحكمة التى تزعمونها. أحتقر هذا كله لأنه هباء. هشيم تذروه الرياح. خيال وأوهام وسراب. ماذا تجدى الحكمة والكبرياء والذكاء، والجمال. ما دام الموت هو النهاية المحتومة لكل هذا؟.. نعم.

Telegram: electronic_library

لسوف يمسحكم الموت جميعا كأنكم قطيع من الفئران البائسة. سيمسح ثرواتكم وتاريخكم وخلود ذكر عباقرتكم ونوابغكم، ويقضى على كل ما أنتجته عقولكم وأيديكم.

«إنكم جميعا مخبولون، ضللتم الطريق، ظننتم الباطل حقا، والقبح جمالا. تدهشون إذا رأيتم الأشجار تثمر الأفاعى والضفادع بدلا من الفاكهة، والأزهار تفوح بالنتن وروث الماشية بدلا من العطر والشذى. وهكذا أنا فى عجب عاجب منكم، لأنكم تتركون طريق الحق المنير، إلى طريق الباطل المظلم، وتتجنبون روحانية السماء لتتكالبوا على ماديات الأرض. ولكنى، برغم دهشتى، لا أريد أن أفهمكم.

«ولكى أبرهن على احتقارى لأطماعكم وأهدافكم المادية، سوف ألقى إلى التراب بمبلغ المليونى جنيه الذى ظننت يوما أن سيفتح لى الطريق إلى الجنة، وأصبحت الآن أحتقره وأزدريه.. نعم.. سأحرم نفسى من كل حق فى هذا المبلغ وذلك بأن أهرب، قبل موعد الإفراج بخمس دقائق. وبهذه الوسيلة أخلف نص الرهان»

وحين بلغ المالى هذا الجزء من الرسالة، وضعها على المائدة وانحنى وقبل الرجل العجيب فى رفق ومودة، ثم شرع يبكى وهو يغادر الزنزانة، ثم الجناح كله.

إنه لم يشعر فى حياته كلها، حتى عندما فقد ثروته فى المضاربات، بمثل ما يشعر به الآن من احتقار شديد لنفسه، وازدراء لشخصه ولقد ظل حتى الصباح وهو يتقلب فى فراشه باكيا مهتاج النفس.

وفى نحو الحادية عشرة من اليوم المحدد، هرع حارس السجن إليه مضطربا هاتفا:

Telegram: electronic_library

– أيها السيد.. لقد رأيت السجين وهو يغادر غرفته عن طريق النافذة، ثم ينطلق فى الحديقة ويختفى.

وتظاهر المالى بأنه لا يعرف شيئا وأسرع مع الحارس إلى غرفة السجين حيث وجدها خالية. وقبل أن يغادرها، لم ينس أن يلتقط الرسالة الأخيرة ليحتفظ بها فى خزانته.

انطون تشيكوف

■■■

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

أشواك الحب

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

نشأ «جو لارابى» فى الطبقة الوسطى الصغيرة فى ولايات الغرب الوسطى من عائلة أدنى إلى الفاقة منها إلى اليسار. وفيه نزعة قوية إلى فن التصوير. حتى أنه وهو فى سن السادسة رسم صورة لأحد أعيان البلدة وهو يمر أمام مضخة الحريق الكبيرة. فنالت الصورة إعجاب الناس واشتراها الصيدلى وعلقها فى واجهة متجره بين نماذج المأكولات المحفوظة وسنابل القمح الخضراء التى يتفاءل بها الناس من بواكير المحصول فى كل عام. وما أن ناهز العشرين من عمره حتى غادر بلدته السحيقة إلى نيويورك وقد تدلت حول عنقه ربطة كبيرة هفهافة، واستقرت فى جيبه حافظة بها رأس مال لا بأس به من مدخرات الوالدين. وشيعته الدعوات والآمال العريضة إلى المدينة الكبرى.

و«دليا» فتاة نشأت فى قرية من قرى الجنوب. وأظهرت منذ نعومة أظفارها تفوقا بارزا فى العزف والغناء. فاكتتب ذووها الفقراء حين بلغت السابعة عشرة كى ترحل إلى الشمال حيث مناهل الفن العظمى لتستكمل هناك ثقافتها وتغدو يوما ما بلبلا من البلابل الصداحة التى تتردد أنغامها وأسماعها فى جنبات القارة الأمريكية.

وقدر «لجو» و «دليا» أن يلتقيا فى نيويورك فى ندوة من الندوات التى يجتمع فيها طلاب الفن وطلاب الموسيقى للنقاش فى أعمال: واجنر

Telegram: electronic_library

ورامبرت. والصور التى تزخرف بها أوراق الحيطان وموسيقى الموالد والأعراس والمارشات. وما لا أدرى ماذا أيضا من ببغائيات الشبان الذين يدرسون الموسيقى والرسم.

واغرم «جو» و «دليا» أحدهما بالآخر. أو كلا منهما بالآخر. فالمهم أنهما وجدا نفسيهما بعد وقت قصير زوجين. وبدأت حياة مستر ومسز «لارابى» فى شقة صغيرة. ليست تحت مستوى الأرض بكثير. فهى بمعزل فى ذلك البدروم عن بقية المساكن فى المبنى. ولكن الزوجين الشابين كانا لا يلقيان بالا إلى تلك العزلة. بل لعلهما كانا يرحبان بها لما وجداه فيها من دواعى الألفة واجتماع الشمل. ثم يجب ألا ننسى أنيسهما المشترك بل معبودهما المشترك. وهو الفن الذى يحبه كلاهما. فلو سئلا عن نصيحة يوجهانها إلى الناس لقالا:

- أيها الشبان الأغنياء من الجنسين. فليذهب كل واحد وكل واحدة منكم وليبع كل ما يمتلك من حطام الدنيا ثم فليوزع ثمنه على الفقراء. ليحتذى مثالنا ويكون قلبه خالصا للحب والفن.

وليصدقنى سكان القصور والمساكن الفسيحة والطوابق العالية والبساتين الفيحاء، أن الحب ينسى الإنسان ضيق المسكن. فصاحبنا جو لم يكن يزعجه قرب الحيطان بعضها من بعض. بل لعله لم يكن يكره أن يقع بعضها على بعض ما دامت دليا بين ذراعيه. وكان جو يتدرب على الرسم لدى الأستاذ العظيم صاحب الشهرة المستفيضة. وكان أجر هذا الأستاذ عاليا جدا. ودروسه خفيفة جدا. واجتماع الارتفاع فى الأجر مع الخفة فى الدرس لابد أن يجلب الشهرة لأى أستاذ فى بلد مثل نيويورك.

وظل الشابان سعيدين على مدى الأيام التى ثبتت فيها النقود أمام نفقات نيويورك ونفقات الحب الشاب. وكانت أمالهما الكبار منعقدة أولا

Telegram: electronic_library

وقبل كل شئ على نجاح «جو» فى أقرب وقت فى إخراج لوحات ملونة تعجب السادة الأفاضل النقاد. ومن ثم تعجب السادة الأفاضل المشترين فى معارض الفنون. وفى الوقت نفسه تكون «دليا» قد أتمت أو كادت تتم تدريبها على الموسيقى وصارت لها سمعة تدفع المتعهدين إلى التعاقد معها لآجال طويلة. وتسمح لها إذا وجدت القاعة ذات ليل نصف خاوية أن تتعلل بنزلة برد عارضة وتتناول عشاء لذيذا من الجمبرى غير ملقية بالا إلى توسلات المتعهد ومدير المسرح. ولعل أبدع ما فى حياة الزوجين الشابين هو تلك الأحاديث الطلقة الظريفة التى تتدفق بالحيوية والأمانى والأشواق بعد الانتهاء من كد العمل، فى الدراسة والتمرين وهما يتناولان شطائر الزيتون والجبن فى الساعة الحادية عشرة من كل مساء. ولكن الأيام كذبت الآمال. ولم ينجز الفن وعوده الكبار وسرعان ما أعوزهما المال ليدفع «جو» أجر أستاذه المرتفع ولتدفع «دليا» أجر الهر «روز نستوك» فقررت «دليا» أن تعطى دروسا خاصة فى الموسيقى لتستعين بذلك المورد على نفقات المعيشة وأجور الأستاذين. وظلت «دليا» تجوب أطراف نيويورك ثلاثة أيام تلقى شباكها لتصيد التلاميذ. فكانت الشبكة تخرج خاوية. فلما كان اليوم الرابع عادت «دليا» متهللة الوجه. وهتفت بقرينها الشاب وهى فى أقصى حالات السرور والطرب:

- أخيرا يا عزيزى «جو» صارت لى تلميذة ولله ما أظرف هؤلاء الناس. أنها كريمة الجنرال أ. ت. بنكنى. ومنزلهم فى الشارع الحادى والسبعين. ويا له من منزل يا عزيزى «جو» آه لو رأيت الباب الأمامى. أظنه من الطراز الذى تسميه أنت البيزنطى. وآه يا جو لو دلفت داخل البيت!. أنى فى حياتى كلها لم أر شيئا بهذه الفخامة وتلميذتى أسمها كليمنتينا. وقد أحببتها من أول لقاء فهى رقيقة. ترتدى البياض على الدوام. وشمائلها

Telegram: electronic_library

أعذب وأرق وأبسط ما لقيت فى حياتى من الشمائل. وسنها؟. لا تزيد على الثامنة عشرة. وسأعطيها ثلاثة دروس فى الأسبوع. تصور يا جو أن أتعاب الدرس الواحد خمسة دولارات. وهذا يعنى خمسة عشر دولارا فى الأسبوع. فلو أتيح لى الحصول على تلميذتين مثلها لاستطعت أن أستأنف دروسى على يدى الهر «روزنسوك» . والآن يا حبيبى جو أصرف من فضلك هذه القطوب والغضون عن جبينك الوضاح وهيا بنا نتناول عشاءا لذيذا شهيا

وقال «جو» وهو يبتسم على مضض ويهجم بالشوكة والسكين على الطعام الذى جاءت به معها:

– هذا شئ لا بأس به بالنسبة لك. ولكن ماذا عنى أنا .أتظنينه مما يروق لى أن أتركك تكدحين فى سبيل المال وأنا أحلق خلى البال فى سماوات الفن العليا؟ كلا، وحق عظام تشلينى فى ثراه الطيب. إنه ليسعنى أن أبيع الصحف أو أصنع أى شئ من ذلك القبيل فى سبيل الحصول على دولار من هنا ودولارين من هناك.

فنهضت «دليا» ووقفت وراء ظهره، وهو يأكل وطوقت عنقه من خلف بذراعيها وقالت له:

– ما أشد بلاهتك يا عزيزى جو. إن الواجب الأوحد عليك هو الاستمرار فى دراساتك الفنية. ولا يخطرن ببالك أننى بعملى الجديد قد هجرت الموسيقى كل الهجر. فإنى استفيد وأتعلم من ممارسة التدريس. والصلة بينى وبين الموسيقى غير منقطعة. والدولارات الخمسة عشر تكفينا وزيادة نحن الاثنين. فينبغى ألا تفكر فى الانقطاع عن أستاذك.

فقال جو وهو يمد يده ليقرب من متناوله طبق الخضر واللحم:

Telegram: electronic_library

– ليكن ما تريدين. وإن كنت أكره، لك الاشتغال بالتدريس. فالتدريس ليس فنا، ولكن شهامتك هى التى دفعتك إلى هذه التضحية الجليلة، وهذا شئ لن يغيب عن بالى.

– من يعمر قلبه الحب لا يبالى أن تدمى يديه أشواكه.

– وأنى متفائل على كل حال. فقد أطرى الأستاذ طريقة تصويرى للسماء فى لوحة «البستان» . ووعدنى أن يعلق بعض لوحاتى بين المعروضات قريبا. فليس بعيدا ذلك اليوم الذى أتكسب فيه من فرشاتى.

– أنا واثقة بهذا الآن وقد فرغنا من عشائنا، هيا بنا نركع ونصلى شكرا لله لأنه قيض لنا الجنرال «بنكنى» ودولاراته التى نشترى بها لحم الرستو؟.

وخلال الأسابيع التالية كان «جو» وزوجته يتناولان طعام الإفطار فى ساعة مبكرة جدا لأن «جو» كان مهتما بتصوير الأطياف الأولى لأضواء النهار فى الحديقة العامة. وقبل السابعة صباحا كانت «دليا» تودعه عند الباب ممتلئ المعدة بالطعام مدثرا بالثياب مزودا بالقبلات والمداعبات والابتسامات التى تتضاءل بجانبها أضواء الصباح الوليد. وكانت تداعبه أحيانا بقولها: أن الفن عشيقة مستبدة للرسام ولكن ما من زوجة عاشقة أحبت ضرتها وجهزت زوجها لعناقها كما تفعل هى.

وفى معظم الأيام كانت عودة «جو» للبيت بعد السابعة مساء. فيعود منهك القوى. وتلاطفه «دليا» وتعابثه بغيرتها المصطنعة من تلك الضرة الجبارة التى تستنزف قوى زوجها الشاب. وبعد الأسبوع الثانى من ذلك الجهد المضنى أخرجت «دليا» بكل فخر من صدرها ثلاثين دولارا ألقت بها فوق المنضدة الصغيرة وقالت:

– فى سبيل هذه احتملت بطء فهم كليمنتينا وكسلها.

Telegram: electronic_library

وفى صمت وبعنجهية أخرج «جو» عشرين دولارا ألقى بها على المنضدة فوق الدولارات «دليا» وقال بزهو:

– هذا ثمن صورة المسلة المصرية التى اشتراها رجل أبله من بلدة «بيوريا»

وتعلقت «دليا» بعنقه وقبلته، فقال:

– والمدهش أن هذا الأبله طلب نسخة أخرى منها وثلاث صور لقوارب صيد. ووعد بدفع ثمنها تباعا. بهذا المعدل العالى.

وتركت «دليا» عنقه وراحت ترقص حوله فى جذل لا مزيد عليه. إلى أن صاح بها زوجها:

– كفى رقصا الآن أيتها البلهاء الصغيرة. ألا ترين أنه لم يتجمع بين يدينا من قبل مثل هذا المبلغ الضخم فضلا عن المستقبل الوردى المفتوح أمامنا. يجب أن نحتفل بهذا اليوم العظيم.

– ألم أقل لك يا حبيبى «جو» ألم أقل لك أن اليوم الذى سيتهافت فيه المشترون على روائعك الفنية قريب؟. لولاى ولولا معارضتى لكنت تركت مستقبلك الفنى الباهر لتبيع الصحف. أو مالا أدرى من الأعمال المبتذلة.

– الفضل لك طبعا. ونخب هذا الفضل هو الذى سنشربه الليلة من زجاجة الشمبانيا التى سنشتريها الآن.

وفى نهاية الأسبوع التالى من مساء السبت وصل «جو» إلى البيت قبل «دليا» ووضع دولاراته العشرين فوق المنضدة الصغيرة. ثم غسل يديه من الطلاء الأسود الذى كان عالقا بهما. وبعد منتصف ساعة وصلت «دليا» وقد أحاطت بيدها اليمنى لفافة ضخمة من الضمادات. وسألها ملهوفا:

– ماذا حدث؟.

Telegram: electronic_library

- أنها نزوة من نزوات كليمنتينا، فهى كما تعلم غريبة الأطوار. وقد أصرت الليلة بعد انتهاء الدرس على تناول نوع من انتهاء الدرس على تناول نوع من الحساء على الطريقة الأيرلندية. وعبثا قلت لها أن الساعة الخامسة ليست مناسبة لذلك الطعام فكادت تبكى.

وأصر الجنرال على تلبية رغبة وحيدته اليتيمة المدللة وأخذ يعاونها بنفسه فى المطبخ فاليوم السبت كما تعلم وجميع الخدم فى عطلة. وما أن فرغنا من إعداد الحساء على النار حتى صفقت كليمنتينا طربا. وبحركة يديها الطائشتين قلبت الحساء من فوق الموقد على يدى فأحرقتها. واندفع الجنرال كالمجنون غير مكترث بأناقته ووقاره وشيخوخته وتاريخه العسكرى المهيب واجتاز الشارع بسرعة إلى صيدلية جاءنى منها بمرهم ملطف وقطن وضمادات. وهى الآن لا تؤلمنى كثيرا. ورفع جو يدها المربوطة برفق. ثم جذب شعرتين بيضاوين من تحت الضمادة وسألها وهو يتأملها:

- ما هذا؟.

- شئ ناعم. نوع من القطن فيما أظن مغموس فى زيت ملطف أو مرهم لا أدرى. ليس هذا مهما، هل بعت لوحة أخرى هذا الأسبوع؟. ما أسعدك!..

- طبعا!. كان هذا موعدى مع ذلك الرجل البدين القادم من بيوريا. ولكن فى أى ساعة بالضبط احترقت يدك؟.

- فى نحو الساعة الخامسة فيما أظن.

- أجلس هنا لحظة يا «دليا».

Telegram: electronic_library

وبرفق شديد أخذها إلى الأريكة وأرقدها وجلس بجوارها وأخذ يدها المضمدة بين يديه بحذر شديد وسألها:

- صارحينى يا «دليا» ماذا كنت تصنعين طيلة هذه الأسابيع الثلاثة؟. أصدقينى القول.

واستطاعت أن تثبت عينيها المتيمتين فى عينيه بعناد وهى تغمغم بعبارات متقطعة عن الجنرال العجوز وابنته التى تسعل وعن أطوارها الغريبة ونزواتها. ولكنها فجأة أحست بعدم جدوى ذلك كله وطفرت الدموع من عينيها وخرجت من شفتيها كلمة الصدق:

- لم أستطع الحصول على تلاميذ. ومن الذى يثق بفتاة ناشئة كى تعلم ابنته. ولم أستطع أن أتحمل انقطاعك عن دراسة فنك المحبوب وتخليك عن مستقبلك الباهر. وقرأت إعلانا على واجهة مغسل كبير فى الشارع الرابع والعشرين يطلب فتاة تكوى القمصان. والتحقت بالعمل. وأعتقد أننى أفلحت فى إبداع شخصيتى الجنرال وابنته كليمنتينا. ألست ترى ذلك يا عزيزى جو وبعد ظهر اليوم أخطأت إحدى زميلاتى فوضعت المكواة فوق يدى. فظللت طول الطريق إلى هنا أحبك قصة الحساء، قل لى يا حبيبى جو أنك لست غاضبا علىّ. أليس الفضل لهذا العمل فى أنك بعت لوحاتك وصرت رسام يقبل عليه المشترون ويفتح له المستقبل الباسم ذراعيه؟. ولولا أننى اعترفت لظللت تجهل الحقيقة.

- هذا صحيح لولا أننى أعرف هذا النوع من القطن. فهو من القطن التالف. وأنا الذى غمسته فى الزيت فى حجرة الآلات بعد ظهر اليوم حيث أعمل وقادا فى المغسلة الكبرى بالشارع الرابع والعشرين. عندما هبطت فتاة من الطابق العلوى وطلبت شيئا تداوى به حرقا أصاب يد إحدى زميلاتها العاملات.

Telegram: electronic_library

- أوه يا جو.. ألا وجود إذن لذلك الرجل البدين من بيوريا

- بل يوجد. ولكنه ليس من بيوريا بل من بلد آخر هو الذى ينتمى إليه الجنرال وابنته العليلة غريبة الأطوار.

- لا عليك. فعندما يكون القلب عامرا بالحب. لا يبالى المرء أن تدمى يداه بأشواكه

أوهنــرى

■■■

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

مانون ليسكو

Telegram: electronic_library

Telegram: electronic_library

فى سن السابعة عشرة كنت أكمل دراستى بمعهد الفلسفة فى معهد «اميان» حيث أرسلنى والداى اللذان ينحدران من إحدى الأسر العريقة بشمال فرنسا، وكان سلوكى فى المعهد مثاليا بحيث اتخذنى الجميع قدوة لبقية الطلبة، ذلك أنى نشأت بطبعى هادئا مسالما، أنفر من الرذيلة نفورا غريزيا اعتبره الناس فضيلة. وكنت مجدا مجتهدا فى الاستذكار، عن ميل لا عن قهر وإرغام. وقد جعلتنى هذه السمعة الطيبة محبوبا من أسقف المعهد، بحيث اقترح علىّ أن أكرس حياتى للخدمة الدينية بدلا من الالتحاق بفرق «فرسان مالطة» العسكرية كما كان يعدنى والداى.

وكان أخلص صديق لى فى المعهد طالب يكبرنى ويسبقنى فى الدراسة بعدة أعوام، يدعى «تيبرج» وكان فقر أهله قد اضطره اضطرارا إلى دراسة الدين، وجعله يثابر على دراسته مثابرة عظيمة. وكان ذا خلق قويم وصفات حميدة، وقد خصنى بصداقته الخالصة وكرمه، ومحبته... ولو أصغيت لنصيحته الحكيمة لظفرت بالسعادة الحقة طيلة حياتى

فى اليوم السابق لبداية العطلة الدراسية، وكنت أعتزم السفر فى الغد إلى حيث يقيم أهلى، خرجت مع صديقى تيبرج نذرع شوارع البلدة متسكعين.. فلمحنا عربة المسافرين القادمة من «أراس» تقف أمام باب

Telegram: electronic_library

الحانة التى تتخذها محطة نهائية لها. وبدافع الفضول وقفنا نشهد ركاب العربة وهم يهبطون منها. وكان من آخر الركاب الذين هبطوا فتاة فى مقتبل العمر، على قدر من الحسن والجاذبية أنسانى حيائى الفطرى وتحفظى، وجعلنى ـ أنا الذى لم أنظر يوما إلى امرأة نظرة يميلها الغرض أو الاهتمام الخاص ـ أتجه من فورى نحو الحسناء وقد استخفتنى بهجة وانشراح عجيبان

?كانت الفتاة تكبرنى بقليل، ولم يبد عليها أدنى ارتباك أو اضطراب حين سألتها فى أدب بالغ عما جاء بها إلى «اميان» ?وعما إذا كان لها فى البلدة أصدقاء؟. فأجابتنى فى بساطة بأن أهلها قد أرسلوها كى تدخل الدير وتصير راهبة!. وفى أثناء تبادلنا هذا الحديث القصير كان مرافقها، وهو رجل متقدم فى السن تبدو عليه هيئة الخادم الخاص، منشغلا بإنزال حقائبها من فوق سطح العربة

وأبديت للحسناء أسفى العميق لان أسمع أنها تنوى إخفاء جمالها وراء أسوار دير!. وأمدتنى عاطفتى المفاجئة التى انبثقت فى قلبى بفصاحة وجرأة لم آلفهما، فرجوت الفتاة أن آخذها تحت حمايتى، واعدا بإنقاذها من طغيان أبويها وتكريس حياتى لإسعادها. فأجابتنى بأن لا شىء يسرها بدورها قدر الاقتراح الذى أعرضه، فإنها تمقت فكرة الرهبنة والدير. ولكن كيف نستطيع تحقيق الفكرة؟

وفيما كنا نتحدث، أقبل خادمها المسن. ولدهشتى واغتباطى أوضحت له الحسناء فى هدوء وبساطة أننى ابن عمها! وأنها قد سرت بالفرصة التى أتاحت لنا أن نلتقى كى نتناول العشاء معا. ثم أضافت أنها سترجئ الذهاب إلى الدير إلى الصباح.

Telegram: electronic_library

ووافق مرافقها، مضطرا، فأخذتها من فورى إلى حانة أخرى كان صاحبها يعمل فيما مضى حوذيا عند أبى. بعد أن تخلصت من صديقى تيبرج - الذى لم يعرف شيئا من الحديث الذى جرى بينى وبين الفتاة - مكلفا إياه بأداء مهمة اخترعتها لحظتئذ.

ولم أكد أنفرد بفاتنتى حول مائدة العشاء حتى شرعنا فورا فى تدبير أمر مستقبلنا. فاتفقنا على أن أرسل إليها عربة تنتظرها بالقرب من الحانة فى ساعة مبكرة من الصباح التالى. ثم ننطلق بالعربة معا إلى باريس حيث نعقد زواجنا بمجرد وصولنا.

وتركت حسنائى بعد العشاء وعدت إلى صديقى «تيبرج» الذى لم يكد يقف منى على تفصيلات القصة حتى عارض بشدة فى إقدامى على الخطوة التى اعتزمتها. فلما لمست تصميمه على منعى وإفساد خطتى بأى ثمن تظاهرت بأنى اقتنعت برأيه ووعدته بأن لا أتخذ أية خطوة حتى ألقاه فى صباح اليوم التالى.

لكنى كنت كاذبا فى وعدى بالطبع. فلم يكد ينبثق فجر اليوم التالى حتى كنت انتظر «مانون ليسكو» - فقد كان هذا اسم الحسناء - خارج باب الحانة. ولم تلبث هى أن أقبلت حسب موعدنا، فوضعت متاعها فى العربة وأجلستها بجانبى ثم انطلقنا ننهب الطريق إلى باريس

وفى نهاية النهار بلغنا بلدة «سان دنيس» قبيل هبوط للظلام. وهناك نسينا أن نعقد زواجنا ووجدنا أنفسنا زوجا وزوجة. دون تدخل القسيس

وفى باريس اتخذنا مسكنا مفروشا بجوار مسكن «مسيو دى ب..» وهو ثرى من أصحاب الأطيان، وأحسسنا أن سعادتنا قد اكتملت. لكنى تبنيت بعد مدة رصيدنا المالى المحدود قد أخذ يتبخر بسرعة، بحيث لن يعيش

Telegram: electronic_library

طويلا، بدأ يساورنى القلق. فاعتزمت أن أبذل ما فى وسعى كى أسترد رضاء أبى - الذى قاطعنى منذ فرارى مع مانون على النحو السابق - ثم أسعى للحصول منه على شئ من المال.

لكن مانون اعترضت على هذه الفكرة، ولما كانت هى التى تتولى الإنفاق على البيت وتنظيم ماليتنا، فقد تعهدت بأن تدبر الأمر بحيث تكفينا نقودنا أطول مدة ممكنة. فإذا نفذت آخر الأمر ففى استطاعتها هى أن تحصل على نقود من أقرباء لها يقيمون فى الريف.

وكان سهلا على أن أقتنع بمنطق امرأة فى حسنها الفاتن، ?فتركت التفكير فى المسألة، واضعا ثقتى الكاملة فى حب مانون وتفانيها فى الإخلاص لى.

وذات مساء، خرجت من البيت تاركا مانون فيه، فلما عدت تباطأت الخادمة الصغيرة التى كانت تقوم على خدمتنا فى فتح الباب لى وحين ألححت عليها فى إيضاح السبب أبدت الحمقاء عذرا سخيفا. وأخيرا اعترفت باكية بأن سيدتها أوصتها بألا تفتح الباب حتى يخرج «مسيو دى ب» من سلم الخدم!

وفى غمرة ارتياعى ودهشتى لم أدر ماذا أفعل. وأخيرا قررت أن لا أفاتح مانون فى الأمر، محاولا إقناع نفسى بأن هناك ولابد سببا وجيها للتصرف المريب الذى بدا لى منها.

وفى ذلك المساء كانت مانون معى غاية، بل آية، فى الرقة. لكنها بدت وقت العشاء ساهمة مكتئبة. ثم بدأت الدموع تهطل من عينيها الجميلتين. وحاولت مفزوعا أن أسرى عنها، ولكن بغير جدوى. وفى هذه الأثناء فوجئت بطرق مكتوم على الباب، فعانقتنى مانون وانطلقت تعدو إلى مخدعها.

Telegram: electronic_library

وحين فتحت الباب لأرى من الطارق أمسك بى ثلاثة رجال عرفت فيهم خدم أبى. وإذ أوضحوا لى أنهم يتصرفون هكذا خضوعا لأوامر سيدهم، راجين أن أغفر لهم مسلكهم، أمسك اثنان منهم بذراعى بينما شرع الثالث فى تفتيش جيوبى!. ثم أخذونى عنوة إلى أسفل ووضعونى فى عربة كانت تنتظر أمام الباب. وهنالك وجدت فى العربة أخى الأكبر، الذى قبلنى فى حرارة لكنه لم ينطق بكلمة!. ثم لم تلبث العربة أن انطلقت بنا بأقصى سرعتها إلى «سان دنيس» دون أن نتبادل عبارة واحدة لكن أخى خرج هناك عن صمته فراح يواسينى ويسرى عنى بأرق لهجة وألطفها!.

وبعد أن قضينا الليلة فى سان دنيس، استأنفنا رحلتنا فى الصباح إلى بلدتنا. وحين وصلنا وبخنى أبى فى رفق على فعلتى، وأعرب عن أمله فى أن أكون أكثر تعقلا وفطنة فى المستقبل، فشكرته، فى لهجة تنطوى على الاحترام البالغ على نصيحته وعنايته بأمرى، واعدا إياه بأن يكون مسلكى فى المستقبل سليما طيبا.

وحول مائدة العشاء مازحنى الجميع بشأن غزوتى الغرامية وما يتصل بها، فتقبلت المزاح بصدر رحب. حتى جاء ذكر مسيو دى ب.. فانتفضت شكوكى وهواجسى، وتساءلت غاضبا عن صلة السيد المذكور بشئونى؟. وعندئذ قيل لى - بين الضحكات الصاخبة - أننى قد خدعت. وأن «مسيو دى ب» كان على صلة بمانون منذ يوم وصولنا إلى شارع «ف» على وجه التقريب. وأنه هو الذى لم يكد يكتشف شخصيتى حتى وشى بى لأبى - بتحريض من مانون - وبذلك مكنه من اختطافى.

وكانت الصدمة من العنف والقسوة بحيث سقطت على أثرها فاقد الوعى. وحين أفقت من إغمائى تدافعت الدموع الرحيمة إلى مقلتى. وإذ

Telegram: electronic_library

رأى أبى مبلغ عمق جراحى أسف على مزاحه القاسى فحاول التكفير عنه بكل ما فى وسعه لكنه لم يكد يسمعنى أعلن تصميمى على العودة إلى باريس كى أقتل مسيو دى ب، حتى قال لى فى بساطة وحزم أننى ينبغى ألا أفكر فى مبارحة البيت أو أطمع فى ذلك. والواقع أننى وجدت نفسى منذ تلك اللحظة «سجينا» فى منزل أسرتى.

وبقيت على هذا الوضع ستة أشهر تحت رقابة صارمة. أما فيما عدا ذلك فقد عاملنى أهلى بكل رعاية وحنان. ولم تلبث سكينة نفسى أن عاودتنى بالتدريج. حتى اعتقدت فى النهاية أنى شفيت من حبى لتلك الغادرة «مانون»

وذات يوم جاء صديقى «تيبرج» يزورنى وقد فاض قلبه إخلاصا وشوقا كعهدى به، ونصحنى نصيحة تركت فى نفس أثرا عميقا: قال انه قد طلق حماقات الشباب واعتزم أن يكرس حياته للفضيلة والعفة فى رحاب الدين. ثم ناشدنى بحرارة أن أحذو حذوه.

وأثرت أقواله فى نفسى، واقتنعت بجمال الحياة التى يعرضها علىّ. فعرضت الأمر على أبى، الذى وافق من فوره على أن أترك اتجاهى القديم للجيش وأنخرط فى سلك الكنيسة، بعد أن أتلقى الدراسة التى تؤهلنى لذلك فى معهد «سان سولبيس» حيث يدرس صديقى تيبرج.

والتحقت بالمعهد المذكور بالفعل. وواصلت الدراسة الجدية فيه عاما كاملا لم يتخلله أى عائق يقطع انتظامى فى التحصيل. كنت أعمل جادا مثابرا فى حماسة ظاهرة واقتناع داخلى بأننى خلقت لحياة الدين والتعبد. ونجحت فى اتجاهى الجديد إلى الدرجة التى أهلتنى لأن أشترك فى مساجلة علنية عامة أمام مدرسة اللاهوت. وشهد كل أصدقائى الذين

Telegram: electronic_library

حضروا لسماعى وأنا أناظر أساطين الدين فى دار جامعة «السوربون» إننى كنت موفقا للغاية.

وحين عدت إلى معهدى بعد انتهاء المناظرة كانت عبارات المديح الإجماعى ما تزال ترن فى أذنى. على أنى لم أكد أصل حتى أنبئت أن سيدة تنتظرنى فى البهو.

ولم تكن تلك السيدة غير.. مانون!.. وقد بدت أجمل وأشهى منها فى أى يوم من الأيام!

وقالت أن الفضول قد ساقها فى ذلك العصر إلى «السوربون» لترى ما إذا كان «الاب دى جريو» الذى أعلنت الجامعة أنه سيحاضر فيها هو نفس الصديق العزيز الذى لم تقع عيناها عليه منذ قرابة عامين؟ ثم أضافت أنها قد جاءت لتلتمس منى الصفح وتنبئنى بأن حبها لى لم يكن يوما أقوى منه الآن!. ثم ارتمت بين ذراعى وقبلتنى بكل عنفوان عاطفتها القديمة، وهى تقسم لى أنها ستنهى حياتها بيدها إذا رفضت حبها. وإن «مسيو دى ب» لم يكن يعنى شيئا فى حياتها، وأما أنا فإنى كل شئ بالنسبة لها. وبغيرى لن تستطيع ولن تقبل أن تعيش.

هل يستطيع عقل أن يصدق أننى ـ فى خلال دقائق معدودات ـ نسيت كل نوايای الطيبة، ومستقبلى المرموق، وبرنامجى الطويل. وهجرت المعهد ـ إلى غير رجعة! ـ لانطلق مع مانون فى عربتها، التى كانت تنتظر عند زاوية الطريق؟.

نعم، فهذا بالضبط ما حدث. وقررنا، طلبا للسلامة، ألا نعيش فى باريس، بل نذهب إلى «شايو» وهناك قضينا الليلة فى حانة، ثم عثرنا فى اليوم التالى على مسكن مريح. وقدرنا أن الستين ألف فرنك التى تملكها

Telegram: electronic_library

مانون تكفينا للمعيشة نحو عشر سنوات. وخلال هذه المدة أكون أنا قد بلغت سن الرشد فأحصل على نصيبى من ارث الأسرة.

وانصرمت أشهر الصيف ونحن فى اطمئنان إلى هذا الحساب. وحين أقبل الشتاء، وجدنا الضاحية التى نقطنها موحشة كئيبة، فانتقلنا مؤقتا إلى باريس. وهناك اهتدى إلى مقرنا - لسوء الحظ - شقيق لمانون كان يعمل فى الحرس، وكان شخصا خشنا، مستهترا، مسرفا. فلم يلبث أن صار حملا ثقيلا على مالية مانون، وراح يرهقها بطلب المال كل حين!

وليت البلاء اقتصر على ذلك، بل لقد حلت بنا الطامة الكبرى حين شب حريق ذات ليلة فى مسكننا السابق الذى كنا ما نزال نحتفظ به فى «شايوه» وكانت مانون تخفى فيه أموالها، كى تتعلل بذلك أحيانا لرفض مطالب شقيقها المسرف!

وهكذا فقدنا كل مالنا، وإن لم نعلم إذا كانت قد التهمته النار أم سرقه لص أثناء إطفاء الحريق. وعندئذ أدركت - وأنا العليم بحب مانون للترف - العاقبة الحتمية لذلك الحادث المشئوم، فهمست لنفسى فى مرارة: «سوف أفقدها مرة أخرى» . ومن ثم رحت أجهد ذهنى فى البحث عن وسيلة أحصل بها على المال لتعويض تلك الخسارة والإنفاق على معيشتنا. وبلغ من قحة شقيق مانون وضعته اللتين أظهرهما فى هذا الظرف أنه ألمع من طرف خفى إلى أن شقيقته تستطيع تدبير معاشنا بسهولة إذا أرادت. ورغم أن المعنى الذى رمى إليه لم يغب عنى، فانى تغايبت وتركت المناقشة تمر بسلام.

وألجأتنى الحاجة العاجلة إلى نقود نواجه بها نفقاتنا الضرورية، إلى التردد بصحبة ليسكو - الشقيق - على ناد للقمار كان هو من رواده.

Telegram: electronic_library

وسرعان ما تعلمت بعض ألعاب الورق وبرعت فيها إلى حد أنى صرت أخرج من النادى فى أكثر الليالى بأرباح لا بأس بها، كفلت لنا أن نعيش فى المستوى المترف الذى ألفناه.

وذات مساء، دعانى ليسكو مع شقيقته إلى تناول العشاء فى الخارج. فلما عدنا لم نجد لخادمة مانون وخادمى الخاص أى أثر، كما لم نجد أثرا للمبلغ الذى كنت قد جمعته من المال، ولثيابى جميعا، وثياب مانون!. وبالاختصار فقد أفقدتنا الكارثة الجديدة كل شئ.

ونصحتنى مانون بإبلاغ رجال البوليس، لكن تحرياتهم لم تفض إلى نتيجة. وأثناء غيبتى عن البيت انتهز ليسكو الفرصة فقدم شقيقته مانون إلى من يدعى «مسيو دى ج. م» وهو شيخ متصاب لا يضن بمال فى سبيل إشباع شهواته. وقبل أن أعود كان الطرفان قد فرغا من مساومتهما وعقدا اتفاقهما الشائن، فرحلت مانون تاركة لى خطابا مليئا بعبارات الوجد والهيام، تعتذر لى فيه عن اضطرارها إلى هجرى للمرة الثانية.

وفيما كنت أحرق الارم غيظا وندما على غفلتى، دخل على الشقيق الرقيع ليسكو. فاختطفت سيفى من غمده وهممت بأن أصرعه لفورى، لكنه استمهلنى قائلا انه يحمل إلى رسالة من مانون! وكانت اللعينة تقول فى رسالتها أنها إنما تراوغ «مسيو دى ج» وتصاوله ممنية إياه بأن تمنحه ذاتها، حتى تحصل فى يدها على الجواهر الرائعة والمبلغ الكبير من المال والعربة والجواد، التى وعدها بها كلها الرجل وعندئذ تتركه محروما من المقابل وتهرع عائدة إلى «الرجل الوحيد الذى أحبته فى حياتها!».

وهكذا، وبرغم اشمئزازى من الخطة، فقد وجدتنى أضعف فأقبلها مكرها، خشية أن أفقد مانون نهائيا. ودخلت بالفعل فى مفاوضات مع

Telegram: electronic_library

الشقيق لإعداد خطة الاحتيال على العاشق الجديد.. وفى الموعد المحدد لتنفيذ الخطة كنت أتناول العشاء مع مانون وشقيقها فى منزل الثرى الأبله، فلم تكد نفرغ من الطعام حتى عمدنا إلى الفرار بغنائمنا من الجواهر والنقود الموعودة التى كانت مانون قد حصلت عليها بالفعل خلال السهرة.

ولم يضيع «مسيو دى ج» وقتا فى إبلاغ رجال البوليس، وإطلاقهم فى أثرنا. فلم تمض أيام حتى وجدت نفسى نزيل سجن «سان لازار» بينما أرسلت مانون إلى المستشفى العمومى، وهو السجن الخاص الذى أعد للنسوة ذوات السيرة السيئة والسلوك المريب، وكان مجرد تفكيرى فى أن تقيم امرأة رقيقة مثل مانون فى مكان كهذا كافيا لتعذيبى وإقلاق مضجعى. لكنى انتهيت من تفكيرى المضنى فى هذا الأمر إلى أنى لكى أخلصها من عذابها لابد لى من إطلاق سراحى أنا أولا.

ولن أطيل عليك يا سيدى فى شرح الخطوات التى توصلت بها إلى الفرار من سجن سان لازار. ?وإنما يكفى أن تعلم أننى استرددت حريتى بواسطة ارهابى للكاهن الدينى الذى جاء ليعظنى ويرشدنى فى السجن، فقد شهرت فى وجهه المسدس الذى أمدنى به خلسة شقيق مانون. ?كما لن أثقل عليك بوصف الوسائل التى تمكنت بها من تهريب عشيقتى العذبة من سجنها بعد فرارى أنا بمدة وجيزة!

وعلى أثر لقائنا التجأنا إلى تلك الحانة التى نزلنا بها من قبل فى ضاحية شايو، وهناك عوملنا من القوم الذين يعرفوننا بتكريم وترحيب. ورغم أن أحدا منا لم يكن يملك أية عملة نقدية أو أشياء ذات قيمة يمكن رهنها مثلا، فإننا طلبنا من صاحب الحانة كل ما اشتهته نفوسنا من

Telegram: electronic_library

الأطعمة ووسائل الراحة، مخفين سر فقرنا ومعتمدين على المصادفة كى تنقذنا من المأزق الحرج الذى كنا فيه.

وفى الصباح التالى تركت مانون فى الحانة ومضيت إلى باريس ماشيا على قدمى - لعدم امتلاكى أجر الركوب - وهناك قصدت إلى صديقى المخلص تيبرج، الذى أقرضنى مبلغا بغير تردد. وكان قد سمع بنبأ فرارى من سجن سان لازار، لكنه لم يعرف شيئا عن مانون، فآثرت أن أدعه جاهلا بما جرى لها هى الأخرى. ثم عدت إلى شايو سعيدا بالمال الذى فى جيبى، وهناك كافأتنى مانون على توفيقى بنوبة من عناقها الحار وتدليلها الساحر الذى ذكرتى بالأيام الأولى من علاقتنا..

وبعد قليل فوجئنا، لدهشتنا، بزيارة من ابن «مسيو دى ج» الذى تسبب فى الزج بنا فى السجن، وقال الزائر أنه وقد عرف مخبأنا شعر أن من واجبه الحضور للإعراب لنا عن أسفه من أجل المعاملة القاسية التى لقيناها من أبيه.

ثم تكررت زيارات الشاب، الذى كانت تبدو عليه نفس مظاهر الثراء التى بدت لنا من أبيه. ولم تمض أيام حتى لاحظت أنه قد شغف بمانون ووقع فى هواها، لكن ذلك لم يدهشنى بقدر ما أقلقنى، سيما وقد كنت أعلم أن جمال مانون كان كفيلا بأن يدير رأس أى رجل، فى أية سن؟!

ولا ألبث أن تبينت أن عشيقتى قد فطنت للعاطفة التى أشعلها حسنها فى كيان الشاب، وأنها قد اعتزمت أن تستغلها فقد قالت لى: «ان هذا الفتى هو ابن عدونا اللدود فعلينا أن ننتقم من الأب فى «جيب» ابنه وعليه فسوف أصغى لمغازلاته ونجواه وأقبل هداياه. ثم أخدعه».

وكان هذا ما فعلته على أن تفر هى منى مع الشاب، حتى إذا وضعت يدها على كل تستطيع ابتزازه منه، فرت منه ولحقت بى فى أحد مسارح باريس.

Telegram: electronic_library

لكنها بدلا من أن تحضر إلىّ بنفسها فى الموعد المضروب أرسلت إلىّ فتاة رائعة الحسن صديقة سابقة من صديقات عشيقها الجديد، تحمل إلى خطابا تقول لى فيه فى عدم مبالاة انه نظرا لان الشاب قد عاملها معاملة كريمة فقد استحال عليها أن تلقانى فى تلك الليلة كما اتفقنا ثم أعربت عن أملها فى أنى تحظى بمتعة رؤيتى مرة أخرى فى فرصة قريبة. وأخيرا ففى وسعى فى هذه الأثناء أن أجد عزاء فى رفقة الفتاة حاملة خطابها!

ولم أكتشف إلا فيما بعد أن هذه الرسالة القاسية المهينة قد كتبتها مانون بإملاء عشيقها الشاب!

لكنى وقفت من حاملة الخطاب على عنوان المكان الذى ستقضى فيه مانون وصاحبها ليلتهما. فمضيت من فورى إلى صديق لى وللشاب فى الوقت نفسه، ورجوته بإلحاح أن يرسل كلمه إلى الفتى يناشده فيها أن يخف إلى رؤيته من فوره لأمر بالغ الخطورة والاستعجال!

ونجحت الخدعة، فخرج الأبله ملهوفا ليوافى صاحبه الذى استدعاه. ولم يكد يدير ظهره حتى تسللت أنا من مخبأى إلى داخل البيت، فوجدتها هناك.

وقابلت المرأة ثورتى وإهاناتى بهدوئها المألوف ورقتها الآسرة، دون أن تضطرب أو يبدو عليها أدنى انزعاج، ثم راحت تعدد الأسباب التى جعلتها تتصرف على النحو الذى فعلته. فبدت حججها مقنعة للغاية بحيث لم ألبث أن هدأت تماما.

وعندئذ خطرت لى نزوة غريبة: ماذا لو أكلت طعام العشاء الذى أعد للشاب، وقضيت الليلة فى الفراش الذى كان يمنى نفسه بأن تشاطره فيه مانون؟.. وفى الصباح نستطيع أن نفر سويا، وبذلك يكون انتقامنا كاملا.

Telegram: electronic_library

ووافقت مانون على الخطة بحذافيرها، وأخذت تتصور حنق عشيقها حين يحرم من مباهج ليلته. فانطلقت تضحك من قلب خلى حتى سالت دموعها على خديها!

ولكن كيف نستطيع تنفيذ خطتنا؟

وفجأة خطرت لى فكرة خبيثة: كنت قد تعرفت إلى عدد من رجال الحرس زملاء ليسكو، فخرجت واتفقت مع ثلاثة منهم على أن يتقاضوا مبلغا من المال نظير أن يتحرشوا بالشاب عند عودته ويأخذوه إلى قسم البوليس ليبيت فيه حتى الصباح.

لكن سوء طالعى شاء أن يعود الشاب ومعه خادمه، الذى لم يكد يرى ما حل بسيده حتى هرع رأسا إلى «مسيو دى ج» والد الفتى وأنبأه بالكمين الذى أعد لابنه. وحين ضيق هذا عليه الخناق اعترف له بصلة ابنه بمانون وعنوان البيت الموجودة فيه!

وفى تلك الأثناء كنت ومانون قد تناولنا عشاءنا فى مرح وهممنا بأن نأوى إلى الفراش حين ظهر فى الباب غريمنا القديم «مسيو دى ج» وفى صحبته عدد من رجال الشرطة!

كان التفكير فى المقاومة حماقة عديمة الجدوى، فقبل أن أمد يدى إلى سيفى كانوا قد أمسكوا بى وشدوا وثاقى. ثم أخذونا إلى سجن «بتى شاتليه» حيث فرقوا بيننا، بعد أن أقسم كلانا للآخر يمين الحب والإخلاص الأبديين.

ولم تمض على فى سجنى أيام حتى وصل أبى ليرانى ولم يدهشنى منه توبيخه العنيف لى، أنا ابنه الضال. كما لم يدهشنى أيضا أن يعدنى، بعد أن هدأت ثائرته قليلا، ببذل كل ما فى وسعه فى سبيل إطلاق سراحى

Telegram: electronic_library

بأقرب فرصة. وقد نجح فى مسعاه هذا فى نفس اليوم، بعد أن تباحث مع «مسيو دى ج» ورئيس البوليس. لكنه رفض رفضا باتا أن يتدخل لتخفيف الحكم الذى صدر على مانون المسكينة، والذى علمت لفرط جزعى أنه يقض بترحيلها إلى أميركا مع فريق من النساء سيئات السيرة. فى اليوم التالى مباشرة!

وفى حمى الحزن الغامر المجنون الذى دهمنى لمجرد التفكير فى أنى سأفقد محبوبتى إلى الأبد، رشوت عددا من الجنود كى يساعدونى فى إعداد كمين لمهاجمة الحراس الذين سينقلون مانون إلى الميناء. ولكن فى اللحظة الحرجة التى تعين فيها على مساعدى أن ينفذوا خطتنا، خذلنى أربعة منهم ولاذوا بالفرار. وهكذا، بدلا من مقاتلة الحراس وجدتنى مضطرا إلى مصادقتهم واسترحامهم كى يسمحوا لى بمرافقتهم إلى ميناء «هافر» فقبلوا رجائى بعد تدخل «النقود» فى المساومة!

وهكذا أتيح لى على الأقل أن استمتع بمرافقة مانون التعسة فى رحلتها، وأحاول التسرية عنها جهد طاقتى طيلة الطريق، فقد كانت المسكينة فى حالة يرثى لها. وحين وصلنا إلى «باسى» التقيت بك يا سيدى، ولولا المنحة المالية التى تفضلت بها على فلربما كان تعذر على المضى فى الرحلة حتى ميناء هافر. أما سفرى مع مانون إلى أمريكا فلم أصادف فى سبيله عقبة ما، فقد حصلت على تذكرة السفر والطعام طيلة السفرة بلا مقابل، إذ كان القوم فى الدنيا الجديدة فى حاجة ماسة إلى السواعد الفتية لتعمير القارة العذراء.

ووصلنا بالسفينة إلى «نيوأورليانز» حيث استقبلنا حاكم هذه البلدة الصغيرة الموحشة وسكانها القلائل بالترحيب الودى. واعتبرونى ومانون «زوجا وزوجة» فأعطونا كوخا صغيرا لنقيم فيه.

Telegram: electronic_library

وكان حاكم المدينة رجلا رقيقا لطيف المعشر، فلم تنقض على وصولنا مدة قصيرة حتى أسند إليّ وظيفة مكنتنا من أن نعيش معيشة مستريحة. ولكن كان من سوء حظنا أن تظاهرنا منذ البداية بأننا زوجان، إذ لم تلبث الحقيقة أن انكشفت. وعندئذ مضيت إلى الحاكم كي أحصل منه على ترخيص بالزواج، فوافق الرجل مرحبا. ولكن لم يكد ابن أخيه - وهو شاب أعزب يدعى «سينيليه» - يسمع أننى ومانون لسنا مرتبطين برباط الزوجية، حتى سارع إلى المطالبة بزواجها منه هو. فقد كان عسيرا على أى رجل أن يرى مانون ولا يقع فى هواها.

وساءنى مسلك سينيليه بالطبع، فلما التقيت به فى خارج المدينة صارحته بما ينطوى عليه مشروع زواجه من مانون من عدوان صارخ على حقوقى. ونشب بيننا على الأثر شجار ساخن لجأنا لحسمه إلى السيف. وتشابكت سيوفنا وتصاولت، ولكن لم تمض برهة حتى كان سيفى ينفذ فى جسم مبارزى فيصيبه بجرح بالغ، أيقنت أنه سيقضى عليه.

وبات الفرار من المدينة هو كل ما بقى أمام مانون وأمامى. فتزودنا من الطعام والشراب والخمر بأقصى ما نستطيع حمله، وتسللنا من الكوخ دون أن يتنبه إلينا أحد. آملين أن نصادف من الأهالى من يقودنا إلى المستعمرة الإنجليزية الواقعة غير بعيد من مكاننا.

لكننا لم نقطع فرسخين حتى عجزت مانون عن مواصلة السير، وقد هدها التعب وصيرها «نصف ميتة» .. وكان الليل يهبط رويدا رويدا، فخلعت ثيابى وفرشتها لمعشوقتى كى تحمى جسمها من التربة الصلبة. ثم تمددت بجوارها وقبيل الفجر، استيقظت من نومى لأجد يديها باردتين تنتفضان، وهى لا تكاد تقوى على الكلام. كل ما استطاعت أن تهمس به هو قولها أنها تخشى أن تكون ساعتها الأخيرة قد دنت!

Telegram: electronic_library

وقد صدق حدسها، ويا للحسرة!.. إذ لم يمض قليل حتى كانت مانون قد فارقت الحياة!

من العسير أن أصف لك مشاعرى على أثر تلك الصدمة الأليمة. كل ما أذكره منها أنى رقدت نهارا كاملا بجوار جثة حبيبتى أستجدى الموت أن يأخذنى إليها. ثم تذكرت أن جسمها الفانى ينبغى أن يدفن، خشية أن تلتهمه الوحوش الضارية بمجرد أن ألفظ أنا أنفاسى. فقمت أحفر بأصابعى وسيفى قبرا عميقا وسدت فيه جثمان معبودة قلبى. وإذ أهلت على القبر التراب وسويت سطحه، رقدت فوقه ورحت أصلى لله كى تحين ساعتى!

لكن الأقدار ضنت على بالراحة، فقد وجدونى على شفا الموت، وأسعفونى بالعلاج. ثم اتهمونى بقتل مانون!. لكنهم لم يلبثوا أن اقتنعوا ببراءتى فأخلوا سبيلى.

أما «سينيليه» - الذى كان قد شفى من إصابته - فلم يكد يسمع بفاجعة وفاة مانون حتى أقدم على تصرف يدل على النبل والكرم: جاءنى يلتمس منى الصفح. ثم أمر بنقل جثة مانون وإعادة دفنها فى قبر لائق داخل حدود المدينة.

وها أنا يا سيدى قد وصلت منذ حين عائدا من أمريكا. وكان أول نبأ وقفت عليه بمجرد عودتى أن أبى الطيب قد مات. ولدى من الأسباب ما يجعلنى أخشى أن يكون مسلكى الشائن قد عجل بنهايته.

الأب بريفو

■■■

Telegram: electronic_library

- مقدمة ٥
- حوريات البحر ٧
- حب ملتهب ٣١
- الشك ٥٣
- ابنة الملك ٨٣
- اعترافات خاطئة ١٠٣
- المتمردة ١٣٥
- السوسن وبرعمة الورد ١٧١
- الرهان العجيب ١٧٩
- أشواك الحب ١٩٣
- مانون ليسكو ٢٠٥

Telegram: electronic_library

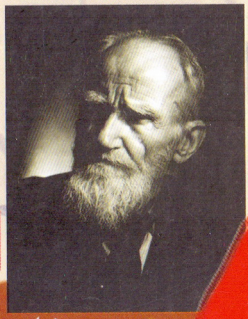

المتمردة

جورج برنارد شو

George Bernard Shaw

هذه مجموعة رائعة من الأدب العالمي لأشهر الكُتَّاب العالميين اخترتها لك من بين مئات القصص العالمية.

من الأدب اليوناني الرائع قدمت لك قصة حوريات البحر للكاتب هيرالد انا سويس. وقصة حب ملتهب للكاتب الصيني لين يوتانج. وهذه قصة عذراء الغابة لكاتب الهند العظيم ربندرات تاغور.

وبرنارد شو الذي يقدم لنا قصة المتمردة. وقصتان من الأدب الأمريكي، هما الهاوية، واعترافات خاطئة، والرهان للروائي العالمي أنطون تشيكوف. ومجموعة أخرى من القصص الممتعة. أرجو أن أكون قد وفقت في اختيارها.

Design 01065086008

الصفوة
s.atia66@hotmail.com
الصفوة س.ع

للنشر والتوزيع

9789775443076